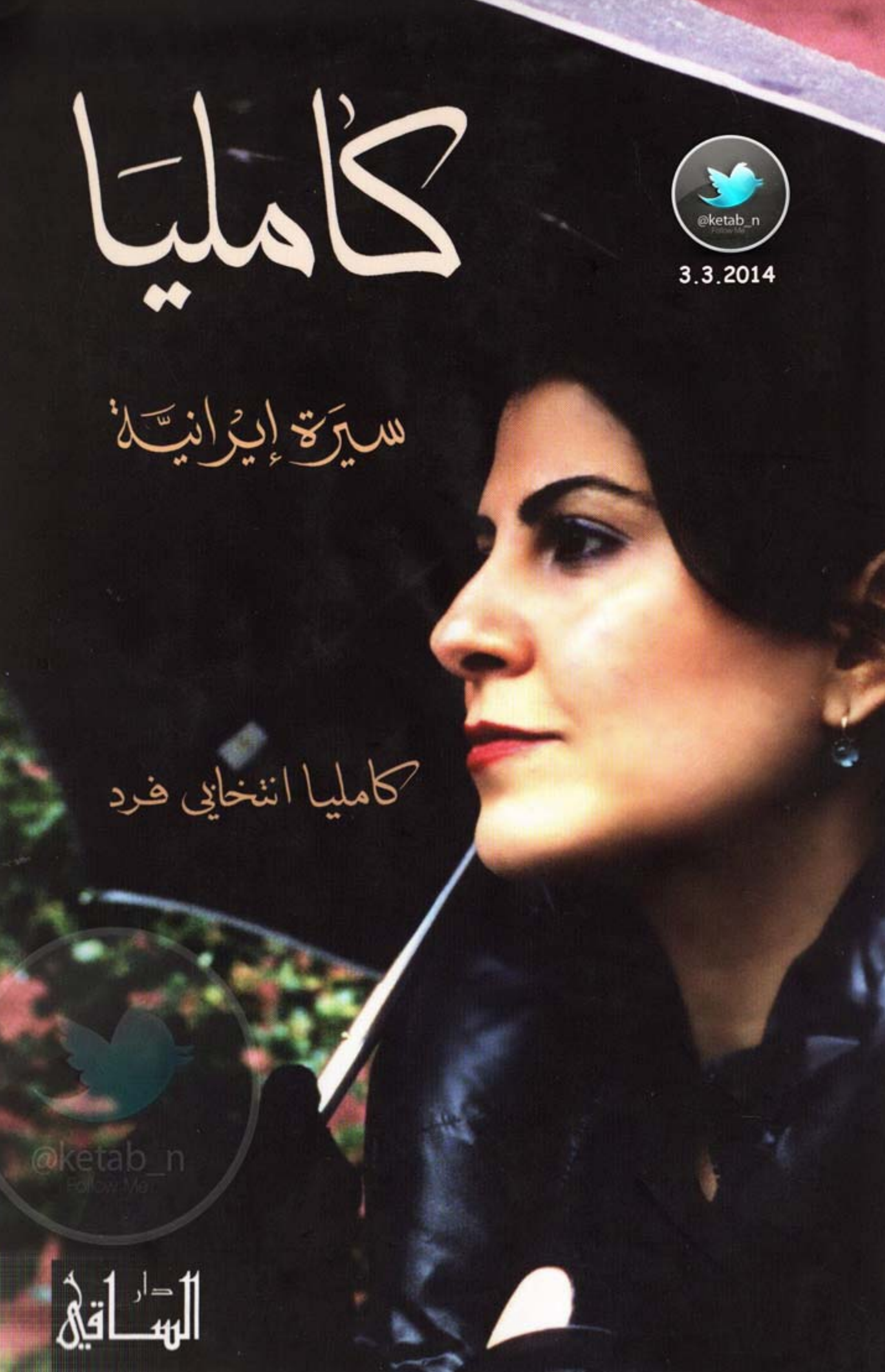
كامليا

سيرة إيرانية

كامليا انتخابي فرد



دار الساقي

كاميليا انتخابي فرد

كاميليا

سيرة إيرانية

ترجمة
أسامة منزلجي

دار الساقي

كامليا

تصميم الغلاف: سحر مغنية
صورة الغلاف: المصوّر يوسف بورسُهى، نيويورك

ISBN- 978- 1- 85516- 826- 8

Camelia Entekhabifard, *Camelia*

الطبعة الأولى 2012

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 5342/113. الرمز البريدي: 2033 - 6114

هاتف: 866442 -1 -961+، فاكس: 866443 -1 -961+

e- mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

2369.1006.040912

إلى ذكرى والدي.

إلى أمي الشجاعة والاستثنائية.

إلى كل الذين بقوا في إيران.

الفصل الأول

عندما غادر الشاه، بقينا نحن

16 كانون الثاني، 1979

جلست أمي متّشحةً بالسواد على أريكتنا قرمزية اللون في صالوننا، والدموع تسيل على وجهها. وكنتُ غالباً ما أختلس النظر إليها من غرفة نومي. كانت أُذناها مسدودتين بإحكام بالقطن، وجلست إلى جوارها مينو خانم، صديقتنا المُقرَّبة وجارتنا التي كانت دائماً تصبغ شَعرها باللون الأحمر البرغندي القاني. وكان جلياً أيضاً أنها منزعجة.

كانت أمي متشحة بالسواد حِداداً على وفاة جدّي. علِمتُ ذلك لأننا كنا قبل ذلك بشهرَين قد ذهبنا جميعاً إلى "جنّة الزهراء"، أكبر مقبرة في طهران، وأمرَ والديّ قريبتنا إلهام، وأختي كاتايون، وأنا، أنْ ننتظر في السيارة. ففهمتُ أنَّ جدّي قد مات. لكنني لم أفهم سبب نشيج أمي.

كان جهاز الراديو الترانزيستور إلى جوار أمي يُصدر الموسيقى،

وكانت بين حين وآخر تنزع القطن من أذنيها لتسمع صوت المُذيع بصورة أفضل. أرادت أنْ تسمع نشرة الأخبار، ولكنها في الوقت نفسه كانت تفتقر إلى الجَلَد على متابعة الاستماع. لكنَّ نشيجها كان يزداد شدّة في كل مرة تسمع فيها موجزاً لأهم الأنباء، وتُعيد قطعتيّ القطن وتُقحمهما أعمق في أذنيها. كان ذلك في صباح يوم الخميس، يوم عيد مولدي. لم يكن هناك بالنسبة إليّ ما هو أهمّ، وأنا في سن السادسة، من الاحتفال بعيد مولدي. كنتُ أعلم أنه لا مجال لإقامة حفل؛ لأننا في حالة حِداد. لكنَّ أمي وعدت بأنْ نذهب إلى السوق لكي أنتقي هديتي. ثم بدأ مذيع الراديو يصرخ بأعلى صوته "لقد رحل الشاه! لقد رحل الشاه!"، وأُغمي على أمي ومينو خانم.

* * *

كان الظلام قد حلّ، وانطلقنا جنوباً هابطين منحدر شارع وليّ العهد وأنا متشبثة بمعطف أمي الأسود. كانت أمي ضيّقة الصدر، وأكثرتْ من البكاء حتى احمرّت عيناها وأنفها. ولم أدعها تنسى أنْ تشتري هديتي. فأمسكت بيدي بدافع العجز الصِرف وهرعنا قاصدين محل "مُفيد"، وهو مخزن مُكدَّس حتى السقف بدُمى باربي ودُمى أخرى زاخرة بالألوان. كان السيد مفيد، صاحب المحل، دائماً ينتظر وصول أختي، كاتي، وأنا.

كان الصمت والظلام الدامس يلفّان شارعنا، كوتش أوميد. والجادّة أيضاً كان يرين عليها السكون، ولكن قبل الطريق الرئيسة العامة ببضعة شوارع اكتنفنا من كل جانب سيل من السيارات التي

تُطلِقُ أبواقها وتُسلِّط أضواءها المُبهِرة. كان الشارع ممتلئاً بهدير سعادة الناس، فأخذت أمي تسبّهم بصوت منخفض. وتشبّثتُ بها أكثر وقد ازداد اضطرابي وحيرتي. فالتفتتْ نحوي وقالت: "قلتُ لكِ من الأفضل ألا نخرج هذه الليلة..." ضاع صوتها وسط ضجيج الأبواق وصراخ الناس. كان الجميع يتبادلون التهاني والحلوى. وقدّموا التهاني لنا أيضاً، لكنَّ أمي أبقتْ رأسها مُنكَّساً وهي تشقّ طريقها قُدُماً. كان الشاه وزوجته الملكة قد غادرا إيران إلى القاهرة، بعد أشهرٍ من القتال بين القِوى الموالية للشاه والجماهير الثورية، وكان الناس يتدفقون إلى الشوارع للاحتفال.

وسط حركة المرور والضجيج المُخيفَين، برزتْ يدٌ تحمل كلب دمية عملاقاً من القماش المحشوّ من نافذة سيارة بايكان وراح يرقص، يتلوّى لنا ولا لأحد وللجميع في وقتٍ واحد. "رحل الشاه! رحل الشاه!". كان للرجل الذي يرقِّص الدميةَ لأجلنا شاربان يتدليان حتى خصره. قال بصوت عالٍ "**يا كلب ألاشي الحقير، نسيتَ أنْ تأخذ معك باختيار!**". أطلقَ على الكلب لقب ألاشي لأنَّ والد الشاه، رضا شاه، كان ينحدر من قرية ألاش في شمال إيران، وكان يقصد بباختيار رئيس الوزراء، الدكتور شهبور باختيار. وكان باختيار يتفاوض مع عدد من الجماعات الثورية، في محاولة للإمساك بزمام أمور البلد في غياب الشاه. بل إنه عرضَ أنْ يذهب إلى باريس للتفاوض مع آية الله الخميني. ولكن عندما هتف الناس "**يا كلب ألاشي الحقير، نسيتَ أنْ تأخذ معك باختيار!**" كانوا يقصدون بذلك أنهم طردوا الشاه من بيتهم – أي من إيران – ككلب أجرب.

عندما كنا في منزلنا، لم نكن قد استمعنا إلى البلاغات الرسمية التي أصدرها آية الله الخميني القادم من باريس، ولا انضممنا إلى حشود الثوريين وهم يحرقون أُطُر السيارات في الشوارع. وعندما كان الثوريون يرمون المناشير إلى فناء منزلنا ليلاً، كان والدي يرميها من جديد إلى الشارع. لم نرغب في معرفة أين يُريدون أنْ يتجمّعوا، و لم نكن مهتمين بأولئك الرجال المُسمّون المُلا ولا بذلك العجوز الواثق من نفسه ذي الحاجبين المنحنيين. أحببنا أنْ نعتقد أنَّ في استطاعتنا أنْ نلزم الهدوء ونتجاهل كل ذلك الهياج، وأننا إذا فعلنا ذلك، فسوف تهدأ الأزمة ويعود البلد إلى سابق عهده.

عندما كنا في إنكلترا لتمضية عطلة فصل الصيف اضطربت أمي حين قرأتْ كلمات "الموت للشاه" مكتوبة بالفارسية على الجدار في مترو لندن. وفي هايد بارك شاهدنا طلاباً إيرانيين شبّاناً يعتلون كراسي، ويهتفون بشعارات مُضادة للشاه وسط حشد متجمّع. وفي أكثر من مناسبة صرخت أمي فيهم وهي تضمّني وأختي كاتي إلى جانبيها. "انزلوا من هناك أيها الأولاد الجاحدون! إنَّ ذلك الشاه المسكين أعطاكم نقوداً لكي تلتحقوا بالمدارس والآن حوّلتكم النقود إلى ذئاب، تقفون هناك وتعوون!". في لندن لم تكن أمي تخشى أنْ تخبرهم أنها تدعم الشاه. لقد كانت فخورة بتعهُّد الشاه بأنْ يصون حرية المرأة وتقدُّمها في إيران، وبكل الفُرَص التي أتاحها لها. أما اليوم، وسط ساحة شارع كندي، المُحاصرة بأعداء الشاه، فقد اكتفتْ أمي بزمّ شفتيها تعبيراً عن غضبها.

أخيراً وصلنا إلى محل بيع الدُمى، فوجدناه مُغلقاً. المحال كلها

كانت مُغلقة. وخشية التعرُّض للسلب، أنزل أصحاب المحال التجارية مصاريع الأبواب عند ظهيرة ذلك النهار وهرعوا عائدين إلى منازلهم. عندما رأيت أنَّ اللافتة التي تبيِّن اسم "مفيد"، بأضواء النيون مُطفأة، بدأتْ الدموع تنهمر على وجنتيّ. لم يكن يهمّني إنْ كان الشاه قد رحل أو أنَّ أحداً غيره سيأتي ليحلّ محله، أو أنَّ الأيام المقبلة لا يمكن التنبّؤ بما تحمله. لقد أردتُ فقط هديتي. ووعدتني أمي قائلة "غداً... غداً..."

***

قبل ذلك بأسابيع، كان حشد من الطلاب الصارخين قد تدفقوا إلى فناء مدرستي، مدرسة غفاري، والغضب المرتسم على وجوههم يكاد يكون مُضحكاً. وأمام المدخل الرئيس وقفت موظفة رسمية شابة وجميلة وسوداء الشعر حارسة، وجهها مُثقل بمساحيق التجميل، وترتدي قميصاً أزراره مُثبَّتة بإحكام حتى أسفله وبنطلوناً، وثمة بندقية تتدلى عبر ظهرها. كنتُ في روضة الأطفال، وأخذتْ أختي، كاتايون، التي كانت في الصف الثالث، تسير حول الفناء ضمن مجموعة تُحاكي ما يفعله الطلاب الأكبر سناً. حاولت أنْ أنضم إليهنّ قدر استطاعتي في تلك اللعبة، لكنَّ يداً خفيّة - تخصّ أختي - أمسكت بي على الفور. وقادتني خارج ذلك الهياج إلى الجدار عند حافة الفناء. كانت تراقبني حرصاً منها على ألا أتعرَّض للسحق. وواظبتُ على المحاولة، وفي آخر مرة جرّتني أختي جانباً، وضعتْ مجموعة من قرون البازيلاء في يدي وقالت "لا تتحرّكي. ابقي في

هذه البقعة. كُلي هذه البازيلاء إلى أنْ تأتي الماما وتأخذنا".

لم أتمكن من ممارسة لعبة الأطفال الأكبر سناً، ولكن كاتي كانت حتماً تقضي وقتاً ممتعاً. وكلما دار الطلاب مارين من أمام المبنى الرئيس، كان الصِبية الأكبر سناً يرفعون كراسي سُحِبَتْ من غرف الدرس فوق رؤوسهم ويلوّحون بها أمام غرفة مكتب المدير ويهتفون "حِفاظاً على زجاج النوافذ، أغلقوا المدرسة". ووسط المُحتجّين كلهم لوّحت أختي لي بيدها والتفّت حول نفسها ابتهاجاً.

كانت مديرة مدرستنا امرأة جديّة، أنيقة الملبس، طويلة الشعر تلفّه حول رأسها كقبعة وتُحيطُ جيدها بقلائد رائعة. في ذلك اليوم، بقيت هي وباقي المُدرّسات في الداخل خائفات، يراقبنَ الثورة من فوق بقلق. حتى عصا نائبة المديرة هاباشي الخشبية التي طولها متر، والتي كانت تستخدمها لتُعاقب الصِبية الجامحين أمام غرفة الدرس في صباح كل يوم، كانت عاجزة عن الإيحاء بالخوف. وأُغلقت مصاريع نوافذ المبنى واحداً بعد آخر، ولم يعد في وسع إدارات المدارس إلا أنْ تُغلق أبوابها وتنزل لتنضم إلى الإضراب. وكان ذلك اليوم من فصل الشتاء هو آخر يوم دراسي لنا في عام 1979.

كانت حكومة الشاه تواجه تهديداً متزايداً مع اجتياح الإضرابات أرجاء البلاد كلها. وأغلقت المصارف أبوابها، وأضربت مصفاة عبدان النفطية، ومصانع الكهرباء أيضاً، وكانت منازلنا تغرق في الظلام بين حين وآخر. وأعلنت الحكومة الأحكام العرفية ومُنِعَ التجوال مدة تسع ساعات. ولكن في سكون الليل كان الناس يرتقون إلى أسطح منازلهم لكي يهتفوا "**الله أكبر**". وفي غضون دقائق تتزايد الأصوات

المتفرقة هنا وهناك إلى جوقة من مئات الأصوات.

كنا في أغلب الأيام نلزم المنزل ونشاهد التلفاز ونستمع إلى الراديو بينما تتردَّد أمي جيئة وذهاباً على منزل جارتنا مينو خانم لتبادُل آخر الأخبار. ويخرج زوج مينو خانم إلى التظاهرات ليجمع آخر المعلومات. لكنَّ والدي حذّرنا من مغادرة المنزل حتى للّعب لأنَّ المدنيين كانوا يُقتَلون عشوائياً، ويجدون أنفسهم وسط تبادُل لإطلاق النار في مواجهات مُسلّحة. ونسمع أنَّ الشرطة فتحت النار على تظاهرة ضخمة في ميدان زاله، وقتلتْ المئات. وفي صباح كل يوم نرى شعارات جديدة على الجدران في شارعنا، كُتِبَتْ على عَجَل بألوان برّاقة، "مرحباً بالخميني! لقد أسقطوا الشهداء. يسقط الشاه الخائن". في أول الأمر كنتُ وأختي كاتي نمسح قدر ما نستطيع منها عن جدراننا، ولكن في نهاية المطاف كان لا بد لنا من أنْ نرضى فقط بإزالة أشدّ الشعارات خطراً "جواسيس".

لقد أُشيعَ أنَّ والدي كان مُستخدَماً عند جهاز الاستخبارات السرية التابع للشاه. وفي تلك الأيام، كنا نسمع حكايات مرعبة عن الجرائم التي يرتكبها رجال الاستخبارات وكيف يقتلون ويعذّبون المُعارضين لنظام حُكم الشاه. لم نكن ثوريين، ولم نشارك في التظاهرات. كان أقرباء والدي، رجال ممشوقو القامات بلباس البحرية الأزرق الرسمي المشرق وأوسمة الأكتاف المذهلة، يتردّدون جيئة وذهاباً على منزلنا. كان ذلك دليلاً كافياً لوصمنا بموالين للملكية، وجواسيس، وطُغاة. وقبل ذلك ببضعة أشهر، في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، عندما بدأ الناس يخرجون إلى الشوارع، كان الشاه قد ظهر على التلفاز وقال إنَّ الرسالة

وصلته. كانت الرقابة على الصحافة قد رُفِعَتْ جزئياً. وفي ما يُشبه استعراض مكافحة الفساد، كان قد ألقى القبض وسجن حوالى 120 مسؤولاً كبيراً في الدول، من بينهم رئيس جهاز "الاستخبارات"، الجنرال نعمة الله نصيري، ورئيس الوزراء، الأمير عباس هويدا. لكنّ الناس أجابوا على تلك الإشارات الكريمة بترديد كلمات الخميني: "على الشاه أنْ يرحل". لقد رأى الشعب في رجال الاستخبارات خونة متعطشين للدماء يستحقون الموت.

ولكن مَنْ كان يستطيع أنْ يقول هذا عن والدي؟ لماذا يكرهنا جيراننا إلى هذه الدرجة؟ في أثناء قضاء عطلتنا الصيفية في إنكلترا، أمضينا بضعة أسابيع في المدينة الساحلية برايتون مع جيراننا عائلة واقادي. كانوا يقودون سيارة زيان خضراء ويتكلّمون الفارسية بلكنة كرمان شاه. وكنت أذهب مع كاتي للتزلج مع ابنيهم الصغيرين، نيما وماني. أما الآن فقد انضما إلى الثورة الإسلامية ويقضيان أيامهما في المسجد المحلي. وكان السيد واقادي شاعراً جميل الوجه، أصلع الرأس، ويضع نظارات سميكة – وطبعاً هو شيوعيّ، كما كانت أمي تقول. وخلال الأشهر الأولى من الثورة كان الشيوعي نشطاً جداً، قبل أنْ يحظر آية الله الخميني نشاطاتهم، ويُلقي القبض على قادتهم، ويقتل أعداداً كبيرة من أعضائهم.

كان نيما وماني يضعان نظارات صغيرة تشبه نظارات والدهما وأصبحا شهيرين في جامعهما. وأصبحت الجوامع في أرجاء البلاد كافة مراكز للمقاومة، مقراً لتصميم الإعلانات وطباعة المنشورات السياسية، ولإعداد التظاهرات وتوزيع بلاغات الخميني الرسمية.

وعندما يمر نيما وماني من أمام منزلنا يطلان برأسيهما إلى فناء منزلنا ويهتفان "لماذا تكتفون بالجلوس؟ معاذ الله أنْ تكونوا داعمين للشاه!"، فتلتفُّ أمي بالشال وتصيح فيهما "لعنة الله على أبيكما الشيوعي! لقد نهبتم أموال الدولة كلها وأصابكم الجنون! كان يمكن أنْ أكون لطيفة معكما لو أنَّ والدكما يكتب شِعراً أفضل!". كانت أمي تعلم أنَّ السيد واقادي قد أُرسِلَ إلى الخارج لِيدرس، كحال الطلاب الذين يدرسون في لندن، بدعم من الشاه.

كلما ازدادتْ أمور البلد سوءاً كان نيما وماني يزدادان جرأة. كانا قد صنعا لافتة بطول عشرة أقدام تبيِّن صورة الخميني لكي يحملها المتظاهرون. وفي أثناء الليل كانا يُعلقانها على مصطبة منزلهما في مواجهة فناء منزلنا مباشرة. وانتقاماً منهم، ثبَّتتْ أمي صورة الشاه مع ملكته، فرح، على بالونات مملوءة بغاز الهليوم لكي تستعرض ولاءنا. ووقفتُ مع أختي على المصطبة، وكل منا تحمل بالوناً بيد، وترسم تعبيراً ساخراً على وجهها للأخرى. وقبل أنْ يصل والدي إلى المنزل ويقبض علينا متلبّستين بحمل البالونين، كنا نتركهما يحلقان. وقد اعتقدتُ حقاً أنهما سيحلقان ويصلان حتى القمر حاملين تحياتنا إلى الشاه والملكة.

* * *

كانت أمي متيّمة بحب الشاه، ولم يكن حبّها أقلّ لرضا، ابنه الأكبر. وكانت تحمل معها في حقيبتها صورةً اقتطعتها من مجلة للأطفال تخصّ رضا تبيّنه جالساً على أرض ملعب بزيّ لاعب كرة قدم. وعندما أنجبت الملكةُ رضا، طلبت أمي، التي كانت حينئذٍ في الثامنة من العمر، من

جدّي أنْ يسمح لها بالذهاب إلى المستشفى مع باقة من الأزهار لكي تُهنّئ فرح شخصياً. وتركت الأزهار مع الحرس الواقف عند الباب، وراحت تغني ترنيمة كانت قد تعلّمتها في المدرسة: "أنا عذراء جميلة، اسمي فرح ديبا، الزوجة الثالثة للشاه... لا، لا، لا يا عزيزي رضا، لا، لا، لا يا عزيزي رضا". ولا أعلم ما إذا كانت تلك الباقة الصغيرة قد وصلت إلى الملكة، ولكن بالنسبة إلى أمي الأمر الهامّ كان أنَّ رضا قد جاء إلى العالم وأنَّ السلالة الملكية ستستمر.

كانت أمي واحدة من العديد من نساء جيلها قادرة على الهرب من القيود التقليدية لمسقط رأسها، والفضل في ذلك يعود إلى دعم الشاه لحقوق المرأة. لقد كانت مستقلة وكانت، في اعتقادي، أول امرأة في جمران رفضتْ أنْ ترتدي الحجاب. كان جدّي قد تُوفي في حادث انهيار ثلجيّ، وكانت جدتي - التي أناديها بـ أمي العزيزة - أرملة. كانت هادئة ورقيقة، ومنحتْ ابنتها أنواع الحرية كافة. لكنَّ باقي النساء في عائلتها كنّ يضربنَ أمي بقسوة في الشارع، لكي يُقنعنها بارتداء الحجاب. وتحمّلتْ ذلك الضغط كله وبلغتْ قدراً من التميُّز بسبب رفضها ارتداء الحجاب. وفُتِحَت أبوابٌ جديدة أمامها. قابلتْ والدي في النادي الاجتماعي التقدّمي "قصر الشباب"، وأصبحا صديقين قبل أنْ يتزوجا في عام 1969. كان ذلك مُنافياً للعادات في تلك الأيام، حيث كان على المتقدمين للزواج في المعتاد أنْ يحضروا وحسب، فتضطر العائلات إلى قبول زواجهم من بناتها.

كان حب أمي المتفاني للشاه عميق الجذور ويعود إلى عهد الطفولة. ولطالما سمعناها تحكي وتكرّر قصة لقائها به وهي فتاة صغيرة في

مسقط رأسها: "كانت جمران قرية تحيط بها حقول القمح. دروبها شديدة الهدوء إلى درجة أنه إذا كسرتْ سيارةٌ الصمتَ، تكون في المعتاد سيارة الشاه تتنقّل بين القصر في سعد آباد وقصر صاحب الغرانيّة. وحيثما أكون، أسمع هدير موكب سيارات الشاه عن بُعد، فأركض مسرعة حتى يكاد قلبي أنْ يقفز خارجاً من صدري، متوجهة إلى حيث تبدأ الصحراء فقط لكي أُلوّح له بيدي من جانب الطريق، وكان الشاه دائماً يلوّح لي بيده. وذات يوم، وأنا في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت، رأيته يقود السيارة وحده مع الملكة. وفجأة فقدتُ صوابي، وارتميت أمام سيارته في حركة مسعورة. فتوقفت بحركة مُفاجئة، وخرج منها."

"كنتُ خائفة، لكنَّ الشاه كلّمني بلطف، وهو يمسح بيده على رأسي، قال "عزيزتي، في هذه المرة لم يقع حادث، ولكن في المرة المقبلة ينبغي ألا تركضي هكذا أمام السيارة"."

ثم تسكت، وتتنهّد، وتهزُّ رأسها بحزن. ولو كان والدي مارّاً على مرمى السمع، لأكمل من حيث توقفتْ "ومن ثم قال الشاه إنه سيتبرَّز من أجلك وعليكِ في الغد أنْ ترسلي طبقاً لكي يملأه لك!". لم يكن والدي يأبه لرجال الدين أو للشاه، لكنه كان يُفضّل حكومة الشاه على رجال الدين. وطبعاً، كنتُ أنا وكاتي نتلقّى التلميحات من أمنا، و لم نفهم أعمال الشغب والشعارات. لماذا يريد الناس من الشاه أنْ يرحل؟ وكانت أمي تقول "السبب هو أنَّه يمتلك كل ما يحتاجون إليه أو حتى أكثر مما ينبغي منه". ولكن كنا **نحن** الذين نعيش قانعين في العاصمة ولدينا كل شيء: الماء، الكهرباء، الهواتف، الشوارع الحديثة،

والشوارع الدولية. كان عمل والدي مُجزياً يتيح لنا أنْ نقضي عطلنا الصيفية في أوروبا. وكنا نتنقّل في سيارة جميلة ونتناول طعاماً غالياً ونشتري ملابسنا في لندن من محال هارود التي أعطت أمي في إحدى المرات عامل قسم المبيعات فيها إكرامية خمسين جنيهاً. كنا نقضي كل صيف في لندن وأحياناً كانت أمي تصطحبني معها في رحلة شتوية فقط لكي تتسوّق أثناء تخفيضات أعياد الميلاد. كان سِعر البترول قد حلّقَ إلى أعلى نقطة في تاريخه، وكانت أحوال الإيرانيين الذين نعرفهم تتحسّن أكثر فأكثر في كل يوم.

ماذا كنا نعرف عن المناطق المجاورة المُسماة حلبي آباد الواقعة جنوب طهران، حيث يعيش الناس في بيوت مبنيّة من من التنك؟ أو عن القرى الخالية من مياه الشرب؟ كان هناك العديد من البلدات التي ليس فيها كهرباء، ولا طرقات مناسبة، ولا مدارس، ولا مستشفيات، ولا يتبعون حتى أدنى المعايير الصحية. لقد سئم الناس إفراط الشاه وعائلته وهدرهم. كم من أشخاص أُجبروا على قضاء سنين طويلة في السجن لأسباب سياسية وهم يُضربون ويُعذَّبون؟ لم نكن نعلم، و لم نرغب في أنْ نعلم.

* * *

في أحد تلك الأيام الخادعة عندما بدا أنَّ الفوضى العارمة قد خفّتْ تحت سيطرة الدكتور شاهبور باختيار، ذهبتُ مع كاتي وأمي لنزور جدتنا في جمران. وفي طريق عودتنا توقفنا في محل بيع أقمشة يُسمّى ممتاز. كانت أمي تبحث عن بعض الأقمشة لتصنع معطفاً شتوياً. وطبعاً

كان ينبغي أنْ يكون أسود اللون، لأنها كانت لا تزال في حالة حِداد على وفاة جدّي. وكان محل ممتاز يضم أفضل أنواع الأقمشة. وأَذكر كيف كانت أمي دائماً تبحث هناك عن قماش الكريب وتبحث عمتي توران عن الحرير.

كان صاحب المحل منهمكاً بنشر لفافات الأقمشة واحدة بعد أخرى على الطاولة عندما اهتزتْ الأرض فجأةً، وسمعنا ضجيجاً مُخيفاً. كان الحرس الملكي يستعرض بكثير من الأبهة والعظمة على طول الجادة الرئيسة من قصر سعد آباد باتجاه ميدان تجريش. كان الجنود يعتلون الدبابات، مُدجّجين بالسلاح والحديد. وكانت أمي غارقة في فرح وطني. ثم شقّ عنان السماء صوت طلق ناريّ. كانت هناك خلية ثورية تكمن للاستعراض، وكان الحرس يتبادل معهم إطلاق النار. تراجع الزبائن إلى الجزء الخلفي من الدكان متدافعين مع بعض الأشخاص المضطربين المندفعين من الشارع. اختبأتُ بين ذراعيْ أمي، وانتظرنا انتهاء إطلاق النار. وعندما خرجنا أخيراً، أخبرنا أحدهم أنَّ هناك رجلاً قد قُتِل. تناول رجل آخر حفنة من القرنفل من بائع يقف على الجانب المقابل من الشارع وأخذ ينثره على برك الدم. كان الناس يهتفون "الموت للشاه" و"لقد سقط شهداء". ومنذ ذلك الحين، قررتْ أمي أنْ نلزم المنزل ونتابع أحداث الثورة عبر شاشة التلفاز.

* * *

شباط 1979

"لهفي على باختيار: إذا لم يصل الإمام غداً، فسوف تُشهَر الرشاشات". كان

الدكتور شاهبور باختيار، رئيس الوزراء، قد أغلق منافذ مهر آباد، المطار الرئيس، لكي يمنع وصول الخميني. بل إنه هدّد بإسقاط طائرته. قال الخميني إنه سيُخاطر بذلك. قدَّمَ باختيار استقالته وأعلن نيَّته المغادرة إلى فرنسا لكي يمنع نشوب حربٍ أهلية وإراقة المزيد من الدماء.

حطَّت طائرة آية الله الخميني، قائد الثورة، في إيران قادماً على متن الخطوط الجوية الفرنسية في صباح الأول من شهر شباط. وكان ملايين الإيرانيين المتحمسين، رجالاً ونساءً، قد تجمّعوا في المطار لكي يُحيّوه. وفي معرض إجابته عن سؤال أحد الصحافيين عن شعوره بعودته إلى إيران بعد غياب خمسة عشر عاماً عن أرض الوطن، قال الخميني إنه لم يشعر بأي شيء خاص، وتحوّل هذا التصريح المدهش إلى عنوان رئيس في أرجاء العالم كله. ولاحقاً، بعد انتصار الثورة، أصبحت صورته وهو يخرج من الطائرة، وبطانة هائلة كبيرة مجتمعة على درج الطائرة، تاريخيّة. وأصبحتْ تُعرَض عاماً بعد عام في أثناء الاحتفال بذكرى الثورة. وفي كل عام أخذتْ تزداد تقلّصاً، مع اختفاء رفاقه من التاريخ الرسمي، قُتِلوا أو همِّشوا، إلى أنْ لم يبقَ غير الخميني، وابنه أحمد، وبقيَ المُرشد في الصورة.

أذكر جيداً كيف كانت سيارة الشيفروليه الزرقاء والبيضاء التي تحمل الخميني تتوقف باستمرار لكي يُحيي الملايين ممّن أرادوا أنْ يروه عن قُرب – قائدهم الذي أمضى سنين في المنفى، أولاً في العراق ثم في فرنسا. وعندما وصل الخميني إلى طهران، توجّه من فوره إلى مقبرة "جنّة الزهراء" وصرّح قائلاً "لقد أفرغ محمد رضا شاه المُدن من ساكنيها وزاد من عدد ساكني المقابر". وزفّ إليهم النبأ السعيد

بنيل الشعب الإيراني حريته - وبوفرة الماء والكهرباء وبالتوزيع العادل لعائدات النفط.

لم يكن قد مضى على مغادرة الشاه لإيران أكثر من أسبوعين، و لم تكن القواعد العسكرية قد استسلمت بعد. في أول الأمر، أبدى الجنود الموالون مقاومة. لكنَّ القوى الجوية كانت على أهبة الاستعداد لتلقّي أوامر الإمام، وبسرعة تم تأمين قواعد الجيش. وانضمّ معظم الجنود إلى الشعب ووضعوا أزهاراً في فوهات بنادقهم. وهتف الشعب "يا أخي في السلاح، لماذا تقتل أخاك؟". وبعد عشرة أيام بالضبط من وصول الخميني إلى إيران، أعلنَ أنَّ الثورة قد انتصرتْ. وأعلن التلفاز الإيراني "عندما يرحل الشيطان، تحلّ الملائكة".

كان عمي منوشهر (في الحقيقة كان أحد أقرباء أبي المُقرّبين) موظفاً في مكتب التحقيقات ويعمل في إدارة شرطة طهران. وبعد وصول الخميني إلى إيران ببضعة أسابيع زارنا في منزلنا، وأشار إلى أنَّ أحد مرافقي سيارة الخميني الشيفروليه لص، وهارب ذو سجل حافل. وهم يبحثون عنه منذ شهور، وإذا به يظهر على شاشة التلفاز، يتهادى على متن دراجة نارية أمام الإمام. ذُهلنا أنا وأختي. وكلما عرضوا جزءاً من استقبال الخميني كنا نهرع إلى شاشة التلفاز ونشير إلى اللص المُشين لكي يعلم الجميع بأمره. وأخبرنا العم منوشهر لاحقاً أنَّ ذلك اللص نفسه قد أصبح شخصية هامة وزار مراكز الشرطة من تلقاء نفسه. وحيّا بفخر القوة، و لم يجرؤ أحد على أنْ يعترض، عدا عن أنْ يُلقي القبض عليه.

* * *

كان آية الله الخميني موجوداً في القمر. في أوقات المساء كان الجميع يستديرون نحو السماء. أما **نحن** فلم نر أيّ شيء. حدّقنا إلى البقع التي تغطي سطح القمر ورحنا نركز كي نميِّز قسمات وجه الخميني العابسة، لكننا لم نرَ أيّ شيء. قال والدي "أليس هناك مَنْ يسأل هؤلاء البلهاء ما الذي يفعله ذلك التافه فوق في السماء؟". لكنَّ أويد، ابن عمي بيزان، وابن عمي الأكبر سناً أوميد كانا قد بدآ يستعدان للذهاب للصلاة. كان أوميد يضع في إصبع يده خاتماً من العقيق الأحمر، وهما أيضاً كان في استطاعتهما أنْ يريا الخميني في القمر. وكان فناء بيتهم مغطى بأخاديد ضحلة مملوءة بماء المطر وأفراخ الضفادع، وكان والدي يأخذ معه عصا كبيرة عندما نزورهم لكي يُبعِد الكلاب الضالة. كانت الكلاب النابحة تلاحق سيارتنا مسافة طويلة ونحن نبتعد. قال عمي إنَّ ذلك المكان سيُصبح قريباً أفضل حيّ في طهران.

كان وقتاً مناسباً للانتقام. كانت الأوراق مملوءة بصور ضحايا فِرق الإعدام وهي تسبح في دمائها. كل ما كان عليك أنْ تفعل هو أنْ تُصبح وجهاً مألوفاً في جامع الحيّ ثم تقدِّم تقريراً يقول إنَّ جارك هو من الاستخبارات. وأول الذين أعدِموا كان رئيس قسم المخابرات السابق، الجنرال نعمة الله نصيري. لكنّ أنواع العداءات والأحقاد الشخصية كافة كانت ذرائع للانتقام. في كل يوم كانت تُجلَب مجموعات من الناس - بعضهم بريء، والبعض الآخر يحمل درجات مختلفة من الذنب - إلى فرقة الإعدام الثورية. لم تكن هناك محاكم ولا مُحامو دفاع؛

كان هناك مجلس يحمل اسم العدالة الثورية يوافق على عمليات الإعدام فوراً. كان يكفي ذكر اسم أحد تلامذة الخميني، حجّة الإسلام صادق خلخالي، لكي يجعل شعر رأسك يقف. بل لقد أُشيعَ أنّه هو شخصياً أعدم رئيس الوزراء السابق أمير عباس هويدا.

كنا واقعين تحت رحمة رضى جيراننا، الجيران أنفسهم الذين كتبوا كلمة "جواسيس" على جدران بيتنا. و لم نكن نعلم شيئاً عن العديد من أقارب والدي. كثيرون كانوا قد هربوا، وبعضهم غادروا البلد، وما زال مصير آخرين مجهولاً تماماً. كنا نقضي أيامنا ولياليها نعاني القلق والاضطراب. ونزع والدي أحد حجارة القرميد من أرضية الحمّام وحفر حفرة عميقة تكفي لإخفاء كيس من البلاستيك مملوء بالأوراق النقدية وبحلي والدتي الذهبية. وأحضر إلى المنزل شيئاً لم نرَ مثيلاً له إلا في الأفلام السينمائية - سيفاً طويلاً، عريض الشفرة، ذا حدّين اسمه "قاما". وضع والدي ذلك السلاح المخيف مع غمده الجلديّ الأسود تحت وسادته، وقال لنا "إذا تعرَّض منزلنا للهجوم في منتصف الليل، فسوف ندافع عن أنفسنا بهذا القاما". وعندما يكون والدي في العمل كنتُ أزيح أنا وكاتي الوسادة ونحدّق إليه.

بدل أنْ يجعلني سيف قاما أشعر بالأمان، تسبّب لي برؤية الكوابيس. كنتُ أرى الحلم نفسه في كل ليلة، رؤيا كاريكاتورية يظهر فيها جنود يحملون رماحاً طويلة يهجمون، على صهوات خيول بيضاء، وأنا واقفة على الأرض مُحاصَرة بسيقانهم الطويلة. وأستيقظ مُجفلة، متذكّرة هدير الشعارات التي يُردّدها نيما وماني، ولدا الجيران اللذان كانا حتى قبل ذلك بستة أشهر فقط يأكلان المثلجات ويضحكان معنا على شاطئ

البحر في برايتون. ولكن بدل الثوريين، جاء خالي الشاب، علي، إلى منزلنا في وقتٍ متأخّر ذات ليلة مع أكياس مُخصّصة للرمل مملوءة بالأسلحة وخبّأها داخل خزانة ملابس أمي. أصغينا إلى أبي وخالي وهما يُعرّفان قطع الأسلحة: عوزي، كلاشنيكوف...

في اليوم التالي، استدعاني أبي مع كاتايون وأخبرنا برفق قائلاً "يا بنات، إياكما أنْ تُخبرا أحداً بأنَّ في منزلنا أسلحة. ينبغي ألا تتفوّها بأية كلمة عن هذا الأمر حتى لصديقاتكما. وإياكما أنْ تدخلا إلى خزانة أمكما". أومأنا برأسينا، ولكن منذ ذلك اليوم فصاعداً كان مصدر تسليتنا الأكبر هو أنْ نذهب إلى الخزانة ونتفرّج على أنواع الأسلحة المختلفة كلها، ولا نعلم من أينِ أتت أو ما هي استخداماتها. وبعد مرور سنوات لاحقة علِمت أنها أُخِذتْ في أثناء شن غارات على قواعد عسكرية عندما كانت الثورة في ذروتها. وذات يوم، ربما في ذلك الشهر نفسه، عاد عمي تحت جنح الليل وأخذ معه كل تلك الأسلحة الثقيلة، ووضع مكانها مسدساً وكيساً مملوءاً بالطلقات. وُضِعَ المسدس جنباً إلى جنب مع السيف ذي الحدَّين. كنا مستعدين للاحتمالات كلها.

* * *

21 آذار، 1979

في ذلك العام، عندما حلّ النوروز، بداية العام الإيراني، بدا أنَّ البلاد في معظمها يسودها التفاؤل - كان الناس قد قرروا أنَّ ذاك هو أول "ربيع في ظل الحرية". لكنَّ عائلتي كانت تشعر بالضياع والاضطراب.

كانت لدينا قطعة أرض في منطقة كرج بالقرب من قصر الأميرة دُخت شمس بهلوي، اشتريناها من مكتب الأميرة الخاص وعزمنا على بناء منزل هناك. ورأى والدي أنَّ تلك المنطقة سوف تكون مناسبة وراقية أكثر من الصحراء التي يعيش فيها ابن عمي أوميد. وكان أول خط قطار سريع في طهران يمر من أمام منزلنا - مفترضين أنَّه قد سمح لنا بالاحتفاظ بأرضنا. ولكن كان علينا أنْ ننتظر ونرى كيف سيُقرّر الشاه مستقبلنا.

تفرّقَ شمل عائلتنا الكبيرة بعد تبدُّل مصائرها تبدلاً جذرياً. كانت المحاكم الثورية قد استولتْ على كميات كبيرة من المال والممتلكات.

كان والدي مالك أسهم ومدير قسم المبيعات في مصنع للألبان اسمه "الحليب الصافي"، كانت تمتلك نصف أسهمه شركة أميركية. تلك الأسهم استولت عليها مؤسسة المستضعفين بعد قيام الثورة. كان الكثيرون في المصنع الذي يعمل والدي فيه قد أصبحوا من الثوريين وانضموا إلى حزب الله وأخذ كلٌّ منهم يُراقب الآخر. وفي المصنع، كان قسم المخابرات الداخلية في الحكومة الجديدة قد فتح مكتباً جديداً للمراقبة، وكان المدير، السيد خابري، وهو رجل مُثقف، كفوء، محترم، وصهر عمي، قد صُرِفَ من عمله وحلَّ محله مديراً السيد مُطالبي، الذي كان سائق سيارة شحن تبيع اللبن الرائب. وكان للسيد مُطالبي، البدين ذي البطن الضخم ويعبث بمسبحة بين أصابعه ويتكلّم الفارسية بصعوبة ممزوجة بلكنة تركية ثقيلة، صِلات بأقارب علي خامنئي، وهو شخصية ثورية هامة وصديق مُقرَّب لآية الله الخميني.

كان الذين أسهموا في الثورة يحصدون الثمار، أما نحن، كغيرنا

كثيرين، فكنا نفقد ببطء السيطرة على ثرواتنا. فقد خسرت عمة أمي فخري منزلها لأنَّ زوجها هو السيد خان ملك يزدي، رئيس الرابطة الثرية، دائرة الورعين. في المقابل، انتهى الأمر بخالي، علي، بفضل كونه ضمن الحرس الثوري، بحصوله على قطعة أرض رائعة تقع خلف قصر الشاه وتطل على نياوران في شمران، وأحضر زوجته الشابة إيران–دُخت، لكي تعيش معه.

كان قد وقع في حبّها قبل ذلك ببضع سنوات، مع بداية الثورة. كان يقوم بإصلاح سقف الجدّة في جمران وإذا به يلمح فتاة خضراء العينين صافية البشرة تزور إحدى الجارات. وصفاء البشرة أمر غريب جداً في إيران وتُعدّ صِفة جذّابة جداً. في أول الأمر رفضت أمي والجدّة أنْ تذهبا وتطلبا يدها. فهي لم تكن من جمران ولا من طهران، إذاً فهي فلاحة بالنسبة إلى أمي. وأخيراً أقنعهم باقي سكان جمران بالقبول. في ذلك الوقت، بدا أنَّ الجميع مترابطون بصورة ما بصِلات قُربى، وهكذا أصبحت إيران–دُخت متزوجة بالبلدة كلها بالمعنى الحرفي للعبارة، لا بالعائلة فقط. واتّبعت العائلة بأكملها التقاليد وذهبت لطلب يدها من أهالي شاه سوار في الشمال. وتم إعداد كل شيء بسرعة، ربما في غضون أسبوع، مع أنَّ أسرع زواج في المعتاد يستغرق شهوراً (لاحقاً سوف يستغرق إتمام زواج أختي عاماً). وسرعان ما وافقت زوجة والد إيران–دُخت على زواج تلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعاً – على الرغم من أنها لم تكن قد أنهت دراستها الثانوية. لقد أعطى والداها بكل حب ابنتهما البريئة لأحد حرّاس الإمام. عندما رأيتها أحببتها كثيراً؛ كانت فائقة الجمال، وأشفقت عليها لأنه لم تكن لديها أم. لقد فتننا جمالها،

وتحوّل تحاملنا إلى تعاطُف عندما استقبلتها عائلة جمران بكل الحب. في أول الأمر انتقل علي وإيران—دُخت إلى غرفة صغيرة في شقة قريب أمي. لم يهتما بوضع المنزل المزدحم لأنهما كانا ثوريين جداً. ولكنهما لاحقاً كوفئا على هذا الموقف بالحصول على قطعة أرض رائعة.

في المقابل، كانت عمتي توران، تخشى أنْ تخرج بسيارتها المرسيدس بنز الأنيقة بلون الخوخ ولوحاتها الملكية، لأنَّ الحرس الثوري كان يُوقِف السيارات الفخمة ليتفقّد هويات مالكيها. وفي المعتاد، يحتجزون السيارات ويأخذون السائقين إلى الكوميته[1]. وزوج عمتي، العم مصيِّب، الذي كان أيضاً قريب والدي، كان صاحب أعلى منصب في عائلتنا في ظل حكومة الشاه. عمل في مكتب الشاه الخاص بوصفه "خطّاط صاحب الجلالة". كان يكتب رسائل صاحب الجلالة بخطٍ أنيق ويوقّع الشاه عليها. وكانت جدران منزل عمتي المطل على شارع فيريشته مملوءة ب"**رباعيات**" عمر الخيّام مدوَّنة بخط زوجها، وبمنمنمات رائعة نفّذتها ابنتهما الكبرى، غيتا. ابنتهما الثانية، ماهتا، كانت صاحبة وجه حسن وتتهيَّأ للزواج برجل متميِّز. في الحقيقة، جرى همس بين أفراد عائلتنا بأنها قد تصبح ذات يوم زوجة رائعة لوليّ العهد، رضا. وقُبيل هرب الشاه ببضع ساعات، جاءت السيارة الملكية إلى العم مصيّب. لقد استدعاه الشاه لكي يكون ذلك لقاءه الخاص الأخير. وظل موضوع ذلك الحديث سراً.

كانت عائلة والدي شديدة الفخر بفكرة أنه ليس فقط شرف

---

1 – الكوميته: هيئة عسكرية في إيران مهمّتها فرض اللياقة الإسلامية على المواطنين.

عائلتهم وتاريخها ليسا أقلّ شأناً من شرف وتاريخ العائلة المالكة، لكنها في الحقيقة أكثر تميُّزاً. وكان قريب جدي لأبي هو أموجان تيمسار، "أعزّ عم ولواء". كان رئيس جهاز الأمن في طهران ويعتز بأنه كان يحمل لقب "حارس جلالته الخاص". وكنا جميعاً نعرف ابنته مهناواز، التي كانت بنفس عُمر عمتي توران، وذات مرة تقدمت الملكة توران، زوجة رضا شاه بهلوي الثالثة، بطلب يدها للزواج بأخي الشاه غير الشقيق، شاهبور غلام رضا. وكلنا نعلم أنَّ عائلتها رفضت ذلك الطلب لأنَّ شاهبور غلام رضا كان فتى عابثاً وله علاقات كثيرة ولا يستحق ابنتهم.

لم تذهب عائلتنا الأبيّة إلى صناديق الاقتراع خلال اليومين الأخيرين من شهر آذار لكي نُدلي بأصواتنا حول الدستور الجديد للجمهورية الإسلامية. لكننا سمعنا في الأول من شهر نيسان عندما أقرّ الدستور بأغلبية الأصوات، بنسبة 99% على وجه الدقّة، أعلنه الخميني "اليوم الأول في الحكومة الإلهية". واجتاحت البلاد موجات جديدة من الاعتقالات واستمرت عمليات الإعدام. ولم يتوقف جهاز التلفاز عندنا عن بثّ استجوابات المُدانين بالإعدام، لكشف "خونة البلاد". وذات ليلة، صُعقنا عندما رأينا صورة قريب جدي السيد سيف الله شاهنده. كان مُحرر المجلة الأولى التي أصبحت الآن تُربَط بالحكومة الملكيّة. وكان قد اختبأ، وسمعنا أخيراً أنه أُلقيَ القبض عليه مع ابنته، غولي. وعلَّقَ أبي المذهول بخشونة بالقول إنه لا بد قد تلقّى ضرباً مبرّحاً لأنَّ وجهه كان متورّماً. واعترفَ السيد سيف الله شاهنده كالببغاء بالخيانة، وبتعاطفه مع الفوضويين وبالتجسُّس

لقوى أجنبية. وأعدموه وأُقيمت جنازته في مكان مجهول.

أصبحتْ عائلتي أقرب إلى أرملته، أفسار خانم. لم تفقد حسّها الفكه (كانت دائماً تحمل في حقيبتها حلوى لي ولابنة عمي الصغرى بيتا). وعلى الرغم من أحزاننا، أذكر لاحقاً إحساسنا بالفخر. وعلى الرغم من أنَّ العديد من عائلات الثوريين كان جديراً بها أنْ تخجل من أنْ يُعدَم أحد أقربائها، كنتُ فخورة بتاريخ عائلتي لأنه يُبيِّن القوة والإيمان الراسخ. وبعد مضيّ عقدَين من الزمن على ذلك، عندما أودِعتُ أنا السجن، كنتُ أعلم أنَّ عائلتي تنتظر بقلق لترى إنْ كان الأمر سينتهي بي إلى الظهور على شاشة التلفاز. وقد أخبرني عمي بيزان لاحقاً، والدموع في عينيه، أنه لا ينسى أبداً وقع الصدمة في ذلك اليوم ومدى خوفه من أنْ يفقدوني، أيضاً.

* * *

خريف عام 1979

بسبب قلقه على سلامتنا، أرسلنا والدي مع أمنا إلى إنكلترا لقضاء فصل الصيف. لكننا عُدنا إلى الوطن إيران لكي ننضم إليه في الخريف، إبّان الانتهاء من بناء دارتنا في كرج. أراد والدي أنْ يبقى قريباً من أمه، وكان والداي ممتلئين بآمال زائفة بحدوث انقلاب. وفتحت المدارس أبوابها، والتحقتُ بالصف الأول في تشيستا المدرسة الابتدائية الأولى، والتحقت كاتايون بالصف الرابع.

لم يكن هناك أي أثر للصبيان في صفي - كانت الحكومة الإسلامية قد فصلتْ بين الجنسين في المدارس. والفتاة الأشدّ ثوريّة

في مدرستنا كانت إحدى رفيقات كاتايون في الصف. الجميع كنّ يُنادينها بكنيتها، توركان. ولم يكن غطاء الرأس قد أضحى إلزامياً بعد في المدارس الابتدائية (أصبح ذلك القانون ساري المفعول عندما وصلت إلى الصف الثالث) ولم ترتدِ أيّ منا الحجاب، لكنَّ تلك الفتاة الفظّة ذات البشرة الزيتونية وحدها ارتدت حجاباً أسود طويلاً. كان لها شارب فوق شفتها العليا وصوت خشن، وكانت تقرأ القرآن وتهتف بشعارات في بداية كل يوم أثناء وقوفنا أرتالاً في الفناء قبل دخول الصف. كانت عائلتها قد قدمت من جنوب طهران وأقامتْ في منزل بدائي خشن في حيّ فقير مُحاذٍ للطريق العام في شهر آرا، مقابل جادة غولا. وكانت ذات يوم منطقة مفتوحة، واسعة، وبدا أنَّ الثوريين المتحمسين سكنوها بين ليلة وضحاها. وكرهت أمي توركان وكانت تتجادل معها عندما تأتي لكي تصطحبني مع كاتي بعد انتهاء المدرسة. كان أخوها قد مات في أثناء الثورة، وبعد مرور سنوات، سمعنا أنَّ توركان التحقت بكلية الطب تعويضاً للعائلة على استشهاده.

كان مزاج الإيرانيين، بغضّ النظر عن الفئة أو الحزب، قد بلغ درجة الغليان. وانتهت أعمال الحرق والنهب، ولم تعُد التظاهرات ضد أميركا تروي ظمأ الناس. وعندما وصلتُ مع صديقاتي إلى بوابة المدرسة الأمامية في صباح أحد الأيام، رأينا الحراس يحملون دلاءً وفراشي عملاقة، ويكتبون شيئاً على الأرض. وقبل أنْ نخطو خطوة واحدة، أوقفونا وقالوا "إذا أردتنّ الدخول فاذهبن من هنا. الدهان رطب، وسوف يفسد. غداً، إنْ شاء الله، تتمكّنَّ من السير عليه". سألتُ

"ولكن ما **هذا؟**"، فأسرعتْ صديقتي موزغان توكالداني بالإجابة "إنه العلم الأميركي".

قبل ذلك ببضعة أيام، كان شبّان يسمّون أنفسهم "طلاب على خُطى الإمام" قد احتلوا السفارة الأميركية، واحتجزوا 66 شخصاً أميركياً رهائن، وطالبوا أميركا عبر المذياع بأنْ تُعيد الشاه إلى إيران. وأعلن آية الله الخميني عبر المذياع أنه يُساند حركتهم. أخذتُ أُصفق بيديّ مرحاً، متيقّنة من أننا سنشاهد برنامجاً خاصاً قبل أنْ تبدأ الدروس وأنَّ الساعات القليلة الأولى من الدراسة سوف تُلغى. ورنَّ الجرس ووقفنا جميعاً صفوفاً. واتّخذت توركان موقعها أمام المايكروفون وهتفت بحماسة شديدة "ما هو شِعارنا اليوم؟"، وكان علينا أنْ نُجيب "**الموت لأميركا أو تسقط أميركا**". وعادت توركان إلى السؤال "ما هو شعار المُستضعفين؟"، وهتفنا "**الموت لأميركا! الموت لأميركا!**"، ورحنا نُكرر "**الموت لأميركا**"، وأصواتنا كالمطارق تضرب الفناء.

اقتربت خانم نوري، ممثلة هيئة التدريس لشؤون التربية الدينية، من المايكروفون. "أيتها الصغيرات، لا بد أنكنّ سمعتن أنَّ "وكر التجسّس" احتله طلاّب على خُطى الإمام. ونودّ أنْ نذهب ونقف خارج عرين الجواسيس لكي نبيِّن صمودنا. مَن تودّ منكن أنْ تنضم إلينا فعليها أنْ تستقلّ، بانتظام، متن الحافلات الواقفة أمام المدرسة بعد انتهاء البرنامج الصباحي. لقد حصلتن على إذن مدرّساتكن، ولن يكون هناك دروس اليوم. أما باقي التلميذات غير المهتمات بالمشاركة في التظاهرات فيمكنهن الاتصال بمنازلهن واستدعاء أوصيائهن ليصطحبونهن أو البقاء في المدرسة ومراجعة دروسهن".

انطلقت التلميذات يُصفقن بأيديهن ويصرخن فرحاً. وصلّيتُ كي يُسمح لي بالذهاب. وتخيّلت أنَّ الذين أخذوا الرهائن هم حفنة من الفتيات والفتيان الصِغار الذين يرتدون كرجال المغاوير ويحملون بنادق ويقفون أمام مبنى السفارة. واندفعنا إلى الحافلات. كنا أكثر عدداً من المقاعد المتوفرة. واضطرت بعض الفتيات إلى الوقوف والتمسُّك بمقابض متدلية من الجلد. ورحنا نتدافع ونتزاحم، لعلمنا أننا إذا لم نعثر على مقعد، فسوف نُضطر إلى المكوث في المدرسة. وهرعت نحو المقاعد المجاورة للنوافذ لأحجز واحداً لي وآخر لصديقتي الحميمة، ديلارام. لوّحنا بأيدينا لرفيقاتنا في المدرسة الحاسدات اللائي لم يعثرن على مقاعد وغادرن. كدنا نخرج عن طورنا من فرط الفرح، ورحنا معاً نصفق بأيدينا.

علقَ موكب حافلات الفتيات التابعة لمدرسة تشيستا الرقم واحد على مدى ساعتين في حركة مرور قياسية في ما كان يُسمّى في السابق جادة إليزابيث وأصبح الآن يُسمّى جادة كِشوَر (جادة المُزارع). وفي الداخل كنا نغني ونصفق بأيدينا وأسأنا السلوك في العموم. عنّفتنا المُدرّسة "يا بنات، نحن لسنا في طريقنا لحضور عرس! اهتفوا بالشعارات! احمدوا الله!". عندما وصلنا إلى شارع أمير آباد، الذي أصبح اسمه الآن شارع كارغر (شارع العامل)، واجهنا حشداً من الناس يتدافعون شرقاً نحو السفارة الأميركية منتشرين على طول الشوارع. حشد صاخب من الطلاب والناس العاديين مهتاجين، يحملون لافتات بأيديهم، يُصارعون لشق طريقهم إلى السفارة. كان الوقت يقترب من منتصف الظهيرة، والناس يناول بعضهم بعضاً شطائر

البندورة والبيض المسلوق من خلفية شاحنة خفيفة. كنا قد بدأنا نتململ من طول الجلوس ورحنا نشتكي "يللاّ! لماذا لا نتزحزح؟"

ولجت خانم نوري حافلتنا، حاملة بوقاً بدا حينئذٍ عديم الفائدة. وصرخت "يا بنات، هدوءاً! اهدأن! اسمعن!". لم تتصور معلماتنا أبداً أننا يمكن أنْ نُصدر مثل ذلك الهرج ولا كانت لديهن من الشجاعة ما يجعلهن يُخرجن التلميذات الثلاثمئة والتقدُّم نحو السفارة سيراً على الأقدام. وقررن أنْ ينعطفن إلى أقرب شارع ويعدن بنا إلى المدرسة. قالت لنا "يكفي أننا قطعنا هذه المسافة حتى نُثبت تضامننا. إنَّ أفضل ما يمكن عمله الآن حتى نخرج من هذا الشارع هو أنْ نهتف بالشعارات من حافلاتنا بأسلوبٍ مُنظَّم ونحن نرفع قبضات أيدينا". وأخرجت ثلاث فتيات أو أربع رؤوسهن من نوافذ كل حافلة. وراحت خانم نوري تهتف عبر مكبِّر الصوت "يا طالبات على خُطى الإمام! مرحى لكنّ، مرحى لكنّ!). عندما نالنا الإرهاق من طول الهتاف، اكتفينا برفع قبضات أيدينا في الهواء والصراخ. لم يكن في الإمكان تمييز صوت إحدانا من صوت الأخرى، ولا بد أنَّ منظرنا بدا مضحكاً للمتظاهرين، لأننا حتماً لفتنا انتباههم. كان هناك حشد من الفتية يسيرون بتشكيلٍ مُنظّم ويهتفون بالشعارات، وتصادم نشاز أصواتنا مع إيقاعهم المُنتظم. قال أحدهم "يا شباب، هلا نظرتم إلى تلك البلهاء!"، والتفت الفتية كلهم وانفجروا في نوبة من الضحك. وهتف آخر "انظروا إلى رأس تلك! إنها أشبه بالوحش!". كانوا يسخرون من ديلارام، أعزّ صديقاتي. كانت فتاة جذابة ذات شعر غزير مُجعّد كشعر فتاة أفريقية، وهذا شيء نادراً ما يُشاهَد في إيران.

كان ذلك شيئاً لا يُحتَمَل. وفي الحال غيَّرنا من طبيعة مهمتنا وانتقلنا من الهتاف إلى شن حرب ضد أولئك الفتية. ورحنا نرميهم بكل ما توفر لدينا من بقايا وجبات الغداء، من أكياس البلاستيك إلى الخبز الجاف إلى قطع الورق المكوَّرة. وبّختنا خانم نوري عبر مُكبر الصوت "بنات! بنات! يا عيب الشوم! ما معنى هذا كله؟". راحت ديلارام تشرح الأمر والدموع في عينيها. فهبطت خانم نوري لكي تتحدث مع القيِّم على فتيان المدرسة ومرة أخرى تغيَّر هتافنا من "**الموت لأميركا!**" إلى التصفيق والتهليل "**خانم نوري! خانم نوري!**". حاولت خانم نوري أنْ تُسكتنا من قلب الحشد العابس. وبعد ذلك ارتقت مُساعدة المعلّمة الحافلة حاملة قلماً وورقة لكي تدوِّن أسماء الطالبات المُشاغبات وتعاقبهنّ بخفض علامات السلوك. فلزمنا الهدوء. وقيل لنا إنَّ علامات كلّ منا الفصلية في السلوك سوف تُخفَض علامة واحدة. وفي أثناء تقدمنا في شارع جانبي كان لا يزال هناك حشد كبير متوجّه إلى السفارة. وعندما نالنا الإرهاق، وشعرنا بتعب في حناجرنا، رحنا نرسم تعبيرات ساخرة بوجوهنا للمتظاهرين في الشارع.

* * *

1980

في خريف ذلك العام، كانت عائلتي لا تزال تأمل حدوث انقلاب. كان الدكتور بني صدر، الذي حظيَ بحفظ أسرار وثقة آية الله الخميني، قد انتُخبَ بأغلبية عشرين مليون صوت كأول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية. وكان بني صدر رفيق دراسة سابقاً لعمي بيزان طبيب

الأسنان. والغريب أنه بعد ذلك بسنين عديدة عاد إلى الظهور مريضاً في عيادة عمي في شارع صبح بالقرب من مبنى البرلمان. وكلما زارنا العم بيزان، كان يَخفض صوته ويُسرّ إلينا أنه تناهى إليه من مصدر موثوق أنه في شهر معيَّن سوف يسقط النظام. وعندما يمر ذلك التاريخ، سوف يُفضي إليه مصدر موثوق آخر بتاريخ جديد. كانت البلاد تمر بأزمة اقتصادية حادّة. وانخفض إنتاج البترول انخفاضاً شديداً، وزاد التضخّم المالي. وعلى الرغم من وجود رئيس ودستور جديدَين، لم يكن البلد يسير نحو الاستقرار. فبعد قيام الثورة ببضعة أشهر، بدأت أعمال الاغتيالات في الشوارع. أخذت مجموعة تُطلق على نفسها اسم الفُرقان بقتل شخصيات ثورية بارزة. طلقاتها الأولى استقرّت في قلب الدكتور مرتضى مطهّري في شهر أيار من عام 1979، وكان أستاذاً جامعياً وأحد المُريدين الأثيرين لدى الخميني. وقد ظهر الخميني وهو يبكي على شاشة التلفاز، مُصرِّحاً بأنَّ مُطهّري كان قُرّة عينه. وأصبح يوم اغتيال مُطهَّري يُعرَف باسم عيد المُعلمين.

كان الخميني قد نقل مقر سُكناه من مدرسة العلوي إلى مدينة قُمّ الدينية لكنه وجد أنها منعزلة كثيراً عن العاصمة. وفي شهر نيسان من عام 1980، اقترح الإمام جمراني، الذي يؤم الصلوات في جامع جمران، على السيد الخميني أنْ يتّخذ له مسكناً في جمران، مسقط رأس أمي. وغاص قلب أمي! كانت القرية تقع بين سفوح جبال ألبرز ولا يمكن بلوغها من الشمال. لقد بدا مكاناً آمناً في مناخ سياسيّ غير مُستقر - فهو هادئ، بكر، ومناخه ممتع. في أوقات الصَباح، تصيح الديوك، وتفوح رائحة الخبز الطازج والساخن تشق طريقها خلال

ممرات الحديقة الترابية. والمياه الصافية تتدفق من الينابيع في أعماق الجبال إلى قنوات الشوارع الصغيرة. وكان السكان المحليون بسطاء ومتوقّدي التديُّن. وأعجب هذا الاختيار الخميني، واستأجر منزل الإمام جمراني وحديقته الغنّاء. وثار غضب أمي من الإمام جمراني، الذي كان شقيق جدّتي بالرضاعة. وعندما كان الإمام جمراني والجدّة طفلَين، ربَّتهما جدّتي الكبرى في وقتٍ واحد، وهكذا أصبح الإمام جمراني هو مَحرَم الجدّة.

في جمران، شعر الكثير من أهل القرية بالفخر لدى وصول الخميني، بينما خاف البعض على سلامتهم. أقام الحرس الثوري سبع بوابات من الحديد الصلب على طول الشارع المؤدي إلى منزل الخميني وأصدروا إجازات مرور خاصة للأهالي المحليين. وتحولت جمران إلى منطقة مُحاصرة. وعلى الرغم من أنه من حُسن حظّنا أننا لم نكن في حاجة إلى المرور من البوابات السبع لكي نزور جدّتي، بقيَ علينا أنْ نتوقف عند نقطة التفتيش الرئيسة. وعندما يباشر الحراس باستجوابنا، كانت أمي تستشيط غضباً. فترفع ذقنها، وتجيب بحِدّة "نحن ذاهبون إلى منزل أمي، بعد إذنك!"

ثم يجب أنْ نخضع للتفتيش. ويكون هناك رجالٌ مُلتحون يرتدون الزيّ الأخضر، اللون الذي يُميِّز الحرس الثوري، يُدخلون أيديهم إلى أكياس نقودنا وحقائب اليد. ويجب علينا أنْ نلزم الهدوء وأنْ نُخاطب أولئك الحراس الريفيين ب"الأخ". وأخيراً، يأمرون أمي بأنْ تُعدِّل من شأن حجابها وأنْ تزيل أحمر الشفاه. وهذا كله كان يكفي أمي كي تنفجر في وجوههم. وكنتُ أنا وأختي نناشدها ألا تفعل – كنا نعلم أنَّ

إلقاء القبض علينا على أيدي حرس الإمام أمر في غاية الخطورة وسوف يُسبّب لنا مشاكل خطيرة. لكنها تتجاهلنا وتصبّ سيلاً من الشتائم على أي حارس يظهر لها في ذلك اليوم. "إذا كنتم قد تحوّلتم إلى الإسلام حديثاً وباشرتم للتو بالذهاب للصلاة، فنحن ننحدر من سلالة طويلة من المسلمين الذين يخشون الله! وإذا كنتم مسلمين، فلماذا تحدقون إلى وجهي؟ اخفض رأسك واملأ استمارة المرور!". ويكاد قلبي ينفجر من سرعة وجيبه. وأحياناً كنا نتابع طريقنا وهي تواصل عويلها وشتائمها طوال الطريق حتى نبلغ فناء منزل جدتي. ولكن أحياناً يتصل الإخوة بالإدارة، بنيّة إلقاء القبض علينا وإرسالنا إلى مركز التأديب. في مواجهة هذه التهديدات، يُصبح صوت أمي أعلى فأعلى وأكثر حِدَّة.

عادةً، يصل أحد رجال الأعمال المحليين الذين يملكون بعض النفوذ إلى موقع المشاجرة ليُنقذنا. ويُخبر الإخوةَ أنَّ أمي نشأتْ وترعرعت هناك وأنَّ لديها أولاداً عليها أنْ ترعاهم وامرأة عجوزاً تلازم المنزل. ثم يلتفت إلى أمي ويقول "زهرة خانم، فقط عدّلي من شأن حجابك قليلاً. إنَّ هذا الأخ كان فقط يعمل لمصلحتك. فقط احمدي الله وسيدنا محمد وسلالة سيدنا محمد". في ذلك الوقت، يكون الخبر قد وصل الجدّة، ونراها تمشي مقتربة من نقطة التفتيش وهي بغطاء الصلاة الأبيض. وتسأل أمي بقلق "ما كل هذه الجلبة التي تُثيرين؟ اخفضي رأسك وتابعي طريقك بهدوء. أتريدين منهم أنْ يرموا بك في غياهب أحد السجون في مكان ما؟". فتقول أمي، ولا تزال تضطرم بالغضب، وهي تشدّ على أسنانها "أنا على ما يرام. يا له من حثالة عفنة!"

وعلِمتُ في قرارة قلبي أنَّ أيام الدفء التي أتذكرها قبل الثورة لنْ تعودَ أبداً. و لم أعد أؤمن بالوعود التي لم ينِ عمي بيزان ووالداي يقطعونها.

الفصل الثاني

آمري

تشرين الثاني عام 1999

كنتُ قد وصلتُ إلى الموعد قبل الوقت المُحدَّد بنصف ساعة وجلستُ في فناء مبنى مكاتب صحيفة "زن" (المرأة) أنظر إلى الأزهار وأشجار البرسيمون. كان الوقت خريفاً، وعلى الرغم من أننا كنا في منتصف النهار، كان الجو مُعتماً ورطباً بعد هطل المطر الغزير في الصباح. انتشرتْ غيومٌ رمادية ممتدة عبر صفحة سماء طهران. وكانت قطرات من الماء، متخلّفة عن الأمطار، تقطر واحدة بعد أخرى من ذوائب تويجات أزهار الربيع. أخرجت علبة من سجائر مارلبورو منتولز من حقيبة يدي ونظرتُ لأتأكّد من عدم وجود أحدٍ في الجوار. المرة الأولى التي اشتريتُ فيها رسمياً علبة سجائر كانت قبل ذلك بثلاثة أسابيع، في اليوم الذي تلى إطلاق سراحي من السجن.

عندما اشتريتها ابتسم لي صاحب المقهى. لم يكن قد رآني منذ

بضعة أشهر، وهزّ رأسه ابتهاجاً. لا بد أنه قرأ عن إطلاق سراحي في الطبعة الصباحية من صحيفة "**أفتاب يزد**" (شمس يزد). لم تكن أمي تعلم أني بدأتُ أدخّن - كنتُ أوصد باب غرفة نومي وأدخّن سراً وأنفخ الدخان من النافذة. وكان ماجد، زميلي في العمل في مجلة "**زن**"، قد قال لي ذات مرة إني سأستوفي مستلزمات المراسل المحترف كلها إذا أضفتُ تدخين السجائر إلى برنامجي. عظيم، ولكن اليوم وأنا أمسك سيجارة بيدي، أشعر بأني مراسلة صحيفة أقلّ من ذي قبل.

استنشقت الهواء الشمراني[1] اللاذع إلى رئتيّ وأنا أسحب دفعة بعد أخرى من الدخان وأجرُّ أوراق الشجر اللزجة جيئة وذهاباً على الأرض تحت قدمي. إنَّ صحيفة "**زن**"، مركز عملي السابق، تغلق أبوابها الآن. لا أحد في الفناء. ولا حتى البستاني السيد حسين، الذي دائماً يُعيد ترتيب أصص الأزهار، وينقلها من هذه الجهة إلى تلك. إنه بلا شك جالس في غرفته يُسخّن الشاي. لقد أمضى في هذا الفناء سنوات عديدة جداً حتى إنه بلغ سن الشيخوخة وهو هنا. في الصباح الباكر، ينقل الأزهار من مسكب إلى آخر باستخدام مجرفة، أو يُشذِّب الأوراق ويُقلِّم الأغصان الزائدة بمجزّة. وفي بداية الثورة أودع أصحاب المِلك لديه كل شيء وهربوا. لعلَّ السيد حسين لم يتمكّن من الهرب لأنه يعرج بساقه اليُسرى، أو ربما لم يرغب في الهرب. وصادرت حكومة الخميني الجديدة المِلكيّة وبيعت بالمزاد. وكان المالك الجديد قد أجَّرَ البناء إلى فائزة هاشمي، مالكة ورئيسة تحرير صحيفة "**زن**"، وبقيَ

1 شمران : حي يقع في شمال طهران.

السيد حسين في رعايته. وعندما كانت الصحيفة لا تزال تعمل قبل بضعة أشهر كان في صباح كل يوم يُحضِر إليّ حفنة من أزهار الياسمين الأبيض، الرطب، على طبق صغير ويضعه على الطاولة، وأضع له داخل مزهرية فارغة حفنة من السكاكر.

لم يبقَ أيّ أثر من هياج الصيف السابق. كان الجميع قد غادروا. وبعد إطلاق سراحي، عدتُ كحمامة تائهة لأحدِّق في ذهول من خلال النافذة إلى المكتب القديم بكراسيه المقلوبة. والآن أضحى مبنى صحيفة "زن" مكان لقاءاتي السرية.

مرتين في الأسبوع على الأقلّ أتسللُ عصراً بصمت إلى المبنى كشبح، وبعد مضيّ بضع ساعات، أعود إلى المنزل.

ضيفي خلال تلك الفترات كان رجلاً في ثلاثينيات عمره، متوسط طول القامة، ضخم الجسم، ذا شعر قمحيّ اللون. عظم فكّه بارز، وحاجباه مقفولان، وعيناه متلألئتان. كان بالنسبة إلى الحراس مجرد السيد المهندس. لا أكثر. وبهذه الطريقة، بررتُ حضور هذا الموظف الغامض الذي يظهر مرات عِدّة خلال الأسبوع حاملاً حقيبة أوراق. وعندما ننفرد بنفسينا، أخاطبه بفارماندِه، أي آمري. لقد رفض أنْ يُفضي إليّ باسمه الحقيقي.

كان يرن جرس كشك الحارس، وعيناه مُثبّتتان على حجارة الممشى، ويدخل قائلاً "**السلام عليكم**". كان يُريد أنْ يُشاهَد بأقلّ قدر ممكن. يضع حقيبته السوداء على الأرض بجواره، وفي الحال أومئ إلى فرهود كي يُحضِر لنا الشاي. وبالإضافة إلى السيد حسين البستاني، بقيَ في المبنى من عهد صحيفة "زن" اثنان من الحرّاس: فرهد،

الأفغاني، وعلي، من كرمنشاه. وكلاهما صديقان مخلصان لي ويمكن الوثوق بهما. ومهما كان شعورهما بشأن هذه الزيارات المتكررة، لم يكونا يطرحان أية أسئلة، ولا حول سبب ارتدائي غطاء الرأس. وكان الإجراء المعتاد هو أنْ أتّصل بفرهد، قبل موعد اللقاء بيوم، كي أتيقّن من أنَّ المكتب خالٍ. لأنّ السيد المهندس كان دائماً يقلق بشأن الظهور المفاجئ لفائزة. قال إنَّ فائزة تعرفه.

أحياناً كنتُ أفكّر في الانتحار. كنتُ مُتعبة. لم أكن أعرف ماذا أفعل أو إلى مَنْ ألجأ لطلب المساعدة. في أثناء ارتقائي الدَرَج إلى مكاتب التحرير، واجهتُ انعكاس صورتي على زجاج النافذة، إنه عائق يقف بيني وبين الأيام الخوالي. لم أشعر بأي تواصُل بيني وبين الشخص الذي رأيت. كان شخصاً لم أُقابله من قبل.

كان الظلام والصمت الشاملان يسودان مبنى الصحيفة. كانت الكهرباء مقطوعة عن الثريا الضخمة ولكن تمكّنت من الرؤية من خلال الشقوق شبه المفتوحة في مصاريع النوافذ المكسورة والمغبرّة. كانت الغربان في الفناء تنقر باجتهاد ثمار البرسيمون. وغمرني إحساس بالأسف وأنا أتذكّر زملائي في العمل. لقد حزم الجميع أغراضهم بسرعة وغادروا. ولكن بقيَ هناك رسمٌ نفّذه رسامنا الكاريكاتوري، نيك أهانغ كوثر، لا يزال مُلصَقاً على الجدار فوق طاولة مكتبي. كان يمثّل نكتة لصالح المكتب، رسماً كاريكاتورياً لي وأنا منهمكة بالعمل، أتكلّم عبر عشرة أجهزة هاتف، ومئات الأوراق في يدي. كُتِبَ تحتها "الحسود لا يسود".

فتح فرهد باب مبنى العلاقات العامة الواقع على الجهة المقابلة من

الفناء وهتف لي "آنسة انتخابي، لقد وصل السيد المهندس". فسَرَتْ رعشةٌ خفيفة في جسمي.

أخرجت غطاء الرأس من حقيبتي.

في اليوم الذي تلى إطلاق سراحي ذهبنا، أمي، وأختي، وأنا إلى شارع زارتوشت من أجل انتقاء قطعة قماش لصنع غطاء الرأس. لم يكن اتّخاذ القرار صعباً؛ انتقيت القماش الخفيف، السميك بالقدر الكافي. وهنأني صاحب المحل الذي قصّ القطعة. حملنا قطعة القماش الملفوفة داخل كيس، ثم استقللنا سيارة أجرة إلى منزل جدّتي لأبي. اسمها باروين، لذلك كنتُ أناديها بماما بوزورغ أو ماما باري. كانت خيّاطة ناجحة أيام زمان. قبل أربعين عاماً، كانت مدرستها التي تُعلِم الخياطة في شارع الأميرية تعجّ بأشدّ النساء أناقة في طهران. وفي طفولتي، كنتُ كثيراً ما ألعب هناك. وكان هناك صندوق مليء بزخارف الزهور المصنوعة من القماش، نفّذتها جدتي يدوياً، وآخر يحتوي عصابات للرأس وباقات من الزهور للعروس. وكل زهرة تحفة فنية من الجمال والحِرفيّة. وأشغال جدتي اليدوية من زخارف الزهور الرائعة على مفارش الطاولات وفوط القماش كانت بحد ذاتها عوالم راقية. وكانت هناك خزائن مملوءة بفساتين السهرة وأثواب مُزيّنة بالحجارة الكريمة وبالترتر، وأثواب عرس غير منتهية على تماثيل العرض. و لم يكن يُسمح لنا أنْ نلمس أيّ شيء. ولكن في أيام الجمعة، وبعد الانتهاء من تناول وجبة الغداء الغنيّة، كانت هناك فترة القيلولة الإجبارية. فتُخرَج الوسائد وأغطية الأسرّة من الخزانة الرحبة، ويُجبَر الجميع على أخذ قسط من الراحة حتى الساعة الرابعة. وبينما الآخرون جميعاً يغطون في النوم،

ننهض أنا وابنة عمي إلهام، ونتسلل كفئران هادئة ونرتقي الدَرَج إلى محل الخياطة. ونفتح خزائن الملابس المملوءة بالأثواب... والأقمشة... والخيوط والإبر... وزخارف الأزهار ومشابك شعر العرائس... وكم من مرة شبكتُ بها شعري ووقفت أمام المرآة أنظر إلى نفسي من الخلف ومن الأمام، مبتعدة ومُقتربة.

ولكن في ذلك اليوم لم أكنْ قادمة إلى جدّتي ذات الثمانين عاماً، التي تُقيم الآن في شقّة صغيرة في شمال ظهران، طلباً لأثواب السهرة. بل أردت منها أنْ تفصّل لي قطعة القماش الأسود الهرمية الشكل المسمّاة تشادور. كان أمراً بسيطاً. وقفتُ على الطاولة التي تتناول عليها طعامها ووضعت قطعة القماش على رأسي. وبدا القلق على وجه جدّتي.

قلت مازحة "ماما باري، لقد ابتلعني قمعٌ أسود اللون"، كنتُ آمل أنْ أجعلها تضحك. بدا أنها أدركتْ أنني إذا كنت قد احتجتُ إلى غطاء جديد للرأس من أجل "الزيارات" الرسمية، فذلك يعني أنَّ الوزارة قد نالت مني – أنني لم أنل بعد حريتي الحقيقية. قاطعتني أمي قائلة "كلا، إنكِ أشبه بأولئك المُصابين بالصَرَع. إنهم يرسمون حولك خطاً لكي يُبعدوا الشيطان عنك". ثم ضحكنا جميعاً.

أصدرتْ السيجارة أزيزاً عندما لامست الأرض المُشبّعة بالرطوبة وانطفأتْ. غمغمتُ بيني وبين نفسي "أتمنى أنْ يبقى الشيطان بعيداً عني..."، وتلفّعتُ بالغطاء الأسود وانطلقتُ إلى مبنى العلاقات العامة. كان السيد المهندس في انتظاري.

* * *

عندما دخلتُ السجن، انتقيتُ أسماءً للحارسات لكي أتمكن من التمييز بينهن. كانت كل مجموعة تبدأ نوبة حراستها عند الساعة التاسعة صباحاً وتنتهي في التاسعة من صباح اليوم التالي... كنّ مُستخدمات في وزارة الاستخبارات ولا يُسمح لهنّ بالكشف عن أسمائهنّ للسجناء. كنّ يُشرن إلى أنفسهنّ بأنهن جنديات إمام الزمان المجهولات، الذي، طِبقاً للمُعتقد الشيعي، سوف يعود إلى الظهور ويقود المُخلصين إلى يوم الخَلاص. انتقيتُ أسماءً تتناسب مع تكوينهن، ومظهرهن وأعمارهن. والمُثير للاهتمام هو أنهنّ أحببنَ أسمائي وبدأت تخاطب كل منهنّ الأخرى بها. زهرة، ومنيرة وطيّبة كنّ في نوبة حراسة واحدة وليلى وحميرة وحاجة خانم كنّ في أخرى.

"حسن! ماذا لدينا هنا؟ أخيراً وصلنا إلى غطاء الرأس؟ ليس هناك غطاء رأس مناسب في منزلكم! ماذا، ألستم مُسلمين؟"، وحملت ليلى غطاء رأسي من حاشيته لكي تعرض خياطته الرائعة أمام حميرة، المعتوهة، وحاجة خانم. كان غطاء رأس من الشيفون الأسود الجيد وعليه ورود نافرة من المخمل.

كنتُ قد أمضيتُ في السجن حوالى شهرين. وقبل ذلك بيوم، نُقلتُ من سجن التوحيد إلى المحكمة الثورية لكي أمثل أمامها للمرة الأولى. وكل ما كان في حوزتي لأغطي به رأسي هو معطف أسود ارتديته عندما جاؤوا ليُلقوا القبض عليّ. وكانت طيبة خانم، الحارسة الممتلئة ذات الشعر المُجعّد شبه الأشقر المُتخصصة في تفسير الأحلام،

والصلوات النوافل، وفي أساليب الدعاء الديني غير الواجبة كلها، قد أعارتني غطاء رأسها الأسود. كانت امرأة رقيقة علّمتني آية من القرآن أُردّدها أربع مرات خلال الاستجواب ثم أنفخ على مُستجوبي لكي أُعمي بصيرته.

النساء اللائي حرسننا، منذ لحظة بدء نوبتهن وحتى صباح اليوم التالي، كنَّ محجوزات مثلنا تماماً. كنّ يجلسن طوال النهار يأكلن ويراقبن الأروقة عبر شبكة تلفاز مُغلقة؛ ويتفقّدننا دورياً بهدوء داخل زنازيننا كل خمس عشرة دقيقة أو ثلاثين من خلال ثقوب صغيرة للنظر ولا يفتحن لنا أبوابنا إلا أربع مرات في اليوم. الأولى من أجل صلاة الفجر، ثم ثلاث مرات أخرى من أجل الصلوات التي تتزامن أيضاً مع الوجبات اليومية الثلاث. وبعيداً عن تلك الدورة المنتظمة، لا يأتين أبداً ليفتحن الأبواب؛ ولا يمكن حتى زيارة الحمّام خارج الجدول المقرّر. ولكن على امتداد الأشهر التي أمضيتها في السجن، بدأن يتحدثن عن حُسن سلوكي، وسُمِحَ لي بين حينٍ وآخر بتناول كوب من الشاي أو بزيارة إضافية للحمّام.

غطاء الرأس الذي أعارتني إياه طيبة خانم كان سميكاً وثقيلاً، وفي المرة الثانية التي وضعته على رأسي، انتابني إحساس بأنَّ ثمة مَنْ يسحبني إلى الوراء من الخلف. كان يزن اثني عشر رطلاً أو ثلاثة عشر، وكنتُ أُضطر إلى ضغط يديّ معاً تحت ذقني لكي لا ينزلق. وعندما رجعت من المحكمة، كان رأسي ورسغاي تؤلمني ألماً شديداً حتى عجزت عن تحريكها. وشكوت أمري لطيبة وسألتها كيف تحافظ عليه ثابتاً على رأسها في كل يوم. فضحكت الحارسات الثلاث. رفعتْ طيبة خانم

رسغي عالياً ووضعته بجوار رسغها. كان رسغها على الأقلّ أضخم من رسغي بمقدار الضعف. ونظرنَ إلى بُنيتي الصغيرة وقلن "مَنْ سيتزوج من هذه الفتاة السقيمة والضعيفة؟"

في صباح اليوم التالي، وقبل أنْ أُرحَّل من جديد إلى قاعة المحكمة، زار المستجوب زنزانتي حاملاً كيساً من النايلون. كانت أمي قد أرسلتْ إليّ أجمل غطاء للرأس في بيتنا. كان لدينا أغطية أخرى للرأس في المنزل. كنا نضعها لكي نحضر الجنازات في مقبرة "جنة الزهراء" أو عندما نذهب إلى المكاتب الحكومية التي "لا يُسمح للأخوات اللائي لا يضعن الحجاب بدخولها". كنا نضعها عندما نذهب مع أمي إلى أضرحة الأئمة لكي نصلي وتقدّم النذور. لكنّ الغطاء الممتاز ذا زخارف الورود المخملية كان يخصّ أختي كاتايون، اشترته في أثناء التسوّق من أجل عرسها. في إيران، جرت العادة أنْ تشتري العروس غطاء رأس أسود.

الآن كان غطاء الرأس بين يديْ ليلى، حارسة السجن البدينة. كانت عيناها الماكرتان مُثبّتتين على القماش الفاخر، الغالي الثمن، وهي تُعدّه بنشاط. ما الذي فهمته من الرسالة المتضمّنة في قلب ذلك الغطاء؟ كنتُ أعلم أنَّ أمي وكاتي أرسلتا إليّ أفضل ما لديهما تعبيراً عن حبّهما لي. وضغطتُ أسناني معاً.

وتناوبت الحارسات، واحدة بعد أخرى في قول شيء، مُستخدمات الغطاء من أجل تقييم عائلتي. وددتُ لو أمدّ يدي وأصفع ليلى ذات العينين الصغيرتين الجميلتين على وجهها. كانت أصغر منّي سناً بكثير، ربما في الثانية والعشرين، وأدركتُ ماذا تريد. لقد أرادتْ أنْ تسمع صراخي يتعالى لكي يُرسلنني إلى القبو ويجلدنني

كالأخريات اللائي كنتُ قد سمعتها تجرّهن على الأرض.

استطعتُ أنْ أتحمّل ضحكهن. كان عالم ليلى هو عالم زوجها الحارس الثوري. كانت تأتي لتشاهد سروالي الداخلي المغسول حديثاً، والمُعلّق على مسمار خلف باب الزنزانة لكي يجفّ، وتقول بصوتٍ عالٍ مُفعم بالاحتقار "ولكن أنت لستِ عذراء؟ ألا تخجلين من ارتداء هذه؟ لِمَنْ تريدين أنْ تُريها أصلاً؟". كانت مفتونة بسروالي الداخلي الأصفر المتغضّن ماركة "فيكتورياز سيكرت" الذي اشتريته في نيويورك. وعندما أرسلت لي أمي ملابس داخلية من المنزل، أرسلتْ نوعاً ممتازاً أصبح مصدراً آخر لغيرة ليلى الصغيرة. وفي أيام الاستحمام في أثناء نوبة ليلى، كنتُ أغتسل وأخرج مسرعة، حتى قبل أنْ أنتهي تماماً، لأنها كانت تراقبني سراً. وفي إحدى المرات صرخت "أوه، كفى حباً بالله!" فأشاحت بوجهها، ثم عادت إلى النظر من جديد. يبدو أنها كانت تُجري مُقارنة بين جسدها وجسدي، وتستمتع بانزعاجي.

عندما تركتني مع غطاء رأس كاتي، لكي أرتدي ملابسي استعداداً للذهاب إلى قاعة المحكمة، انهمرت دموعي. وداخل زنزانتي، دفنتُ وجهي في القماش الأسود. كانت رائحة عطر أختي الممتعة تتغلغل في القماش. كأنَّ أختي كاتي كانت حاضرة معي هناك؛ بل استطعتُ أنْ أُحدّد بالضبط اللحظة التي نثرت فيها العطر على الغطاء لأجلي، لتمنحني نفحة منعشة من الحرية الموجودة خارج تلك الأسوار. أغمضتُ عينيّ. وضممتُ أختي بين ذراعيّ ورحت أبكي بحُرقة.

كنتُ قد وقعت في حب مُستجوبي. خلال ذينك الشهرين اللذين قضيتهما وحدي في زنزانتي، حاولتُ أنْ أنسى حياتي الماضية،

وصممتُ على أنْ أجد الخلاص بأن أكون مُسلمة مؤمنة، ولكي يُصبح المرء مُسلماً مؤمناً يجب أنْ يُضحّي. لذلك ضحّيتُ بذكرى عائلتي، مؤمنة بأنَّ السبيل الوحيد للتحرُّر هو كسب ثقة مُستجوبي. لقد كان إيماني ومستقبلي بين يديه. كنتُ في حاجةٍ إلى الحب وإلى قوة الحب لكي أُغيّر وضعي اليائس، وكان أقرب شخصٍ إليّ هو الذي أراه في كل يوم، مُستجوبي. وبدأتُ أحبّه على طريقتي. أولاً بوضع ثقتي فيه وبتصديق أنه يُساعدني حقاً. ثم اعترفتُ له، أخبرته كل شيء، بدءاً بالطريقة التي تقابل بها والداي وتزوجا إلى قصص من طفولتي وعن نشأتي، إلى السنوات التي أصبحتُ فيها شاعرة وكاتبة وصحافية إصلاحية. شعرتُ كأني راهبة، شعرتُ بأني في حاجة إلى ذلك الاعتراف.

وأنا عاشقة، لم أرَ غيره. لم أتمكن من التفكير في عائلتي التي في الخارج. كان حُلمي به يمنحني السكينة والصفاء، واستطعتُ أن أنسى معاملته القاسية. كنتُ أسمع وقع خُطاه وهو قادم إليّ على طول الرواق، فلا أكاد أطيق الانتظار - كنتُ أتخيَّل أنه ليس قادماً لكي يُعذّبني بل لكي يُحبني. كنتُ في حاجة إلى راحة البال تلك لكي أُبعِد عني شبح الجنون ولكي أحتفظ بطاقتي على البقاء قوية. كيف كان في وسعي أنْ أجعله يُحبني، أيضاً؟ إنه يعتبرني "مُفسِدة"، تستحق الموت. لم يكن في مقدوري أنْ أُغيّره أو أُغيِّر العالم. ولكني وقعت في الحب، شعرت بذلك، في حبٍ حقيقيّ. لم أتمكن من السيطرة على وجيب قلبي عندما سمعتُ خُطاه تقترب.

مسحتُ ذكرى عائلتي من ذهني بالتركيز وبضبط النفس، بل مسحتُ وجودي أنا. ولكي أفوز، كان عليّ أنْ ألعب دوراً صعباً.

لم يكن أيّ منا قد رأى الآخر، بما أني كنتُ أواجه الجدار في غرفة الاستجواب. كنتُ أستخدم صوتي ويديّ لأجذبه - صوتي الناعم والمُعبّر عن الندم أثناء الاعتراف، ويديّ اللتين ترقصان كطيور البجع. كان في استطاعتي أنْ أحسّ بتغيُّره البطيء. صرتُ أعلم أنه لا يطيق صبراً على اللحظة التي يستطيع فيها أنْ يُدير وجهي نحوه، أنْ يواجه كلٌّ منا الآخر. بتُّ متأكدة من أنّه لكي يُحقق ذلك، لكي تُتاح له تلك الفرصة، سيكون عليه أنْ يساعدني على الفرار. عندئذٍ، أحيا عبق عطر غطاء أختي ذكريات الناس الذين أحببت، وكل الجمال المنتشر خارج أسوار السجن. لقد حذّرني غطاء الرأس بأنَّ عليّ أنْ أُسرِع، بأنه لا يمكنني أنْ أبدِّد المزيد من الوقتْ.

ولم أطق صبراً على رؤية وجهه. كنتُ مشوّشة، وتساءلت - هل تُمكّنني رؤية وجهه من معرفة ما إذا كنتُ عاشقة حقاً؟ على الأقلّ جانبي المُغامِر أراد بيأس أنْ يراه. كان صوته قوياً، وفي تلك اللحظة الهشّة رغبتُ في رجلٍ قويّ يحميني. وراح يُكرر القول إني مختلفة. وآمنتُ بأني صحفية ذكية وكفوء وتختلف عن الآخرين. آمنتُ بأنه يُدرك هذا عني، وأنه يُدرك أني شخص يمكنه أنْ يُخاطر في وقتٍ لا يجرؤ فيه الآخرون حتى على التفكير في ذلك.

أحياناً، ونحن في الغرفة معاً، كان يضع صوراً فوتوغرافية أمامي، أُخذَتْ من ألبوم انتزعه الحراس من غرفتي عندما ألقوا القبض عليّ. يبدو أنهم يستخدمونها من أجل توضيح نقطة ما، ليدفعوني إلى شرح مناسبة أو للتعرُّف إلى الأشخاص الأجانب الذين كنتُ معهم، وليكشفوا عن معلومات سريّة. في بعض تلك الصور، أظهر متبرّجة

وأقف في حفل بثوب قصير. كان ينتقي بعض الصور أُخذت في أثناء العطل التي أمضيتها في ألمانيا أو في جنوب فرنسا، حيث كنتُ أرتدي البكيني، ويسألني "ألا تخجلين من ارتداء هذا!" فأتلمّس ما خلف السؤال الفظ وجوابي الحليم، وأتخيَّلُ رجلاً متديّناً، ورِعاً، يخاف من حبّه المُحرَّم، ويُصارع نفسه وهو يستعرض صوري واحدة بعد أُخرى.

الفصل الثالث

لقطات فوتوغرافية من الحرب

أيلول 1980

"انتباه! انتباه! الإشارة التي تسمعونها الآن، الإشارة التي تسمعونها الآن هي إعلان عن الإنذار الأحمر. وهذا يعني أنَّ غارة جوية أضحت وشيكة. من فضلكم غادروا أماكن عملكم وتوجهوا إلى الملاجئ. أووووووووووووووووووو..."

كلما أُطلِقَ هذا الإعلان عن حالة الطوارئ عبر موجات إذاعة طهران، أينما كنّا، نتجمّد في أماكننا. "فيريدون! فيريدون! كاتي! كامليا؟" هكذا كانت أمي تنادي علينا خلال فترات التعتيم المفاجئة التي كانت تلي ذلك.

"أنا هنا، ماما".

"لا تتحركي".

عندما أشاهد ضوء المصباح الكهربائي يومض في وجهي، أعلمُ

أني سأجد نفسي بعد دقيقة محمولة وأنا مقلوبة رأساً على عقب تحت إبط والدي إلى القبو الكائن تحت فناء منزل ماما باري القديم في شارع الأميرية. ونهبط الدرج المُظلم والضيق كل درجتين معاً. وتتبعنا أمي، التي كانت حاملاً في الشهر الثالث بأخي كاي خُسرو، ثم كاتايون، وخلفها جدّتي مع عمي الأصغر، بيزاد. وكانت جدّتي قد خاطتْ حقيبة تُعلّق من الرقبة لكل فرد في العائلة، نضع فيها أوراق الهوية ومبلغاً صغيراً من النقود. لا أعلم لماذا - ربما لكي يتمكن فريق الإنقاذ من التعرُّف إلينا إذا ما عُثِرَ علينا مدفونين تحت الأنقاض؟ ومن موقعنا في القبو سمعنا هدير طائرات وإطلاق نيران مُضادات الطائرات. وكان والدي وعمي يتركاننا نحن النساء وحدنا في القبو ويصعدان لكي يُراقبا من السطح.

كنا بلا مأوى، ونُقيم موقتاً مع جدتي. وكنا، أمي، وأختي، وأنا، قد عدنا أخيراً إلى طهران من فرانكفورت، حيث كنا ننتظر والدنا كي ينضم إلينا. وكنا قد ذهبنا إلى ألمانيا بعد أنْ أدرك أبوانا أخيراً أنَّ الوضع في إيران بالنسبة إلى أُناسٍ مثلنا، بخلفيتنا الاجتماعية، يزداد سوءاً. "المستقبل" الذي كنا نصبو إليه لم يكن يقترب بالوتيرة السريعة المأمولة. ولكن خلال فترة الأسابيع القليلة، في أثناء انتظارنا في فرانكفورت، كان والدي يتلكّأ. كان قد باع منزلنا (دارتنا التي اشتقنا إليها كثيراً، وبنيناها بجوار قصر الأميرة، ولم نُقم فيها أكثر من ثلاثة أشهر) بأرخص ما يمكن تصوره من الأثمان، وانتقل المشتري إليه باكراً، ولا يزال أثاثنا في المنزل، دون أنْ يدفع كامل المبلغ. وذات يوم، بعدما انتهت من مكالمة عبر الهاتف مع والدي، اتصلتْ والدتي على الفور بالخطوط الجوية

وأخبرتنا "يجب أنْ نعود حتى أستطيع أنْ أرتب الأمور مع والدكم. لم نفرّط فقط بمنزلنا، ولكن أيضاً بأثاثنا الجديد". وكانت الخطة تقضي بأنْ نعود إلى ألمانيا مع والدي قبل أنْ تفتح المدارس أبوابها.

في مطار مهر آباد في طهران، كانت والدتي شديدة التوتر ونحن نقف صفاً واحداً لكي يفتشونا. كانت قد أخفتْ داخل ملابسها العدد الأخير من مجلة "باري ماتش" التي تحتوي صوراً لجلالة الملك وجلالة الملكة وهما في باناما. "عُذراً، هذه السيدة حامل. دعوها تقف في أول الصف من فضلكم"، هكذا هتف صوت امرأة. فتنحّى الجميع جانباً لكي يفسحوا المجال لمرور أمي. بما أنها حامل بثلاثة أشهر، أخذت تمشي ببطء نحو الأمام. وتقدّمت الأخوات، المتدثرات بالسواد ويلبسن قفازات سوداء، بهدوء إلى الأمام. ثبّتنَ عيونهن على عينيْ أمي، وعندما لاحظن نظرة اللامبالاة الباردة التي رسمتها على وجهها، رحن يبحثن بحركة سريعة، نشطة، عن أغراضنا، وتابعنا طريقنا. صباح اليوم الذي تلى ذلك كان الثاني والعشرين من شهر أيلول، 1980، وعندما استيقظنا، سمعنا المُذيع عبر المذياع يقول "أيها المواطنون المحترمون، لقد هاجم العراق حدودنا الجنوبية وقصف مطار مهر آباد". وعرفنا جميعاً جيداً ماذا يعني هذا. لن نتمكن من مغادرة إيران من الآن وحتى إشعارٍ آخر.

في بداية الحرب، كانت طائرات العدو تخرق جدار الصوت مُصدرة ضجيجاً مُروِّعاً، وقامت جدّتي، كما فعل كل إنسان في طهران، بتأمين نوافذ منزلها كلها بشريط سميك لاصق على شكل حرف X لكي لا يتناثر الزجاج المهشّم، إذا ما وقع انفجار في موقع قريب، في أرجاء منزلنا. وغطّتها أيضاً بملاءات سوداء خشية أنْ يتسرّب

قدر ولو بسيطاً من النور، ويلفت انتباه الطائرات العراقية ويُعرِّض حيّنا لقصف القنابل. كنا نحاول أنْ ننهي تناول عشائنا بسرعة في العتمة، قبل حلول الساعة السابعة، وتحذّرنا جدّتي "أسرعوا! أسرعوا وكلوا! سوف يُقطع التيار الكهربائي قريباً".

كان موضوع النقاش الرئيس في الصباح في المدرسة هو الهجمات في الليلة السابقة وما إذا كان أيٌّ منا قد فقد أحد أفراد عائلته أو أحد أصدقائه. وكان هناك أيضاً كثير من الإثارة كلما أعلنتْ مكبّرات الصوت حالة الإنذار الأحمر. كانت غرفة صفي تقع في الطابق الثالث، وكنا نُسقط كتبنا ودفاترنا في أثناء التدافع والتسابق للخروج من المبنى، خوفاً من أنْ ينتهي بنا الأمر مدفونين تحت الأنقاض المتساقطة. كان مطلع الدَرَج ضيقاً إلى أقصى حد ومكاناً جيداً للقيام بأعمال خبيثة. ويبدأ الجميع بالصراخ، ومن الخلف، أدفع الأخريات. ويختلط الحابل بالنابل، وننحشر جميعاً على الدَرَج وهدير التفجيرات فوقنا. وعندما نتدفق أخيراً إلى الخارج، أغمز بعيني إلى زميلتي في الصف فارناز لكي نحرّك الأمور. "تلك كانت إما أمير آباد أو يوسف آباد".

تومئ فارناز برأسها موافقة، وتُضيف "آه نعم، هذا صحيح. في الليلة الفائتة سمعناهم عبر إذاعة صوت العراق يقولون إنهم سيضربون هذين الحيّين اليوم". فتبدأ مجموعة الصغيرات اللائي لديهن عائلات وأصدقاء في ذينك الحيّين بالصراخ والبكاء. وتنتشر الإشاعة بسرعة، وسرعان ما تبدأ نصف بنات المدرسة بالبكاء لكي يُسمح لهنّ بالعودة إلى المنزل. ولا تكتشف المُشرفات أبداً من أين بدأتْ الإشاعة وكل ما يستطعن عمله هو أنْ يعبّرن عن شجبهن لخبثنا عبر مكبرات الصوت

بعد عودتنا إلى حالة الإنذار الأبيض. كنَّ يعطين أكواباً من الماء والسكّر لكل الفتيات الصغيرات الجالسات في غرفة إدارة المدرسة اللائي أُصبن بحالة شبه إغماء من فرط البكاء.

لكنّي أشعر سراً كأنَّ قلبي يكاد ينفجر، وأنا أطلب الإذن للاتصال بمكتب والدي في مصنع الحليب النقي، القريب من مطار مهر آباد الذي قُصِفَ بكثافة. وعندما تلبّي موظفة الاستقبال طلبي، أبدأ بالهدوء، ثم يصلني صوت والدي المحسوب صافياً "نعم".

"مرحباً، سلام. أردتُ أنْ أتيقّن من أنكَ على ما يرام".

"نعم، كما ترين أنا في أحسن حال. أثمّة أمر آخر؟"

"كلا. إلى اللقاء". عندما أغادر غرفة المكتب أتلفّتُ حولي بعجرفة إلى الأخريات، وأقول بصوت منخفض لكيلا تسمع المعلمات، "طفلات! قطط مذعورة!"

* * *

كنا نعيش حياة مزدوجة. وكانت منازلنا جزراً صغيرة منعزلة، بعيدة عن عيون هيئة أمور التربية، وعن عيون الحكومة الجديدة وآذانها. وحالما تلجها، عليك أن تسرع بإيصاد الباب خلفك خشية أنْ يسترق أحد الغرباء النظر إلى الداخل. كان الكثير من وسائل الرفاهية التي نعتبرها ضرورية في حياتنا مُحرّمة في ظل الحكومة الجديدة. كلعب الورق، والتسجيلات الموسيقية، وزجاجات الفودكا الخاصة بأبي، وكل الكتب المُحرَّمة في مكتبتنا، وتسجيلات الفيديو. وكان السيد علي، الذي كنا نسمّيه "سيد الأفلام السينمائية"، يأتي إلينا على متن دراجة

نارية مرة في الأسبوع مع حقيبته السوداء المُقفَل عليها في صندوق الدراجة. ولا يتوفّر لنا إلا بضع دقائق لنخبره بما نريد. أنا وكاتي أردنا أفلاماً هندية بينما والداي أرادا صوراً قديمة لعيد رأس السنة قبل الثورة، تبيِّن خانم هاياد وماهاستي عندما كان في استطاعتهما أنْ تشاهدا بداية العام الجديد على شاشة التلفاز بابتهاج وحماسة بدل الخوف والخشية. وكان السيد علي يستعيد أفلام الأسبوع السابق، ويضع أربعة أفلام جديدة على مائدة المطبخ، ويُغلق حقيبته، ويضع قيمة الأجرة – مئة تومان[1] – في جيبه، ويرحل.

في اليوم الذي اغتيل فيه الرئيس المصري أنور السادات، قدّم أحد أنصار حزب الله علبة من الحلوى لوالدي، وهو يهتف "ها قد نال أنور السادات ما كان ينتظره". فرفض والدي قائلاً "أنا لا أفرح عندما يُقتَل الناس إلى درجة أنْ آكل الحلوى". أخذوا والدي من مصنع الحليب الصافي إلى السجن من أجل "امتحان معتقداته". استجوب، وهو معصوب العينين، على مدى ساعات بينما كان الحراس يغيرون على محفظته. كان يتلقّى راتباً جيداً كمدير لقسم المبيعات. وتعويضاً عن الأذى الذي سبّبه للمشاعر الثورية الوطنية، دفع "طوعاً" مبلغَ تسويةٍ مقداره راتب ستة أشهر لـ"إمام رقم 100" لأنه تسبّب بجرح جنود في أثناء الحرب. و لم يكن أمامه إلا أنْ يعمل على مدى ستة أشهر بدون راتب، وهو يكيل السباب بينه وبين نفسه.

وقد عرّضَ والدي نفسه للخطر أيضاً بزيارته مقبرة جنّة الزهراء. ولو لم ترافقه إحدانا – أنا وكاتي – لتملّكنا القلق طوال النهار. وفي

1 تومان: قطعة نقد فارسية كانت تُستعمل قبل الثورة الإيرانية.

صباح أحد الأيام استيقظتُ باكراً لكي أتأكّد من أنه لم تفتني الفرصة – شعرتُ بأنَّ من المستحيل أنْ أسمح له بالرحيل من دوني.

"بابا، أنا قادمة معك".

تناهى صوت والدي إليّ من المطبخ "كلا، نامي. في المرة المقبلة".

كان الوقت فجراً، الساعة الخامسة صباحاً من يوم جمعة في شهر شباط عام 1983. أيام الجمعة هي الأيام الوحيدة في إيران التي يُعطِّل الجميع فيها. لم يكن والدي سيذهب إلى العمل، و لم يكن لدينا دوام مدرسيّ. رميتُ ملابس النوم على السرير. وقبل أنْ يتمكّن والدي من إنهاء شرب الشاي الخالي من السكّر، الذي يشربه صباح كل يوم، كنتُ واقفة أمامه، حاملة معطفي وغطاء رأسي، دون أنْ أغسل يديّ ووجهي. كان والدي في عجلةٍ من أمره لكي يوصل أفسار خانم قبل أنْ تبدأ حركة المرور، وكان أمامنا مسافة طويلة نقطعها. وعندما قالت والدتي "هل أؤدّي واجبك المدرسي نيابة عنك؟". لم أُجِب، وتبعتُ والدي إلى السيارة وأمي لا تزال تُهدّد بصوت ناعس وأجشّ.

اختُزِلتْ طهران إلى حلم ممتع في صفاء صباح يوم بارد من الشتاء. لم يكن هناك غير بضع سياراتٍ تتوقف هنا وهناك عند إشارات المرور، وبين حين وآخر كان كنّاس شوارع هزيل يدفع بمكنسته القديمة المتهرئة عبر الرصيف المكسوّ بالجليد والذي فقد بريقه. كانت أفسار خانم بقامتها المألوفة، التي ترتدي السواد وتحمل حقيبة بيدها، تنتظرنا أمام منزلها. دخلت السيارة وألقتْ عليّ نظرة واحدة وأنا غافية في المقعد الخلفي وقالت "فيريدون، لماذا أحضرت هذه الفتاة البريئة؟ عزيزتي كامليا، لماذا لستِ في المنزل ترتاحين في يوم الجمعة؟ هل تريدين أنْ

تنامي في منزلنا؟". هززتُ رأسي نفياً وفتحتُ عينيّ جزئياً لكي أقرأ الشعارات الباقية على جدران منزل أفسار خانم ممّا قبل الثورة. "100% – بني صدر"، وبعد ذلك بمسافة، "الأخ رجوي". كانت صورة رجوي لا تزال موجودة في كل مكان؛ كان قائد حزب مجاهدي خلق وترشّح لانتخابات رئاسة الجمهورية. وكان ذا شعبية واسعة في بداية الثورة عندما قاد حركة المجاهدين ضد الشاه، ناشراً رسالة الخميني عبر شبكاته الموزّعة في أرجاء إيران. ومن دون رجوي، ما كان يمكن للثورة أنْ تنجح، ولكن بعد انتصار الخميني ببضعة أشهر فقط انقلبت حركة المجاهدين وأصبحت ضد آية الله. والشعار التالي على الجدار كان غير مقروء؛ لقد شطبه أحدهم برذاذ من الدهان الأسود وكتب تحته "الذين هربوا خونة. الموت لمناوئي حكم الشريعة". وكان رجوي قد فرّ هارباً إلى باريس. لكنه ظل يقود الحركة من منفاه، وصورته المطبوعة على هذا الجدار الإسمنتيّ لا تزال في حالة جيدة.

كانت أفسار خانم تُثير جلبة، وهي تعتذر بعبارات رسمية لوالدي لأنها أزعجته في مثل تلك الساعة المبكّرة من يوم العطلة. وكان والدي يُجيب على ذلك مازحاً بأنهما سيتحدثان بشأن الأجرة لاحقاً. وشيئاً فشيئاً شققنا طريقنا من شمال طهران إلى الضواحي. درنا حول ساحة "ذكرى الشاه"، التي سُميَتْ حديثاً ساحة "الحرية"، حيث يقف المسافرون القادمون عبر خط الحديد الغربي في الشارع. وكانت حافلات من طراز بايكان وفيات، المكتوب عليها "ميدان أزادي – ساحة الحرية"، تبدّل سرعاتها بصورة مسعورة لكي تقلّهم وتنشر أشكالاً جميلة من الدخان حول سيارتنا. وكلما أوغلنا غرباً،

تغيَّر المشهد العام أكثر. وحول ساحة بهمن تجمّع بضع مئات من عمال البناء، وبعضهم جلس على حافة الرصيف. كانت هناك سيارة شحن صغيرة تنتظر كي تحملهم إلى موقع عملهم، وبدأ الجميع يحاولون أنْ يتكدّسوا داخلها، والريِّس يصرخ "عشرون شخصاً. لا أحتاج إلا إلى عشرين" وراح يكيل السباب بالتركيّة، قائلاً إنَّ على الباقين أنْ يقطعوا المسافة سيراً على الأقدام. كانت فرص العمل نادرة بالنسبة إلى أولئك الرجال الذين يقفون صفاً يوم الجمعة. ووصلنا يافت آباد وقابلنا هناك المزيد من الهرج والمرج. كان الناس ينتظرون خارج أحد الأفران بالبيجامات ومظهرهم مشوّش رث ويحدقون إلى سيارتنا أثناء اجتيازنا. وأطفال صغار يضعون أصابعهم في أنوفهم يعبثون بالقمامة أمام أبواب منازلهم. وكانت البيوت أشبه بزرائب بائسة. نظر أبي إليّ من خلال المرآة التي تعكس المقعد الخلفي وقال "انظري جيداً كي تدركي كيف يعيش الناس وفكّري في قيمة الحياة التي تعيشين". وبينما أبي يُعطي الإشارة كي ينعطف عند لوحة الإعلانات التي تقول "طريق الضريح. مدخل مقبرة "جنة الزهراء"، فكّرتُ في الذين كنا نزورهم.

* * *

اندفعت أمي إلى داخل المنزل في ثورة غضب. رمت حقيبتها إلى الزاوية وانهارت على الأريكة في غرفة الطعام. كنتُ وكاتي نراقب بقلق من النافذة طوال فترة ما بعد الظهر، بدل أنْ نركّز على واجبنا المدرسي، في انتظار عودة أمنا من منزل أفسار خانم.

"لقد أحسنتُ فعلاً بعدم أخذكما معي. كان مكاناً لا يليق

بالأطفال. كان هناك رجال بملابس مدنيّة يتسكّعون في الشارع ويُحدّقون إلى المارّة. يلاحقون بنظراتهم كل مَنْ يمرّ من هناك، يراقبون ليتأكّدوا من عدم صدور ضجيج من المنزل. لم يكن يُسمَح للعائلة بالاحتفال بيوم الذكرى، واضطررنا إلى التظاهر بأننا أتينا لنعزّي. وكان علينا أنا وعمتك أنْ نلجأ إلى الحمّام لكي نرتدي ملابس السواد. ولم نتمكن من البكاء، وإلا لأتوا واعتقلونا". وبدأتْ تئن. "أوه، مسكينة أفسار!"

كانت ابنة أفسار خانم، غولي، ذات السبعة والعشرين عاماً، قد ذهبت إلى فرقة الإعدام قبل ذلك بأربعة أيام. وكانت أفسار هي أرملة السيد شاهنده، قريب جدي الذي صُعِقَ عندما شاهده على شاشة التلفاز يعترف بتهمة التجسُّس قبل بضعة أعوام مضت. كان أول فرد في عائلتنا يُعدَم. وكانت غولي منهمكة بدراسات التخرُّج في إنكلترا لكنها عادتْ إلى إيران في ذروة الثورة لكي تتزوّج قريبها، فوجدتْ والدها فاراً. وقام الوالد وابنته بإعداد طريقة ليتقابلا في أحد المطاعم، فتبعت الشرطة الثورية السريّة غولي لكي تُلقي القبض على والدها ثم أخذوهما معاً. اتُّهِمَتْ غولي بإيصال رسالة من عميلٍ أجنبي إلى والدها، واحتُجِزتْ في سجن إيفن الرهيب مدة عامين. ولكن في خريف هذا العام سمعنا أنها نُقلَتْ إلى سجن قلعة غزل، وافترضنا جميعاً أنه، عاجلاً أو آجلاً، سوف يُطلَق سراحها.

في يوم الخميس ذاك، كان والدي قد رافق أفسار خانم إلى السجن، كما يفعل دائماً في أيام الزيارة. ولكن في هذه المرة أعلن الحراس "اليوم لن تستطيعا أنْ ترياها". فطلبتْ منهم أنْ يقبلوا مرور كيس الطعام الذي

جلبته، على الأقلّ، لكنهم أعادوه. "إنَّ غولي ليست هنا".

سألتْ أمها "لماذا؟ أين هي؟"

"لم يتم تأديبها. لقد نقلها الحاج داوود إلى سجن ألفن لكي تُؤدّب!"

عادتْ أفسار إلى المنزل مذهولة والكيس في يدها. وفي صباح اليوم التالي رنَّ جرس هاتفها وحمل لها نبأ دفن ابنتها في "جنّة الزهراء".

* * *

أومأ والدي إليّ وقال "اذهبي إلى هناك واجلسي على ذلك المقعد إلى أنْ نعود". انتظرتُ في حديقة ورود الشهداء في مقبرة "جنّة الزهراء" وفي يدي زجاجة من ماء الورد، أتساءلُ ما إذا كان سيسمح لي بدخول المنطقة المُحرّمة. كان مطر خفيف واخز يهطل. وراقبتُ عن بُعد جسم أفسار خانم الضئيل المُتّشح بالسواد يركض في الريح، ثم يختفي داخل القسم المُخصص للذين أُعدِموا. كانوا يسمّون المساحة التي دُفِنَت فيها غولي قسم "الخونة" أو "الملحدين"، وكانت خالية من شواهد القبور اللائقة أو من أسماء وعناوين الموتى، فقط عبارات "طفل في السادسة"، أو "وليد عمره خمسة أشهر". وتلك القبور الصغيرة كانت قد سُحِقَتْ وتبعثرتْ. حتى الأعشاب الضارة والشجيرات أُحرِقَتْ مع مرور الأيام بأيد حاقدة، لكي لا تنبت أية أعشاب خضراء على القبور التي تضم أرواحاً مجهولة.

حديقة الورد الخاصة بالشهداء التي جلستُ فيها كانت مملوءة بالإشارات واللوحات التي كُتِبَ عليها "**الشهيد هو قلب التاريخ**"،

"**الشهداء لا يموتون – الله أكبر. إنهم مضرّجون بالدماء – الله أكبر**". وثُبِّتتْ صورة فوتوغرافية على كل شاهد قبر. "الشهيد: محمد علي... الجندي الذي استُشهد في سبيل وطنه: جواد... الحارس الشهيد: محمد". وكانت هناك مقاعد على طول الممرات لكي تستريح عليها عائلات الشهداء. وكانت بعض الأمهات والزوجات قد وضعن سجاجيد الصلاة على الشواهد ويقرأنَ آيات من القرآن.

راقبت جانب وجه والدي وقد وقف ليحرس الشارع الرئيس، خشية أنْ يظهر بعض المتشددين الثوريين ويتحرّشوا بقريبته وهي تنثر الملبَّس[1] (يُنثَر ليرمز إلى أنَّ المتوفاة كانت في عمر الزواج) والقمح حول مُستقر ابنتها، لكي تتجمّع الطيور هناك.

"خانم؟ خانم؟ من فضلك اشربي بعض الكاكاو بالحليب".

هكذا هتف لي صبي صغير في حوالى السابعة يحمل صينية. كان البخار يتصاعد عالياً من أكواب بلاستيكية يمكن رميها. وكانت أمه، التي وقفتْ خلفه بمسافة قصيرة، تحمل طفلاً وليداً بيد، وبالأخرى حملت ترمساً تصب منه المزيد في الأكواب.

"خذي من فضلك. على روح الموتى". كان المشروب يوزَّع تشريفاً للموتى، وفهمتُ أنهما من أقارب أحد الشهداء.

"شكراً"، وتناولت كوباً. كان يُركّز عينيه على وجهي.

"هل والدك شهيد، أيضاً؟"

"هه؟". أدركتُ فجأةً ما كان يسأل. كنتُ جالسة في مواجهة ضريح شهيد. وهززتُ رأسي نفياً.

---

1 – الملبّس: اللوز المُغلَّف بالسكَر.

انطلقنا بالسيارة، وكانت أفسار خانم سارحة في عالمها الخاص، منحنية نحو الأمام ومكوّمة في المقعد الأمامي. أعطيتها كوب الحليب. كان لا يزال دافئاً.

"اشربي، إنه يفيدك". أخرجت سفّاطة[1] صغيرة من حقيبتها ورشّت منها في فمها. كنتُ أعلم أنها مُصابة بالربو.

وصلنا إلى البوابة الرئيسة المؤدية إلى خارج المقبرة. في النافورة الكبيرة، كان الماء المنبعث قد لُوِّنَ باللون الأحمر لكي يرمز إلى دماء الشهداء. كانت الحياة في "جنة الزهراء" قد بدأتْ تدب تدريجاً؛ والسيارات ممتلئة بالحادّين ومغطاة بأكاليل الورد تدخل لدى خروجنا.

في طريق العودة كان أبي أسرع في القيادة بكثير مما يفعل عادة. أدار مفتاح المذياع لكي يُهدِّئ من جوّ الحزن وأسى القلب، وطلب من أفسار خانم أن تنضم إلى عائلتنا على مائدة الغداء. لكنها رفضتْ بأدب. "لقد أزعجتك بما فيه الكفاية. إنه يوم جمعة. ولديك أعمال يجب أنْ تؤديها. سوف أكون شاكرة كثيراً إذا أوصلتني إلى المنزل". وتوقف والدي أمام صورة بني صدر. بالنسبة إليّ، كان أبرز ما في وجه الرئيس الأسبق هو نظارته، التي تشبه قعر نظارة بحر صغيرة. مشت أفسار خانم مبتعدة وهي تعرج قليلاً.

بعد ذلك بعامين، هي أيضاً توفيتْ. قالت أمي إنها اختنقتْ في أثناء نومها، ولكن ربما من الأفضل القول إنها ماتت من شدّة الحزن. وتخبرني أختي أنها عندما تزور "جنة الزهراء" لكي تصلّي، تطلب من زوجها أنْ يحرسها وهي ترمي نظرات سريعة إلى قسم الذين "قُتِلوا خطأً"، كما

1 – سفّاطة: أداة لسحب الغاز من الفم، واستعمالات أخرى.

كان الناس يُسمّون قسم "الخونة" بعد أنْ اعترفت الحكومة، في بعض الحالات، بأنَّ بعض حالات الإعدام كانت خاطئة. وتنثر وريقات الورد على روح غولي، وأبيها وأمها، والآخرين جميعاً.

* * *

1981

مع استمرار الحرب، صرنا نسمع صفارات الإنذار وتحذيرات الغارات الجوية كثيراً بحيث لم نعد نهتم. كان المذياع يُعلن حالة الخطر، فأبقى حيث أنا، جالسة على المائدة في غرفة الطعام، أؤدي واجبي المدرسي. وعندما ترتج النوافذ، أخرجُ إلى الفناء وأحاول أنْ أخمِّن مدى قُرب الانفجار بتقدير حجم الدخان والجهة التي ينبعثُ منها. ولكن في صباح أحد الأيام الباكر، استيقظتُ على صوت طلقات نارية قريبة من منزلنا. هتفت أمي، وقد غلبتها الحماسة، "إنهم أنصار الشاه! إنه انقلاب! لقد قلت لكم إنَّ ثمة مصدراً موثوقاً أشار إلى أنهم مع نهاية الشهر سوف..." قاطعتْ كاتي أمي.

"ششششش! شششش! هدوءاً. دعونا نُصغِ إلى ما يقولون عبر مكبّر الصوت".

أعلنَ أحدهم في الشارع يحمل بوقاً "أيها الجيران المحترمون، من فضلكم الزموا منازلكم حتى إشعارٍ آخر. ثمة مجموعة من المشاغبين تنشط في حيّكم، وإخوتنا في القواتِ المسلّحة يبذلون أقصى جهدهم لإخراجهم من مكامنهم. إنكم لستم في خطر". كان "مجاهدو خلق" قد انقلبوا على الحكومة ويخوضون حرب شوارع، يُلقون القنابل

وينفذون عمليات اغتيال. وكان المجاهدون المرتدّون يختبئون في مكامن خلايا بين الأحياء السكنية. كنا نسمع الرشاشات وأصوات الأبواق تطلب من المنشقّين الاستسلام. "إنَّ المنطقة بأكملها مُحاصَرة بإخوتنا في السلاح. ضعوا أسلحتكم في الخارج على الأرض وسلّموا أنفسكم".

نظرنا من النافذة فوجدنا أنَّ جيراننا كلهم يراقبون من النوافذ، مثلنا. ولوّحتُ بيدي لصديقتيّ الزرادشتيتين نسيم وبهاره اللتين تقطنان على الجانب المقابل من الشارع. هل اكتشاف المكامن يعني أنَّ الدروس ستتوقف بعد ظهيرة ذلك اليوم؟ إنَّ مدارسنا المزدحمة أصبحت الآن تعمل في نوبتين. في أسبوع نداوم قبل الظهيرة، وفي آخر بعد الظهيرة. وفي كل أسبوع يأتي المزيد إلى صفنا الممتلئ تقريباً بأربعين طالبة، معظمنا نجلس ثلاثة على مقعد واحد. يكنَّ طالبات فرّقتهم الحرب من الأهواز، وعبادان، وخُرمشهر، أو من أماكن أخرى في الجنوب. وتقف مديرتنا عند السبورة وتقدِّم فتاةً زيتونيّة البشرة وذات حاجبَين أسودين، تبدو من رأسها وحتى أخمص قدميها أنها من إنتاج جنوب إيران. ونرسم جميعاً ابتسامات زائفة، أما الفتيات اللائي يجلسن كل اثنتين في مقعد فيرمينها بنظرات حادة كالخناجر، لأنهن لا يعرفن إنْ كانت كسولاً أم ذكية، وما إذا كانت أنفاسها كريهة.

بما أني كنتُ مُدرَجة في دوام بعد الظهيرة، فرحتُ عندما سمعتُ هدير القصف يشتدّ، لأنَّ حرماني من مغادرة المنزل يعني أني لستُ مضطرة إلى الإسراع في أداء واجبي المدرسي. لكنَّ الظهيرة لم تكن قد حلّتْ بعد ومع ذلك عندما عاد الرجل الملتحي مع بوقه وأعلن "أخواتي

وإخوتي الأعزاء، نحن شاكرون جداً لصبركم وتعاونكم. لقد تطهّرت المنطقة من العناصر الخطرة، وأصبحتم أحراراً في الخروج من منازلكم. **الله أكبر! الخميني هو القائد! الموت لأعداء الشريعة الإسلاميّة!**"، هرعنا نهبط من الدور الرابع، يكاد يقتلنا الفضول. إحدى الجارات كانت قد شاهدت كل شيء وتحكي عن عملية الحصار باستمتاع عظيم وكلام مُنمّق لجمهورٍ كان قد وصل إلى مسرح الحدث قبلنا. وَصَفَتْ كيفَ أُخرِجَ الشبّان والشابات من مخابئهم في المنزل معصوبي العيون وأيديهم موثقة خلف ظهورهم.

كان خالي علي قد اتُّهِمَ بالانقلاب على الثورة والاختفاء. وفي الثامن والعشرين من شهر حزيران، عام 1981، اتصلتْ زوجته، إيران—دُخت، بوالدي وهي تبكي وتقول "تعال، إكراماً لله. لقد أخذوا علي...". كان قد خدم في الحرس الثوري لمدة تقلّ عن عامَين عندما طُرِدَ من عمله. أخبرنا أنَّ سلوك الحكومة الجديدة يتعارض مع صورة الإسلام التي تُبرزها دعايتهم وأنه لا يستطيع أن يخدم وسط حشد من اللصوص والكذّابين. وبعد ذلك، لازم خالي علي المنزل، وانهمك بالحياة مع زوجته وطفله المولود حديثاً. ولكن في صباح ذلك اليوم سمعنا عبر أثير الإذاعة الوطنية أنَّ مكتب حزب الجمهورية الإسلامية قصفه المنشقّون بالقنابل، وأنَّ مجموعة من موظفي الحكومة قد استُشهدوا. فهل كان لخالي دور في ذلك القصف؟ تساءلت.

لا بد أنَّ والديّ قد خطر لهما التساؤل نفسه. وفتّش الحراس منزل جدتي ومنزل خالي وتوقعنا منهم أن يفتشوا منزلنا بعد ذلك. أمسك والدي بيدي، وتسللنا إلى الخارج مع حقيبة مملوءة بالطلقات كان خالي

قد أعطانا إياها في الأيام الأولى من الثورة. مشينا حتى كشك الهاتف العمومي القائم في نهاية الشارع، وحشرنا الحقيبة فيه، وانطلقنا فارّين. أخذنا ما بقي من أغراض مُحرّمة في المنزل - زجاجات كحول، أوراق لعب، أعداد أمي المُفضّلة من مجلة "**باري ماتش**" بما تحتوي من صور للشاه ولفرح، كتب مُحرّمة، وأخيراً مسدس والدي. وفي وقت متأخّر من تلك الليلة حملناها كلها إلى أرض المتنزّه، ودفنتها أمي تحت أوراق صحف قديمة داخل برميل نفط فارغ.

كانت أمي في كل يوم تجلس خائفة بجوار جهاز المذياع، حابسة أنفاسها بينما المُعلِن يقرأ أسماء الذين أُعدِموا. وفي كل مرة تنتظر... ولكن، كلا، لم يذكروا اسمه. أصبح في استطاعتها أن تتنفّس. قام والدي باتصالاته كلها، لكنَّ المسؤولين قالوا إنهم لم يسمعوا باسم علي. وضعت أمي الغطاء على رأسها وراحت تنتقل من سجن إلى سجن، وأخي الطفل الوليد بين ذراعيها. توسلت ولم تحصل إلا على أجوبة لا طائل من ورائها. وأخيراً بعد مرور سبعة أشهر عثرنا عليه. كان في سجن إيفين وألقي القبض عليه لأنه أهان قيم رجال الدين. في صباح يوم القصف، كان علي يقفُ في طابور أمام الفرن، وسأله أحد الأصدقاء "هل سمعت أنهم اليوم وضعوا قنبلة في مكتب الحزب الجمهوري؟" كان خالي، الذي لم تكن له أي صِلة بالمجاهدين المرتدّين، مرحاً لأنه تحرّر حديثاً من الحرس. أجاب "هذا أمر لا يهمّني!". وقبل أنْ يصل إلى منزل جدتي حاملاً الخبز الطازج استوقفه حارس. وأمضت جدّتي ذلك النهار كله جالسة في الشرفة في انتظار وصوله.

***

كانت أمي قد رفضت أن تتكلَّم مع أخيها منذ حادثة وقعت خلال الأيام الأولى من الثورة. فعندما كان الخال علي عنصراً متعصباً في الحرس الثوري، اتُّهِمَ بمراقبة منازل لاجئين من عليّة القوم في شارع سارلاشغار زاهدي، المعادِل للشارع الذي يقع فيه منزل جدتي في جمران. وذلك في الوقت الذي كان فيه أقرباء لوالدي، على غرار والد غولي، يهربون من منزل إلى منزل. وذات ليلة توقفنا لكي نزور علي في طريقنا إلى منزل الجدّة، وبعد أنْ مررنا بنقطة تفتيش الأمن، وصلنا إلى منزل بُنيّ اللون ذي سقف مائل. نادى أحدهم على خالي، فظهر عند المدخل في الظلام مرتدياً زيّه الرسمي الأخضر الخاص. وتقدّم منا مباشرة ورفعني عالياً بحركة واحدة. كانت أصابع عمي الحنون مزيَّنة بخواتم من العقيق الأحمر الفاقع. ومن موقعي بين ذراعيه استطعتُ أنْ أشاهد المنزل في حالة من الفوضى، بعدما داسته أحذية خالي ورفاقه العسكرية. كانت هناك دمية رثّة ممزقة إلى نصفين، رُميَتْ خارج الباب الأمامي، وعندما أنعمتُ النظر إلى الداخل، استطعتُ أنْ أرى مهداً خشبياً في غرفة نوم طفل مُدمَّرة. فتذكّرتُ كيف كنا نتمشّى في المتنزه مع صديقاته. أكان خالي الحبيب نفسه هو الذي خرَّبَ منزل أولئك الأطفال؟ اضطربت أمي و لم يعُد في استطاعتها أنْ تتحمّل رؤية المزيد. وسمعتها تنطق في حقّه بعض الألفاظ النابية، الفاحشة، بصوت منخفض. استدرنا بالسيارة وأسرعنا ننحدر أسفل التلّ، وأمي تبكي غير مُصدّقة. وفي اليوم التالي رأينا في الصحف صورة الرجل الذي كنا قد

شاهدنا منزله – خُسرو داد – بين صور ضحايا فرقة الإعدام.

على الرغم من أنَّ أمي رفضت أنْ تتكلَّم مع خالي، بقينا نزور جمران كالمعتاد. وفي صيف عام 1980، عقد الخميني، لمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي، اجتماعاً عاماً مع الشعب. ومرّ من أمام منزل جدتي، حيث كنا قد اجتمعنا للاحتفال بالعطلة، حشد يصرخ. كانت النسوة قد ربطن أغطية رؤوسهن عند الخصر لكي تتحرر أيديهن وسط ازدحام الحشد، وبعضهن كنّ يصرخن ويلطمن صدورهن. كان من المفترض أنْ يجتمع الكلّ في الحسينيّة، لكي يُلقي الخميني خطاباً من مصطبة منزله. ولكن كان على عشاق الإمام أنْ يقفوا أولاً صفاً واحداً، يتدافعون ويندفعون، لكي يُعطيهم الحراس بطاقات دخول ومشاهدة الإمام.

ذات مرة حصلت على مباركة الخميني عندما سرقني خالي علي من منزل جدتي. كانت أمي مسافرة – ربما لزيارة قريب آخر لنا في جمران. وطلب خالي من الجدّة نقاباً لأضعه على رأسي وأخبرني أننا سنشتري حلوى من دكان البقّال السيد مُحسن. كنتُ أعرف إلى أين سيأخذني حقاً، لكنني تظاهرت بأنه خدعني، لعِلمي أنَّ والدتي ستغضب كثيراً عندما تعرف. وتجاهل خالي علي إنذارات جدّتي. واجتزنا البوابة مع الكثير من عبارات "**السلام عليكم برادَر**"، إلى فناء منزل الإمام. ونزولاً عند رغبة خالي، ظهر الإمام بنفسه ووضع يده على رأسي ودعا.

عدنا إلى منزل جدتي، كانت أمي جالسة على المصطبة كنمر جريح. وحالما وصلنا اندفعتْ نحو خالي. كانت كاتي قد خرجت لتنضمّ إلى أمي، وأخبرتني لاحقاً سرّاً أنها تمنّتْ لو أنها تمكّنت هي أيضاً من مقابلة الخميني. وفي ذلك اليوم صبّتْ أمي لعناتها العنيفة على كل شخص

وكل شيء حولها، وهي تلوي أُذنيّ بقوة، وتعِد بأني إذا تفوّهت بكلمة واحدة لوالدي، فسوف يصب جم غضبه علينا - ولن نتمكن أبداً من العودة إلى جمران لنزور الجدّة.

منذ أن انتقل الخميني للإقامة في جمران، أضحتْ القرية هي "منزل الخميني". وطوال نهار الاحتفال بعيد المولد النبوي كان مَنْ تسمّيهم أمي "الجماهير العاطلة" يُقرعون بابنا لكي يستخدموا الحمّام، ويشربوا ماءً، أو لتغيير حِفاض الأطفال. وكان من المستحيل رفض طلباتهم. وتصاعدت روائح المخلفات الإنسانية القوية من أقصى ركن في الفناء، حيث وقف الناس صفاً واحداً لدخول المرحاض. وكان والدي يعمل ضمن حرس الإمام الخاص وجلب معه كمية كبيرة من بطاقات حضور موكب الخميني. هزّتْ أمي كتفيها استخفافاً. إنها لا تحتاج إلى بطاقات حضور. وبينما الناس يغادرون فناء منزلنا، كانوا يلتفتون إليها ويقولون "حاجة خانم، كم أنتِ محظوظة لأنك قريبة من السيد الخميني. فليُجزكِ إمام الزمان".

كانت القِوى الثورية قد احتلّتْ الحديقة المجاورة وجعلت منها قاعدة لوحدات حرس الخميني. كان ثلاثة من الجنود القرويين بقبعاتهم الخضراء يجلسون على السطح خلف مدافع مُضادة للطائرات. ولكن بالإضافة إلى مراقبة السماء والإمام، وجدوا شيئاً آخر يشغلون به وقتهم، أعني التلصُّص على منزل جدّتي. كنتَ ترى، من بين أوراق أشجار الجوز الكثيفة الممتدة عالياً نحو السماء، وجه جنديّ يأمل أنْ يلمح امرأة تبدّل ملابسها أو شيئاً مُثيراً مُشابهاً. ولكن للأسف، لم يكن المنزل يضم إلا امرأتين عجوزين تعيشان فيه، جدّتي وصديقتها نرجس

خانم. و لم تكونا من النوع الذي يُغامر بالخروج من دون غطاء الرأس. ولو أنَّ أمي لمحت شكلاً يلتفتُ نحو الفناء، لصرختْ "أولاد حرام بلا أمهات! هل من أهداف ثورتكم أنْ تجلسوا على الأسطح وتتلصّصوا على أجساد النساء؟ يا لكم من قذرين!" فينسحبون مبتعدين كالأشباح، وقد أخافتهم إهاناتها. ولكن بعد ذلك بساعة يعود شكل شخص آخر للظهور على السطح...

في صباح يوم عيد المولد النبوي، غصّ فناء منزلنا بالناس. وحالما أُعلِنَ أنَّ الحراس سيبدؤون بإصدار بطاقات حضور الموكب، اندفع الناس إلى الأمام كقطيع من الخِراف المذعورة. ومرّت مجموعة بالقرب منا حاملة شيئاً لم أتمكّن من تمييزه، وهي تندب وتصرخ "يا حسين!". والإمام حسين هو أحد أولاد سيدنا علي، أول إمام شيعيّ؛ وقد قُتِلَ في كربلاء، ومنذ ذلك الحين والشيعة يبكون على قتله ويرثونه، وكثيراً ما يُعاقبون أنفسهم علناً. تصاعدَ الغبار من الأرض سُحُباً، فحملتني أمي تحت إبطها وأغلقت علينا الأبواب داخل المنزل. وازداد هدير الصراخ والعويل قادماً من كل جهة. والرجال، والنساء، والأطفال يُداسون بالأقدام. ومع تناقُص الحشود، بقيَ المئات مرتمين على الأرض مُضرّجين بدمائهم. وانهمك الناس بالاعتناء بالجرحى والموتى. كان خالي، الرياضيّ، المفتول العضلات، يظهر كل خمس عشرة دقيقة حاملاً على كتفيه جثّة، يعلم الله من أين جلبها، ويُمدد الجسد الميت خلف جدار المنزل الخلفي. ونُحضر ما يتوفر لدينا من أغطية، ويُغمغم خالي بالعربية "إنّا لله وإنّا إليه راجعون"، ونُغطي بها وجوه الموتى. وفي إحدى المرات، ظهر من قلب الحشد المشوّش وصرخ "تنحّوا!

أفسحوا الطريق!". لكنَّ الفتاة الشابة المتدلية على كتفه انتفضتْ بعنف ثم همدتْ بلا حِراك. ثم وضعها على الأرض، فرأيتُ بقعة الدم في أسفل ظهرها. كانت الفتاة قد بالت على كتف خالي من فرط خوفها من الموت.

استغرق وصول الإسعاف وإبعاد عشرات الآلاف من الناس ساعات عديدة. واستمر العويل والبكاء "**يا حسين! يا إمام الزمان!**". والعائلات التي تفرّقَ أفرادها وسط الفوضى كانت أول مَنْ ألقى نظرة إلى ما تحت الأغطية البيضاء. كانوا يكشفون عن وجوه الموتى ثم إما أنْ يمضوا في طريقهم أو يبدؤوا بالعويل. ومن جديد يقرعون بابنا. إنهم يريدون أنْ يعرفوا إلى أين أُخِذ أحباؤهم. وتقول أمي "إما إلى رضا بهلوي أو إلى مستشفى منظاريا". ويُزمجر خالي بصوت منخفض "قولي مستشفى الشهداء. بهلوي مات".

* * *

"علي، علي، عزيزي علي..." وضمَّتْ أمي أخاها بقوة إلى صدرها وصرخت دون تحفُّظ أمام سجن قلعة غزل. بعد مرور سبعة أشهر من دون أنْ تصلها كلمة واحدة عن مصيره، مرّت أربعة أشهر أخرى قبل أنْ يُسمح لها بزيارته للمرة الأولى. كان نصف حيّ بعدما تعرَّضَ للتعذيب في سجن إيفين. ولحُسن الحظ، نُقلَ منه. على الأقلّ في سجن قلعة غزل يمكنك أنْ تطلب محامياً لكي ينظر في قضيتك. وأنا وكاتي، أيضاً، تمسّكنا بساقيْ خالي وبكينا. وطوال فترة الزيارة بقينا في فناء السجن، جلسنا على قطعة من الورق المقوّى مددناها.. كانت

أمي تحمل بيدها كيساً مملوءاً بالملابس الداخلية والحلوى، وتضع على رأسها غطاءً من النسيج الأزرق عليه ورود برّاقة، وحاولنا، كالكثير من العائلات الأخرى التي قدِمت للزيارة، أنْ نبقى متماسكين ولا نُظهِر مشاعرنا ونبدو ثوريين. كان خالي شديد الخجل ولم يُقبِّل زوجته، ولكن عندما شاهد صورة ابنه الوليد ذي الأشهر التسعة، انهار وبكى بمرارة.

اشترى خالي حلوى كيت كات وسمارتيز من دكان السجن لأجلي ولأجل كاتي. وكانت أمي في كل أسبوع تلفّ له شطائر صغيرة من اللحم وأصنافاً أخرى من الطعام، آملة أنْ يُعيد الطعام المنزلي الصحة إلى أخيها، بالإضافة إلى الملابس وبعض النقود. وأذكرُ كيف كان في عطلة عاشوراء يمشي في المسيرة، رافعاً عالياً شجرة من المعدن لها ستة عشر غصناً تزن حوالى مئتي رطل، ويحييه الجمهور بصوتٍ واحد، "يا علي...". الآن أصبح نحيل الجسم وجريحاً. أخبر أمي بالتفصيل كيف كاد أنْ يُعدَم لأنه مُجاهد – كيف وضعوه في زنزانة الذين ينتظرون تنفيذ حكم الإعدام إلى أنْ تعرَّفَ إليه زميل له في الحرس الجمهوري ونقله. كانوا قد ضربوه على بطنه حتى تمزّق. واضطروا إلى إحالته إلى مستشفى السجن مرتين لكي يخيطوا التمزق.

بعد مرور عام على اعتقاله، وبعد الكثير من النقاش، اتفقوا جميعاً على خطة لرشوة مدير السجن. شرحتْ أمي الأمر، وهي تنقل الجوز، واحدة بعد أخرى، من مجموعة من صحاف الفضّة القديمة المحفورة وتضعه داخل طاس فارغ من الخزف، قائلة "من أجل تحرير خالكم نحتاج إلى مبلغ سائل". وبعد أنْ أفرغت الصِحاف، أخرجت منديلاً

ولفّتها. كانت الطاسات، والأطباق، والملاعق، والصينيات المُزخرفة قد اختفت عن طاولة الطعام. ثم وصلت العمة ماهين، وهي صديقة قديمة لأمي.

"ماهين، ضعي هذا الذهب أيضاً في حقيبتك. وبالمناسبة، هل أحضرت غطاء رأسك؟"

راحت العمة ماهين تُردّد "**بسم الله الرحمن الرحيم**"، وهي تضع الأحجار الكريمة في حقيبة يدها. وتعرّفتُ فيها إلى أساور جدتي، وقلادة أمي الطويلة التي تحمل صورة إمام الشيعة الأول، حضرة علي؛ وسوارها المطلي بالمينا من الكويت؛ وسوارها الآخر الذي يحتوي قطعاً نقدية ملكية بهلوية؛ وخاتم زواج زوجة خالي. ونادت أمي "كامليا، هل أنت مستعدة؟"

"إلى أين نحن ذاهبون؟"

"إلى السوق"

كانت أمي والعمة ماهين قد ارتدتا غطاء الرأس الأسود لكي تتمكنا من إخفاء الأشياء الثمينة تحته وأيضاً لإخفاء النقود التي ستجمعانها. ولما كنتُ شديدة قِصَر القامة، شعرتُ بأني كالأسيرة وسط زحام السوق. لم أتمكن من رؤية أي شيء، ولم أتمكن من التنفّس من تزاحم النساء بأغطية الرؤوس السوداء. أمسكتُ بقوة بيد أمي لكي لا أضيع، ورحنا نتنقّل من دكان إلى آخر. باعت أمي كل شيء، ثم بدأتْ المفاوضات المُعقّدة. وأُحضرَ أبي إلى السجن مرة بعد أخرى من أجل التفاوض حول علي، معصوب العينين لكي لا يتعرَّف إلى أي من المُستجوبين أو إلى موظفي السجن السرّيين. وتصرَّفَ بوصفه ضامن كفالة خالي، فترك جواز سفره

عند وزارة الاستخبارات و لم يعُد في استطاعته أنْ يُسافر خارج البلاد، ووزّعَ رشى بمبالغ ضخمة، مقابل الإفراج عن خالي.

من قبل، كان خالي رجلاً رياضياً، ضخم الجثة، لكنَّ خالي الحالي أصبح مُحطّماً تعرَّضَ للتعذيب. كان على امتداد العام، في الثلج والبرد القارس، أو في حرّ الصيف الذي لا يُطاق، يجلس على السطح ويلعب مع الحمام. وكنتُ أرتقي إليه لأراقب الجيران بنظارته المُكبّرة.

"سلام، يا خالي!"

كووو، كووو، كووو، كووو... كان خالي، الذي أحرقته أشعة الشمس ويبدو مهزوماً، يراقب طيوره، ورأسه مائل نحو الخلف، يُصدِرُ أصواتاً خافتة من حنجرته وينثر حفنات من حبّ الدِخن. وترفرف الطيور وتقترب لتأكل. وذات مرة أثناء زيارتي له، جلَس رجلٌ آخر، اسمه أكبر، مدمن أفيون نحيل الجسم، قبالة خالي. توسّطتهما صينية عليها كوبان من الشاي فارغان وطاس صغير من الحلوى. مدّ خالي يده وهتف "إيران! إيران!".

سُمِعَ صوت زوجته من خلال فتحة التهوية "نعم؟"

"أعطي فاطمة كوبين من الشاي لتُحضرهما إلينا".

كنتُ قد سمعتُ العمة إيران تشكو لأمي مصيبتها مرات عديدة. "زاري خانم، متى سينتهي هذا الأمر؟ من الصباح وحتى الليل وهو على السطح يُناجي ذلك الحمام! ويجلب إليه هناك كل عاطل متشرد!".

كانت قد صبّت الشاي، وهي تغمغم بصوت منخفض، "هذا كله لا يهمني!"

"فاطمة، خذي هذين وأحضري الصينية الأولى. حباً بالله، زاري

خانم، أترين أي نوع من الحياة نعيش هنا؟"، وتمسح الدموع عن عينيها بطرف جلبابها المنزلي. عندما صعدتْ ابنة خالي مع الشاي الجديد، تبعتها أمي مباشرة. وحالما رأى ضيف خالي أمّي فرّ هارباً على عجل. كان الشجار مرتسماً على وجهها.

صرخت أمي، بينما صديق خالي يبتعد مسرعاً، "علي!"

غمغم خالي بكلمات ترحيب وهو يرشف الشاي الساخن بصوت مسموع من طبق الكوب. لقد كان رجلاً عجوزاً في الخامسة والثلاثين. شعره الطويل كان قد أصبح أبيض بأكمله؛ وشاربه يتدلّى من زاويتيْ فمه كشارب الدرويش، نظرتُ إلى خالي، يدور في فلكِ عالمٍ آخر؛ هل كان حياً أم هو فقط يحمل شَبَهاً مُذهلاً من كائن حيّ؟

"زوجتك وأولادك يشعرون بالخجل! لماذا لا تكفّ عن هذا كله؟ أنتَ هنا على السطح تُطلق الحمام من الصباح حتى الليل. وتُحدّقُ إلى الشمس حتى اصفرَّ لون بؤبؤي عينيك! مشِّط شعرك على الأقلّ. شذِّب لحيتك. هؤلاء الناس يشعرون بالخجل! إنَّ زوجتك امرأة شابة!"

اختبأت العمة إيران في المساحة الكائنة خلف الباب الموارب المؤدي إلى السطح، ولكن كان في استطاعتنا أنْ نسمعها تبكي. رفع خالي وجهه نحو الشمس ولم يُجِب، لكنَّ الدموع كانت تجري على وجهه... لم ينطق بكلمة واحدة. صرختْ أمي، "علي، تكلّم. قُلْ شيئاً. أتريد أنْ ترى طبيباً؟"

لم أعد أحتمل وجودي هناك. هرعت أهبط الدرج إلى الطابق الأسفل ووجدتُ ابنة خالي البدينة فاطمة، مبتهجة لأنها حظيت بهذه المناسبة النادرة للانفراد بعلبة الحلوى التي أحضرتها أمي معها لأجلهم،

مُحاولةً أنْ تأكلها بسرعة قبل تهبط أمها. وبدأتُ أتشاجر معها. "ألا تستحين؟ اتركي بعضاً لإخوتك!"، وانتقلتُ إلى الحمّام كي لا أسمع أنين خالي ونشيج زوجته الذي يعتصر القلب. وتناهى إليّ صوت أمي أسفل الدَرَج. "لا أدري ماذا فعلوا لهذا المخلوق المسكين. كأني أتحدث مع حائط".

* * *

"إنه ليس من مقامك. لعله يجلب لك الحظ الحسن". مع هذه الكلمات وضعت أمي حذاءً من الجلد البُنّي أمام خالي مُصيِّب. كانت قد زارت لندن أخيراً وجلبت معها هذه الهدية. وأضافت "جرّبه وانظر إنْ كان مناسباً"، فقال "عزيزتي زاري، إنه ممتاز. سأدّخره إلى حين أقابل جلالته في مطار مهر آباد". كان ذلك في شتاء عام 1980 وكان كلاهما ما يزالان يؤمنان بأنَّ الشاه سيعود. كان زوج خالتي موظف البلاط، "خطّاط جلالته الشخصي"، يعمل في مكتب الشاه الخاص. ولما انتاب خالي مُصيِّب القلق من أنْ يُقبَض عليه خلال الأشهر الأولى من اندلاع الثورة، أصبح يقضي معظم وقته وسط مزارع الرمان في قرية نور آباد. كان دائماً يُطمئن أمي، بتفاؤل مُطلَق، بأنَّ حكومة الملالي سوف تسقط "في الشهر المقبل". لكنَّ الأشهر توالتْ، ومات الشاه في المنفى على سرير مستشفى في القاهرة في شهر تموز من ذلك العام.

كانت أمي هي الشخص الوحيد بين أفراد عائلتنا والجيران الذي أعلن حزنه على مدى أربعين يوماً وليلة بعد وفاة الشاه. اتّشحتْ

بملابس الحِداد من رأسها حتى أخمص قدميها وارتدتْ برقعاً أسود رقيقاً وقفازاً. ونصحها التجار الصِغار المحليون بأنْ تكفّ عن هذا السلوك العقيم تجنّباً لأي أذى قد يقع عليها أو على عائلتها. فهزّتْ كتفيها استخفافاً وقالت إنَّ ارتداء السواد ليس جريمة.

كانون الثاني 1985

كانت الثورة الإيرانيّة قد دخلت عامها الخامس، وكنتُ أنا في الصف الخامس في المرحلة الابتدائية. في ذلك الأسبوع كان الدوام في الفترة الصباحية، وعدتُ إلى المنزل وفوجئت بأنْ لا أحد هناك. ضغطتُ جرس الباب، وركلتُ الثلج المتجمّد على عتبة الباب حنقاً.

"كامليا! كامليا!"

هتفت لي جارتنا اللطيفة منزّه خانم. كانت دائماً تراقب من مطبخها في الطابق الثالث من الشقّة على الطرف المقابل من الشارع. كانت صديقة لأمي، وكثيراً ما تزورنا. كان في استطاعتها أنْ تقلب فنجان القهوة على الصحيفة وتقرأ لك الفال في الحال. كانت منزّه خانم دائماً ترى عروض زواج، ومالاً، وخبراً قادماً عبر الهاتف، "أيتها الشيطانة الصغيرة، مَنْ هذا الفتى الذي في فنجانك؟"، فأرسم تكشيرةً واسعةً على وجهي وأهزّ كتفيّ استخفافاً، بينما تراقبني أمي بعين ثاقبة.

أومأتْ إليّ "عزيزتي كامليا، تعالي إلى هنا. لقد خرجت أمك، وقالت إنَّ عليك وأختك أنْ تمكثا في منزلنا".

"إلى أين ذهبت؟"

"لستُ متأكّدة. أظن أنها اضطرت للذهاب إلى منزل عمتك توران".

إلى منزل نياواران في منتصف النهار؟ انتابني الخوف ولكني لم أطرح أية أسئلة أخرى. كانت منزّه خانم زرادشتية. وكان فوق ساعة الحائط في بيتها ورقة كُتِبَ عليها "كلمات خيِّرة، أفكار خيِّرة، أعمال خيِّرة". وقد قالت أمي إنهم أفضل من المسلمين بكثير، لأنهم ليسوا كذّابين ومنافقين، ويلتزمون بشأنهم الخاص. نبيّهم اسمه زرادشت، وكنتُ قد ذهبت إلى معبدهم في شارع القوام السلطاني مرات عديدة واستمتعت برائحة عطر خشب الألوة والبخور المُحترق. كنتُ منهمكة في وضع لائحة بالضيوف الذين سأدعوهم إلى حفل عيد مولدي، فجلبت اللائحة لأناقش أمرها مع ولدي منزّه خانم، نسيم وبهاره. ثم وصلت كاتايون إلى المنزل وانضمّتْ إلينا على مائدة العشاء.

بُعيد الساعة التاسعة رن جرس الباب. قبضتُ على حقيبة المدرسة ورحت أهبط الدرج بسرعة. في الخارج، في الشارع، رأيتُ أمي، تنظر بعيداً عني، كانت ترتدي بالضبط الملابس التي بقيت ترتديها على مدى السنوات الأربع السابقة؛ معطفاً وتنورة أسودين، وتضع برقعاً مُخرّماً مُزيّناً، وتحمل بيدها حقيبة سوداء من جلد الثعبان. كان ثلج خفيف قد بدأ يهطل ويُدوِّم حولها، ثم يستقر برفق على الأرض. خشيتُ أنْ أقترب كثيراً منها، ولكن عندما سمعت وقع خُطاي التفتت. كانت عيناها حمراوين بلون الدم. حدّقتْ إليّ ثم انفجرت بالبكاء.

لم تكن لديّ أية ملابس سوداء اللون في خزانة ملابسي لأرتدي

في ذكرى خالي مُصيِّب، فارتديت ثوباً بلون أزرق قاتم. وفي منزل عمتي توران كان هناك بحرٌ متلاطم من النساء المتشحات بالسواد. كان ذلك اليوم السادس بعد وفاة خالي، وهذا التجمُّع يُصادف عشيّة اليوم الختامي في أسبوع الحِداد الطويل. وكنتُ أنا، وأمي، وكاتي نزور المنزل في كل يوم من أيام الأسبوع المنصرم، كما تقتضي التقاليد في إيران. وبقيَ والدي في المنزل مع أخته طوال الشهر، ليواسيها في حزنها.

كانت قد وُضِعَتْ صورة فوتوغرافية تبيِّن خالي يُدخن غليوناً أمام الباب يتوسّط إكليلاً من الورد. كان قد توفي من هبوط في القلب في نور آباد. وقد حضر زملاؤه الملكيون، الذين لم يهربوا ونجوا من ثورة غضب الثوريين الحاقدة. العائلة كلها كانت هناك. الذين نعرفهم والذين لا نعرفهم. كان هناك رجل عجوز محترم يحمل عصا من الخيزران ويرتدي بذلة رسمية واقفاً بجوار والدي وإخوة خالي، يُحيّون الضيوف. سألتُ "مَنْ ذاك؟". همستْ أختي في أُذني "ذاك هو السيد وزيري، عم زميل الخال مُصيّب. لم يكن قد تلقّى راتبه منذ خمس سنوات، وينتظر أنْ يتسلّمه من الأمير وليّ العهد".

كانت ابنتا عمتي، ماهتا وغيتا، سيدتين مُحترمتين، تحييان وتُقبّلان المُعزّين بوجهين رصينين. كانت غيتا قد تزوجت في العام السابق، وماهتا أنهت مرحلة الدراسة الثانوية. كانتا تعرفان كيف تُملّحان الخيار كما يجب وكيف تهبطان الدَرَج بأناقة وكيف تضعان ساقاً على ساق بجمال. وتدرّبتا على المشي وهما توازنان مجموعة من الكتب على رأسيهما. لقد نشأتا لتكونا من أهل البلاط، لكنَّ أيام البلاط الملكي

ولّتْ وانتهتْ. ماهتا، بوجهها الأبيض، كانت دائماً تقول كأنها دلالة إنها ستتزوج من ابن الشاه. ولكن أين هو رضا، ابن الشاه، اليوم؟ أكان يُفكر فينا؟ قبّلت ماهتا كاتي وقبّلتني، ومن ثم قالت "الأطفال مكانهم في الغرفة الخلفية".

في كل يوم قمنا فيه بالزيارة طوال ذلك الأسبوع، كان الأطفال كلهم يُحشرون في الغرفة الخلفية نفسها. فإذا غامرتُ بالخروج لأتكلّم مع أمي أو أبي، تستوقفني ماهتا وغيتا وتُعيدانني إلى هناك. كان الضجر والملل ينالان مني وأنا أراقب بيتا، ابنة خالتي الصغرى، تلعب بدمية تشبه في نظري مجموعة أدوات زينة مُخصصة لدمية باربي. وعندما كنتُ في مثل سنها، كنتُ أيضاً أحمل دمى باربي وأنقلها من غرفة إلى أخرى داخل سلّة زرقاء، سعيدة أحكي لنفسي حكايات. وكان ابن عمي البدين أوميد، ذو البطن المتدلي، قانعاً بكل الوجبات التي ترد من مطعم سارو. كان يغرز أسنانه في الدجاجة ويطلب منا نحن الفتيات النحيلات أنْ نعطيه ما بقي لدينا.

وفجأةً تذكّرتُ شيئاً وتسللتُ من جديد إلى الجهة الأمامية. كانت الأضواء كلها مُطفأة والمُقرئ يُرتّل استباقاً لحلول اليوم السابع بعد وفاة خالي. تعثّرت خلال الفوضى، وأنا أدوس أقدام النساء الباكيات.

"اليوم عيد مولدي."

قالت جدتي بصوت خافت، "ماذا؟"

قلت من جديد، وأنا أشدّ صوتي، "إنه عيد مولدي."

عندما كان المُرتّل يصل إلى آيات حسّاسة فيها كلمة "والد" أو "يتامى" يزداد الأنين. كنا في السادس عشر من شهر كانون الثاني، ومن

جديد نسيني الجميع. تمخّطتْ جدّتي وهمستْ "كل عام وأنت بخير، ولكن في الواقع، إنَّ خالك ميت."

***

"عزيزتي زاري، هذه أغراض مصيِّب. لا أعرف أحداً يستطيع أنْ يستفيد منها. إذا كنتِ تعرفين أحداً في حاجة إليها، خُذيها كإحسان عن روح مُصيّب". كانت زوجة خالي الأرملة تعدّ المنزل استعداداً للانتقال إلى شقّة أصغر حجماً في زقاق محمّدية. كان في منزلهم الكبير القديم في شارع فيريشته قبو دافئ، مزوَّد بسجاد يصلح مخبأً مثالياً إذا أردنا أنْ نلعب ويصلح فناءً قديماً تنمو فيه شجيرات الياسمين حول جذع شجرة صنوبر. لكن لم أحبّ صالونهم؛ كان مُعتماً بفعل ستائر المخمل السميكة. حتى مجرّد التفكير فيه كان يجلب لي الكوابيس.

بعد وجبات عشاء يوم الجمعة، كانت عمتي تستحضر الأرواح. وكان والدي يُسميها "توران، طاردة الأشباح". وتقول إنَّ الأرواح في أمسيات أيام الجمعة تكون حرة. كانت تمدّ صفيحة من الورق عليها رسوم وكتابات على طاولة صغيرة. يبدو أنها كانت نوعاً من الرُقيّة لاستحضار الأرواح. ثم تُطفئ المصابيح وضوء الشمعة، وتُرسل ماهتا الأطفال إلى الغرفة الخلفية. ونسمع صوت عمتي القوي والهادئ "أيتها الروح الموجودة هنا في هذه الغرفة، السلام عليك. أيتها الروح الموجودة هنا في هذه الغرفة، أعطينا إشارة من فضلك."

ونخرج متسللين لنتفرّج من خلف باب الصالون، ولكن عندما تبدأ أكواب الشاي بالاهتزاز على الطاولة، يتجمّد الدم في عروقي،

وأركضُ عائدة قبل أنْ تمثُل الروح أمام عينيّ.

أخبرنا والدي أنَّ زوجة خالي ستنتقل لأنَّ المنزل لم يعد آمناً بعد رحيل الخال مُصيّب – أنهم خائفون من اللصوص. لكنَّ عمتي أخبرتْ أمي وأنا أنها سمعتْ وقع حوافر الجن وأنهم في أثناء الليل سمعوا قرقعة الصناديق الزجاجية صادرة عن الصالون.

لم أبتلع هذا الكلام.

سألتُ "لماذا؟ هل الأرواح التي استحضرتها ما زالت في المنزل؟"

ضيَّقتْ عمتي عينيها وقالت "حتى الأرواح تسكن المنازل. ألم تسمعي عن الأرواح الشريرة؟ لا يمكنكِ مجادلتها. ثم إنَّ هذا المنزل له قصّة طويلة."

جحظتْ عيناي من محِجريهما. ماذا لو قبضتْ عليّ روحٌ ذات ليلة من عنقي وأنا في طريقي إلى المرحاض أو لأشرب ماء؟ فماذا أفعل حينئذٍ؟

التفتتْ عمتي إلى أمي. "زارا، أترين شجرة الصنوبر تلك التي في الفناء؟ قبل ثلاثين عاماً شنقَ صبيٌّ صغير نفسه منها. كان يعيش هنا مع جدّته."

سألتْ أمي عَرَضاً "مَنْ أخبركِ هذا؟"

"كنتُ أسمع صوت بكاء وأنين آتياً من جهة الفناء في كل ليلة على مدى سنوات عديدة. وجارتي خانم تاشيود تشهد على ذلك. إنها تعلم!"

سألتها "الشجرة التي تلتفّ حول جذعها أغصان الياسمين؟ هناك طفل..."

قاطعتني عمتي، "لهذا السبب بالضبط تنجذب الأرواح إلى هذا المنزل"، وأشارتْ إلى كتاب ضخم على الطاولة عنوانه "**مُخاطبة عالم الأرواح**" يظهر على غلافه شكل مُخيف. ثم تابعت عمتي كلامها بحماسة "أريد أنْ أتواصل معها. على مدى ثلاثين ليلة يجب الإمساك بقلم وضغط رأسه على صفيحة من الورق مع إغماض العينين والتركيز. ثم يمكن طرح الأسئلة، وسوف تبدأ اليد بالتحرُّك من تلقاء ذاتها، تقودها الأرواح، وهي التي ستُعطي الجواب"، ثم غمزت لي بعينها وقالت "إنَّ ابن عمتك بيتا يقرأ أيضاً هذا الكتاب"، وابتسمت، ورأيتُ فمها يفترّ عن أسنانها الحادة، المُلبّسة بالفضة.

عندما وصلنا إلى المنزل، بدأتْ أمي تفرز أغراض خالي. سألتها "ماما، هل عمتي توران تقول الحقيقة؟"

"حول ماذا؟"

"حول الأرواح التي تسكن الخزانات في منزلهم..."

قاطعتني أمي. "إنَّ عمتك مجنونة قليلاً"، وأخرجت حذاءً من الجلد ملفوفاً بقطعة قماش صفراء وراحت تُحدِّق إليها. "هذا الحذاء، هو الحذاء الذي..."

ربيع عام 1999

"هل كنت تعرف خالي؟ السيد مُصيّب وفائي؟ كان خطّاط والدك الشخصي"

كنتُ في الولايات المتحدة، في ولاية فرجينيا، أحاور رضا بهلوي. وكان ذلك بالنسبة إليّ أهمّ سؤال في العالم. وأنا طفلة، وقفتُ أمام

صورته الفوتوغرافية في متحف القصر في سعد آباد وسألت "هل تتذكرنا؟". في الصورة، كان رضا صبياً صغيراً يلبس بنطلوناً قصيراً ويقفُ أمام سيارته الدمية في الحدائق. واليوم هناك شاب يرتدي قميصاً أبيض اللون مع صف طويل من الأزرار يجلس قبالتي. لقد انتظرتُ سنين عديدة وقطعتُ مسافة شاسعة من أجل هذه اللحظة. وانتظرت طويلاً من أجل الحصول على جوابه. ألا ينبغي أنْ يكون هناك مَنْ لم ينسنا؟

حدَّقَ رضا بأدب إلى يديه وحاول أنْ يُعطي جواباً صادقاً. "نعم، نعم، أنا فعلاً أتذكّر شيئاً. ولكن لا أتذكّر وجهه بوضوح"

ضغطت زر جهاز التسجيل وبدأتُ حواري لصحيفتي. وفي اليوم التالي في نيويورك وضعتُ صورة فوتوغرافية جديدة لرضا بهلوي داخل مُغلَّف لأرسلها إلى أمي كتبتُ عليها: "إلى كل الذين انتظروا. إلى خالي مصيِّب وحذاء البُنّي المُنتظِر. إلى والدي الذي يرقد بسلام في القسم رقم سبعين في مقبرة "جنة الزهراء"، في انتظار سقوط حكم الملالي. إلى خالي الذي مات وهو يتألّم على مطلع الدَرَج المؤدي إلى السطح، وقد أحرقت عينيه أشعةُ الشمس. إلى أولئك الذين لم يتمكنوا من إخبارنا متى ستنتهي تلك الأيام السوداء. إلى طفولتي التي أمضيتُها في الأمل والتطلّع. ويا أمي، إلى شبابك، المُترع بالندم. هذا هو رضا بهلوي اليوم."

الفصل الرابع

فصول صيف الخوخ المنعشة

خريف عام 1999

هذه الغرفة لم تكن قَدَرَك
عندما كنت عاشقة
والنافذة وطَيور السنونو
في فصول صيف الخوخ المنعشة.

قَدَرك في شهر آب شبح
وكتابٌ على رُكبتيّ طفولتك.

ماندانا صادقي

وقفتُ أمام المرآة أُغمغمُ أبيات قصيدة من تأليف صديقتي ماندانا. كانت قد ألّفت قصيدة "كامليا مغلولة" لأجلي أثناء وجودي في السجن وأرسلتها بالبريد إلى أمي قبل شهرَين. كانت أول شيء سلّمته

إليّ أمي فور عودتي إلى المنزل. فطوال مرحلة مراهقتنا، كنا نذهب أنا وماندانا لحضور مهرجانات الشِعر في المُدن المُحيطة بإيران. كانت من عبدان، في جنوب إيران، وكنا قد تقابلنا عام 1999 في أمسيات الشِعر والقصة القصيرة التي يُقيمها "نادي الأدب الإبداعي والتطوُّر الفكري عند الأطفال والفتيان في مدينة مشهد". كنتُ قد وضعت طبقة كثيفة من ظلال العين الخضراء اللون. كان ذلك اللون يُناسبني، وفتحتُ علبة أحمر الشِفاه شانيل. كان وجهي شاحباً. فوضعتُ ماسكارا على رموشي وأحمر شِفاه على شفتيّ. رحتُ أنشد أبيات قصيدتها لنفسي: "**قَدَرِكِ في شهر آب شبحٌ / مع كتاب على رُكبتيّ طفولتك...**".

في قرارة نفسي قلتُ لماندانا "إنني أتذكّر تلك الطفلة التي تضع الكتاب على رُكبتيها. واليوم أنا ذاهبة، من جديد، إلى "نادي الأدب الإبداعي..."، ولكن ليس لألقي شِعراً. في صباح ذلك اليوم، رنَّ جرس الهاتف، فرفعت السماعة. قال صوتٌ مألوف، ثابت ومتوازن "السلام عليكم. لا تنسي – الساعة الواحدة من بعد ظهيرة هذا اليوم، في النادي"، ثم صدرت نغمة انقطاع الاتصال من جهاز الهاتف الذي أحمل بيدي.

كنتُ قد غادرتُ السجن في الأمس القريب، أبدو كوحشٍ كثيف الشَعر – نما شَعر حاجبيّ حتى أضحى كما كان وأنا تلميذة في الابتدائي، بينما فقدتُ نصف شعر رأسي. وكان وجهي مكسواً بالبقع الحمراء، ولم يعُد أيٌّ من ملابسي يُناسبني. في الحقيقة كان وزني قد ازداد وفقدتُ عضلاتي، من طول الجلوس وحدي كل يوم في زنزانتي. وتوجهت مباشرة إلى مُصففة الشعر مع أمي. لم تُرِد أن تعرضني وأنا

في تلك الحالة على أي من الضيوف الذين يمكن أن يأتونا. صرخت فتيات فريق صالون التجميل عندما رأينني لكنهنّ بعد ذلك حاولن أنْ يتظاهرن بأني لم أتغيَّر كثيراً. وبَكين بمزيج من السعادة وعدم التصديق ولم تفهم الزبونات الأخريات سبب ذلك الانفجار العاطفي. ولكنْ بعد ساعتين من الجهد المسعور الذي بذلته الخبيرات، لم يطرأ على مظهري إلا القليل من التحسُّن.

في اليوم السابق لإطلاق سراحي كان المُستجوب قد جاء لكي يُحدد "مواعيدنا" في الخارج. ومن قبيل توجيه إنذاره إليّ: سوف يُطلَق سراحي شريطة أنْ أوقِّع على إقرار بالتوبة وعلى قبول التجسُّس لمصلحة وزارة المخابرات. وخُيِّل إليّ أنه دفعني إلى وضع توقيعي آلاف المرات. وفي أثناء تذكيري بمواعيدنا، كنتُ أكتفي بهزّ رأسي موافقة. كنتُ أحترق من الداخل. وكالمعتاد، أجلسوني ووجهي بعيد عنه، معصوبة العينين. لكنه استطاع أنْ يرى يديّ وأنا أوقّع.

"عظيم. سأراك في يوم بعد غد. لا تنسي أنْ تُواظبي على حُسن ارتداء الحجاب وينبغي حتماً أنْ تأتي وأنتِ تضعين غطاء الرأس"

"عندما أذهب إلى الوزارة لِمن سأقول أني قادمة لأقابل؟"

قال، بنبرة ساخرة مُحاكية "ومَنْ تحدَّثَ عن وزارة المخابرات؟"

أجبتُ بخنوع "في أي مكان تشاء". حافظت على هدوء نبرة صوتي، متظاهرة بأني مُشوّشة. وقد كنتُ كذلك فعلاً - توقّعتُ أنْ يُطلَب مني أنْ أُثبت صدقي وأنَّ المكان الأول الذي سأُثبت فيه حضوري سيكون المكتب المركزي لوزارة المخابرات. ووضعتُ لنفسي دوراً تمثيلياً أؤدّيه، وقلتُ لنفسي إنَّ عليّ أنْ أحافظ على تماسكي

إلى أنْ أتحرّر حقاً. لقد كانت حريتي تعني لي أكثر من مجرّد إطلاق سراح مشروط من سجن التوحيد. آمنتُ بأنَّ في استطاعتي أنْ أواصلَ بطريقةٍ ما لعب الدور إلى أنْ أعود من جديد صحافية حرّة، إلى أنْ أتمكّن من العيش بحرية بعيداً عن تهديد حياتي وحياة أسرتي. وكان تظاهري بأني عاشقة قد تمخّضَ عن حبٍ حقيقيّ. في قرارتي، لم أكن مستعدة للتخلّي عن الدور. لم أرغب في أنْ أتحوّل إلى جاسوسة، أنْ أنتقد وأتقصّى المعلومات عن زملائي. شعرتُ بالاشمئزاز لمجرد التفكير في هذا، ومع ذلك وافقتُ على كل شيء. وافقتُ على ألا أكون "نفسي". كنتُ أذوب هياماً لدى سماع رنين صوت مُستجوبي. تركته يُحوّلني إلى شخص جديد، شخص أرادني أنْ أكون: جندياً ينتظر تلقّي أوامر قائده.

ابتسم بتكلُّف. "هل نادي الأدب الإبداعي يسير سيراً حسناً؟"

هل كان يسخر مني؟ كنتُ أعلم أنه أراد أنْ يسمع صوتي من جديد في الخارج، ليتعرَّف إلى موقفي منه بعد أنْ أُطلقَ سراحي. وكنتُ أعلم أنَّ كلاً منا ينتظر أنْ يواجه الآخر للمرة الأولى، أن ينظر في عينيْ الآخر. وامتزجت الرغبة عندي بالخوف. كنتُ خائفة مما يُخبئه القدر لي، من المدى والهدف اللذين أستطيع أن أصل إليهما مع هذا الرجل، ومن مقدرتي على التحكّم في الوضع. ولكن على الرغم من هذه المخاوف، لم أرغب في التفكير فيها. وأزحتها جانباً.

"في النادي، اقتربي من موقف الخفير وقولي إنكِ خانم زرافشان. أبقي وجهك مُغطّى بإحكام. وهم سيدلّونك على الطريق. إلى اللقاء. كوني ذكيّة، وعندما تغادرين هذا المكان، فكّري دائماً في عصابة العينين تلك"

لقد كان المبنى الذي أمضيتُ فيه سنوات مُراهقتي كلها... غرفة مكتب أساتذة مادة الأدب... قراءاتنا للشِعر... كيف أصبح هذا المكان الموقع السريّ لوزارة المخابرات؟

توقفت سيارة الأجرة التي استدعيتها منتظرة. الفتاة التي نظرتْ إليّ من المرآة اليوم لم تكن هي نفسها الفتاة كنتُ عليها أمس. كان وجهاً جديداً، لكني رفضته. ألقيتُ نظرة واحدة أخيرة إلى نفسي، ثم أخذتُ نَفَساً عميقاً، وأقحمتُ غطاء الرأس داخل حقيبتي. لم يكن في استطاعتي أنْ أخرج وغطاء أسود اللون على رأسي أمام جيراني. ولجتُ سيارة البايكان وأنا مُضمَّخة بالعطر. في شارع الوزارة، أخرجتُ غطاء الرأس وغمغمتُ بعبارة للسائق – "الشجار في مكاتب الحكومة" – وثبّتّه بإحكام بحيث لم تعد تظهر إلا عيناي. ارتعشت لمجرد التفكير في الالتقاء مُصادفة بأيّ من الشعراء المُبدعين الذين كانوا أساتذتي في مادة الأدب – السيد شعباني أو السيد إبراهيمي. إذا قابلت عيونهم، فسوف أتمكن من مواصلة أداء دوري.

اجتزتُ الجادة وتوقفتُ أمام موقف الخفير. "اسمي زرافشان. لديّ موعد الساعة الواحدة". أدركتُ بدهشة تامة أنَّه حتى الحرس كانوا يتوقعون زيارتي. أشاروا إليّ نحو المبنى وإلى مكتب الأمن داخله، ولكن كان في استطاعتي أنْ أعرف الطريق وأنا مُغمضة العينين؛ كنتُ قد مشيت على هذا الممر مئات المرات في طريقي إلى صفي. ولكن ماذا أفعل هنا اليوم؟ في مكتب الأمن، تفحّصَ شابٌ مُلتحٍ وجهي، وأنا مُطرقة رأسي وأنظر بدهشة إلى صندله البلاستيك. لم تخطُر في بالي إلا

الأمسيات الممتعة الضائعة عندما كنتُ أقطع هذا الرواق من قبل.

"ادخلي من فضلك"

أغلقت الباب خلفي. كان مُبطّناً بكثافة بالجلد من كلا الجانبين، بحيث لا ينفذ من خلاله أي صوت. كان قلبي يخفق بعنف. كان واقفاً يواجه النافذة ويُعطي ظهره لي. قلت "سلام"، فالتفت.

كنتُ قد كشفت عن وجهي؛ ولا يزال الغطاء على رأسي، وكنتُ أضع فوقه وشاحاً من الحرير الأسود وأرتدي معطفاً رمادياً، كنتُ قد حللتُ الزرّين العُلويين منه. أخذ يُحدّقُ إليّ مصعوقاً دون أنْ يتفوه بأية كلمة. وفجأةً، بدأ يصرخ في وجهي، "ألا تخجلين من المجيء إلى هنا وأنتِ متبرّجة هكذا؟ ظننتُ أنكِ أصبحتِ من بني آدم! بره! بره يا شيطانة!" وتابع، ولا زال يصرخ، "يا الله، ماذا سيقول الرجل الواقف في الخارج، ماذا سيظن وأنتِ تضعين كل هذه المساحيق على وجهك؟"

ذُهلت. سار خلفي وفتح الباب وقال شيئاً للرجل القميء ذي الصندل. ثم نبح في وجهي حانقاً أنْ أذهب وأغسل وجهي.

في الحمّام فتحت حنفية الماء البارد، العذب والمنعش، وتأمّلتُ نفسي في المرآة، وبكيتُ على غلطتي الحمقاء. مسحت التظليل الأخضر عن عيني بمنشفة ورقية، لكنه رفض أنْ يزول، وكان اللون الأخضر قد وصل حتى حاجبيّ. لكني بذلت أقصى جهدي لأزيله وأنزلتُ غطاء الرأس إلى الخلف. ولدى عبوري من أمام الخفير من جديد، شعرتُ أنَّه ربما يضحك. لكني لم أنظر – قلت لنفسي لا يهمّني.

قرعت الباب بحذر قبل أنْ أُدير أكرة الباب. كان قد فتح النافذة ويُهوّي الجو مُستعيناً بصحيفة. قال إنه يكاد يختنق من رائحة العطرِ

الكريهة، وإنه لوّثَ كامل المبنى برائحته التي تُصيبُ بالسفلس. وأشار إليّ بغضب كي أجلس. لم أدرِ كيف أتصرّف – ليس هذا هو المشهد الذي تخيّلت. ورحت أكرر اعتذاري، قائلة إني آسفة لجهلي بالأسلوب اللائق لارتداء الملابس. قلتُ له إني أردتُ أنْ أبدو له نضرة ومُستبشرة، لا مُبتئسة. لكنَّ أعذاري لم تكن كافية لتهدئته. كان غاضباً، وقال "للوهلة الأولى، ظننتُ أنَّ الشيطان تمثَّلَ أمامي عند الباب. حسبتُ أني أحسنتُ تدريبك. لكنكِ فشلتِ"

كان كلانا يشعر بالمرارة. كانت بداية فظيعة؛ أخذتُ أبكي وأستجدي غفرانه. قال لي، بنزق "هذا يكفي اليوم، يُستحسن أنْ تذهبي. اذهبي! سأستدعيك غداً. وإياك أنْ تظهري بهذه الصورة مرة أخرى. واضح؟". أومأتُ برأسي إيجاباً وقفزتُ بحركة عصبية كأني أرنب، ثم ذهبتُ إلى المنزل لأخطط لحركتي التالية.

الفصل الخامس

مدام كامليا

1986–1982

كنا في حالة حرب. وقد أُعلِنَت إيران دولة خارجة عن القانون. وصدر حظر على الاستيراد من العديد من المصادر، و لم يكن الإنتاج المحلي كافياً. كان هناك نقص في كل شيء بدءاً بالطعام والملابس، والوقود، وحتى أدوات القرطاسية. وجرى ترشيد العديد من الأطعمة، وأصدرتْ الحكومة كُتيّباً صغيراً أوراقه بيضاء يوزَّع على كل عائلة في كل حيّ. لم تكن القرطاسية تتوفر إلا في السوق السوداء، ولكن كان في استطاعة التلاميذ أنْ يُحضِروا كُتيبات الخدمة الطوعية إلى الجمعية التعاونية ويتلقّوا دفاتر، وأقلام حبر، وأقلام رصاص، وممَاحي مقابل سعر مُحدد وضعته الحكومة. وكان لدفاتر الجمعية التعاونية أغلفة من الورق الرقيق، وأوراقها خشنة. ويبدو خط الكتابة عليها مُبقّعاً ومزدحماً بين الأسطر. باختصار، كانت قبيحة، و لم أتمكن من أنْ أخلق

داخلي أية رغبة في الكتابة عليها. ولكن كانت تكفي نظرة واحدة من والدي حتى يتم الأمر – المهم كان الاهتمام بالواجب المدرسي. وكان والدي يقول "إنَّ الكثير من التلاميذ لا يستطيعون حتى أنْ يتحمّلوا تكاليف هذه الدفاتر."

حالما كانت تصدر قسائم الشراء الجديدة، يهرع الجميع للوقوف في الطابور الطويل. وحتى مع وجود الترشيد، كانت المؤن نادرة، وإذا ما فرغت الجمعية التعاونية منها، يُضطر المرء إلى اللجوء إلى السوق السوداء. لكنَّ عائلتي كانت من إحدى النواحي محظوظة جداً: فمصنع الحليب النقي الذي كان والدي يعمل فيه كان يُنتج منتجات الألبان. ومن أجل الحصول على زجاجة من الحليب، كان الناس يقفون طابوراً منذ الساعة الخامسة صباحاً، وحتى حينئذ كانت مُخصصة للأطفال الصغار جداً أو للعجائز. وكان الزبد يُعتَبَر رفاهية، ومعظم الناس لم يكونوا حتى يرون لونه على مدى أشهر. وكان لدينا من الزبد، والكريما، والحليب بقدر ما تشتهي النفوس. كان جيراننا يأتون لكي يعتمدوا على والدي في الحصول عليه، وكان يكفي بضعة ألواح إضافية من الزبد أو من عبوات الحليب لتزيد شعبيتنا.

كنتُ أقف مع صديقاتي في الطابور أمام دكان الفرّان بعد انتهاء الدوام المدرسي. لم يكن هناك ترشيد على الخبز، لكنَّ واجب الأفران الأول كان إنتاج ما يكفي من الخبز لإرساله إلى الجنود على الجبهة. أما المدنيون فيُضطرون إلى الانتظار ساعات من أجل أنْ يحصل كل شخص على ما لا يزيد عن عشرين قطعة من الخبز الرقيق. وكان الطعام الإيراني دائماً يُقدَّم مع الخبز الرقيق، بحيث لم يكن يكفي إلا بضعة أيام

لعائلة نموذجية تتألّف من أربعة أشخاص. وفي المعتاد، كان عدد من أفراد العائلة الواحدة ينتظرون معاً من أجل شراء ما يكفي من الخبز ليدوم أسبوعاً. كانت صديقتي ماهتاب تُحافظ على مكاني في الطابور ريثما أهرع إلى المنزل وأُخبر أمي وأمها عن موعد حلول دورنا. فتعطيني أمي ورقة نقدية بقيمة عشرين توماناً (ما يُعادل مئتي ريال) تحسُّباً إذا لم تتمكن من الوصول إلى هناك في الوقت المُحدد. كنا نقرأ دروسنا ونحن واقفات في الطابور نأكل بنهم الخوخ المُجفَّف[1] الذي نشتريه من الباعة الجوالين، والذي كان، حسب تعبير أمي، "أشد أنواع الأطعمة قذارة في العالم". كنا نُصغي إلى الآخرين وهم يتهامسون بتهوُّر حول زوال النظام الواضح وحول أعداد موتى الحرب والأنباء التي تذيعها محطات الإذاعة الأجنبية التي تبثّ باللغة الفارسية. وراوحت الشائعات بين ارتفاع أسعار السُكّر والملبّس والأمراض التي يُصاب بها قادة الحكومة.

كان الناس يخلعون ألقاباً على القادة كلهم. أكبر هاشمي رفسنجاني كان يُعرَف بلقب أكبر سمكة قرش، لأنه لم يكن يُربي لحية، وآية الله مُنتظري، الذي كان من المتوقع أنْ يخلُف الخميني سُمّيَ بالهرّ، وابن الخميني كان أحمد البكّاء لأنه في أثناء اجتماع الخميني بالناس كان يقف جانباً يبدو عليه الحزن. وكان علي خامنئي قد فقد إحدى يديه عندما تعرَّضت مكاتب الحزب الجمهوري للقصف. لكنَّ الناس كانوا يشتكون فقط من طابور الخبز، ولا يُظهرون أحزانهم إلا للأصدقاء.

1 – المقصود هنا ما يُسمّى في البلاد العربية بقمر الدين: المشمش المسحوق والمُجفف ويباع بمقادير تُلف بورق البلاستيك. – المترجم

وعندما يلفّون خبزهم الساخن بمناديلهم وينطلقون داخل منعطفات ومنحنيات الأزقة، وهم يلتفتون حولهم بتوتّر ليتأكدوا من أنه لا توجد آذانٌ عدائية لـ" الأخوات " ومجلس الإرشاد تُصغي إليهم.

كانوا يُراقبوننا زقاقاً بعد زقاق، وأينما ذهبنا، وكان في إمكانهم أنْ يظهروا فجأةً في مراكز التسوُّق، وأمام مدارس الأولاد ومدارس البنات، وحتى في الحفلات الخاصة ويتدخلون في الشؤون العائلية. وقد قامت الحكومة بالتشويش على بثّ الإذاعات الأجنبية بالفارسية بضجيج يثقب الآذان، أما ما تذيعه الإذاعة الإيرانية الداخلية فكان حزمة من الأكاذيب والدعاوى السياسية، لذلك كنا نتجاهل التشويش ونصغي في كل ليلة عند الساعة الثامنة إلى إذاعة إسرائيل. فنلجأ بحذر إلى الصالون، المكان الذي لا يتسرب منه الصوت إلى الخارج إلا قليلاً. ولكن كانت هناك آذانٌ تصيخ السمع في قلب الليل، تستمع إلى الموسيقى المألوفة من خلال شقوق النوافذ والأبواب، وفجأةً ترتسم ظلالٌ على جدران الفناء.

عندما كنا نقيم حفلات، كان والدي يلقي نظرة إلى الشارع بعد كل نصف ساعة ليتيقّن من أنَّ "أخوات زينب وإخوتها" لا يستعدون لشن غارة على منزلنا. وكنا أنا وأمي وأختي نُبقي رؤوسنا مغطّاة وعلى أهبة الاستعداد لارتداء المعاطف على الفور عندما تقتضي الحاجة. كانت كلمتا "لقد وصلوا" تجعل العائلة بأكملها تضطرب، ويهرع الضيوف نحو باب الخروج. ومَنْ كانوا يشربون الخمر يرشّون ماء العطر حول أفواههم، وبسرعة يتباعد الرجال عن النساء. ولكن لم يكن يتوفر ما يكفي من الوقت للتخلّص من الدليل الدامغ. فرجال المخابرات

المسلّحون كانوا يندفعون إلى الداخل وتجمع أخوات زينب النساء قبل أنْ يتمكّنّ من رمي أوراق اللعب المُحرّمة، والكحول، والتسجيلات الموسيقية، وأشرطة الفيديو - وكل ما يُزكّي صرامة التُهم الموجّهة إليهم في المحكمة. وكانت التجمعات العائلية تُفرَّق باستمرار، لكنَّ الأمر يكون سيئاً حقاً إذا أُلقيَ القبض على مجموعات متنوعة من الشبّان. والمراهقون الذين يُقبَض عليهم وهم يشربون الخمر كانوا في بعض الحالات يُجلَدون علناً، وتُرسل الفتيات إلى المستشفى الحكومي للتثبُّت من عُذريتهنّ. والفتيات اللائي يرسبن في هذا الامتحان يُجبَرن على قبول خطبة الفتيان الذين يُضبطن معهم. وكل مَنْ يتم القبض عليه يُطرد من مدرسته أو جامعته، وإمعاناً في المذلّة، تُحلَق رؤوس الفتيان تماماً بموسى كهربائي.

في منتصف عام 1981 أصبح ارتداء الحجاب إجبارياً للنساء. ووضع أصحاب الدكاكين لافتات على واجهاتها تقول " إننا نحتفظ بحق رفض خدمة النساء اللائي لا يرتدين الحجاب ". وتظهر سيارات جيب مُهدِّدة تتجول في أرجاء طهران، ترصد الحشمة العلنية. ويقول والدي "إذا لمستنّ أغطية رؤوسكن أمامهم، فسوف تتقابل عيونكم. تظاهرن بأنكنّ لا ترينهم وأنتن في الشارع" أنا أسمّيهم Tripods "ثُلاثيّات القوائم"[1]. وترايبودز هو عنوان سلسلة من روايات الخيال العلمي - مثل "**الجبال البيضاء**"، و"**مدينة الذهب والرصاص**"، و"**بركة النار**". وخلال فترتي طفولتي ومراهقتي لا بد أني قرأتُ هذه الثلاثيّة مئات المرات. وترايبودز هي مخلوقات ثلاثيّة القوائم غايتها تدمير الأرض.

1 - بين الأقواس من وضع المترجم.

وفي القصص، هذه المخلوقات المعدنية المُستبدّة تستعبد البشر بوضع أغطية رأس على رؤوسهم تحولهم إلى أدوات خاضعة لتحكُّم الترايبودز فيها. وهذه القصص ألهمتني خلال سنوات حكم الخميني الكئيبة. ولا أزال أُغمض عينيّ وأندمج في القصة، بينما البطل، الفتى ذو الأربعة عشر عاماً، يهرب ويصل إلى مُقاتلين آخرين في سبيل الحرية في الجبال البيضاء في الشمال. كنتُ أضعُ الكتاب على الأريكة وأحدّقُ خارج نافذة غرفة الجلوس إلى جبال ألبُرز البيضاء شمالي طهران، وأتساءل، "هل يوجد مُقاتلون من أجل الحرية في انتظاري هناك؟"

وتتغيَّر الأسماء الرسمية للترايبودز مع مرور السنين، لكنَّ جوهرها يبقى على حاله. فالفِرق تُسمّى أولاً "يسّرَ الله!"، ثم يتغيَّر الاسم إلى "سلطة تقصّي ومكافحة الرذيلة"، ثم "فرقة مكافحة الرذيلة"، ثم "المُرشِد"، وما إلى ذلك. وتُخبرني أمي أنها اليوم تُسمّى "الرعد". وعلى خلفية سيارتهم الجيب كُتِبَ "4WD" وتعني "رُباعيّة الدفع"، لكنّهم يقولون إنها تعني البلهاء الأربعة (W يعني متسكّع) والذي تُضاجع زوجته رجالاً آخرين (D يعني ديّوث). كان يجلس اثنان من رجال حراس الثورة في المقعد الأمامي من السيارة وتجلس امرأتان في المقعد الخلفي. أحد الحرّاس كان السائق، والآخر كان حارس الأختين. عندما يُبدي الرجال مُقاومة يُقبَض عليهم، والأخ المُرافق يُعجبه ذلك، فيجرّ المُعتَقَل إلى السيارة وفي أثناء ذلك يرفسه. وطبقاً للشريعة الإسلاميّة، لا تستطيع الأختان أنْ تلمسا الرجل الذي لا يمتُّ إليهما بأية صِلة قُربى.

كنا نادراً ما نُغادر المنزل إلا لفترات قصيرة إلى مطعم "إسكان"، وقناطر ميدان الأرجنتين، وسوق سُرخه، وشارع جوردان. وعندما

تظهر السيارات البيضاء المشؤومة، تخفق قلوبنا بقوة في صدورنا، وعلى الرغم من تحذير والدي لنا، تمتد أيدينا بلا وعي إلى أغطية رؤوسنا. وإذا كنا نرتدي ملابس ملوّنة، تحاول كلٌّ منا أنْ تختبئ خلف الأخرى. وتنقضّ الأختان، المتدثرتان بغطاء الرأس، والحجاب، والقفازات السوداء، علينا كالكابوس. وكان من الممكن أنْ تتسامحا مع ظهور طرف من الشعر، أما مع طلاء الأظافر، ومساحيق التجميل، فأبداً. أحياناً كانتا تكتفيان بدموعنا ومناشدتنا ما دامتا لم تعثرا في حقائب أيدينا على أشياء مثل تسجيلات موسيقية أو صور "فاحشة" لنجوم السينما الهوليودية أو لمغنين إيرانيين منفيين، أمثال فاتنة، وموين، أو آندي وفرقة كوروس من لوس أنجلس. ونستجدي غفرانهما ونتذلّل ألف مرة ونحن نُصغي إلى خطابهما عن النيران والجحيم وكيف أنَّ ترك المرأة خصلة من شعرها تظهر للعيان هو ازدراءٌ لدم الشهداء. وإذا أخذونا معهم... يهدر صوت والدي قوياً في أذنيّ "إذا ذهبتْ أيٌّ منكنّ معهما، فلن تعود أبداً إلى المنزل."

عندما كنتُ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، أردنا جميعاً أن نُصبح من البنكس[1] Punks. ولكي أصبح من البنكس كنتُ في حاجة إلى بنطلون له ياقتان سُفليتان مطويتان نحو الأعلى وجورب ذي ألوان مجنونة. وكانت زعيمتنا الروحية في ذلك هي صديقة أختي الأرمنيّة كريستيان. كانت أمها تصنع الفودكا المنزلية التي يشتريها والدي وأصدقاؤه وتُسمّى بالاسم الرمزي "صباقوز" (وهي كلمة مُختلَقة).

1 – البنكس: موضة في ارتداء الملابس الغربية مع أكسسوارات مجنونة وتصفيف الشعر وتلوينه بشكل لافت للنظر، ظهرت في أواخر السبعينيات واستمرت خلال حقبة الثمانينياتّ من القرن الماضي في أميركا والغرب. المترجم

وكانت كريستيان تجيد الرقص على طريقة مايكل جاكسون وأخبرتنا كيف نحصل على صديق حقيقي، كالسرّ المُغري الكامن خلف "تبادُل القُبَل على الطريقة الفرنسية". كتبتُ كلمة "مادونا" و"UB14" (تقصد فرقة UB40) على حافظة أوراقي الصفراء، وكنتُ أتجول في باحة المدرسة مع الإنكليزية بجرأة. وصنعتُ سِواراً من الذهب الزائف من حامل حقيبة يد أمي وأحطتُ به رسغي بجوار ساعتي الكبيرة المستديرة. كنت أسعد أيَّما سعادة " بحمله " وبرؤية الفتيان المارين من أمام المدرسة لي.

كانت طريقتي المفضّلة لقضاء فترات بعد ظهيرة أيام الخميس، عندما ينتهي دوام المدرسة باكراً استعداداً لعطلة يوم الجمعة، هي في زيارة عمي مانوشهر، لأنه يُقيم في أبرد منطقة من طهران. كانت منطقة غيشا مُحاطة بالمحال التجارية، ويقود الفتية سياراتهم المكشوفة جيئة وذهاباً على طول الجادة. وحالما ينهمك والدي وعمي في لعب الطاولة، نبدأ أنا وكاتي بحثّ أمي "قولي! قولي!" وكانت تلك طريقتنا للحصول على إذن أمي بالسماح لنا بالخروج والتمشية أمام الدكاكين. وترافقني أمي إلى الخارج ومن ثم تتحول إلى جلاّد بقولها "ثبّتا غطاءيْ رأسيكما! لست في مزاجٍ يسمح لي بتقبُّل أمر إلقاء القبض عليكما! سيرا أمامي!"

ذات يوم خميس في غيشا كنتُ قد طويت طرفيْ بنطلوني إلى أعلى لأستعرض جوربي ذا الخطوط البراق الألوان الذي كانت ابنة عمي فاريبا قد نسجته لأجلي. ورفعتُ الكُمّين إلى أعلى وحللتُ الأزرار العليا من معطفي، كاشفة عن ألوان بلوزتي الفاقعة. ويتفحّص الشبان

والشابات المارون بنا في الشوارع المزدحمة كلٌ منهم مظهر الآخر، وأحياناً يتبادلون أرقام هواتفهم المحمولة. وفي ذلك اليوم، تذكّرتْ أمي شيئاً عليها شراؤه من صيدلية كيهان، وأخذتنا جميعاً معها. كنتُ كثيرة الحركة ومددتُ رأسي لأراقب حركة المرور المزدحمة تحت الممر المُعلَّق، فتصادف أنْ قابلتْ عيناي عينيْ امرأة تضع غطاء رأس أسود، ثم نظرتُ نحو الأسفل وقرأتُ عبارة "دورية الإرشاد" مكتوبة على كلا جانبيْ سيارتها. فتراجعتُ بسرعة وجلستُ مع أختي وأخي في خلفية الصيدلية، ولكن بعد بضع لحظات كان هناك مَنْ يربت على كتفي. للوهلة الأولى ظننتُ أنها فقط تستدل على الطريق. قلت "عفواً، ارفعي صوتك من فضلك". ثم التفتُّ ونظرتُ إليها. غطاء الرأس، الحجاب، القفاز الأسود! قالت بنبرة آمرة "تعالي معي إلى الخارج"

رحت أئنّ طلباً لأمي. كان الوقت قد فات لتعديل وضع وشاح رأسي، وإعادة طيّ أطراف بنطلوني إلى وضعها، أو لأفعل أيّ شيء آخر. تبعتني أمي، مُحتجّة "لماذا يجب أنْ نذهب إلى الخارج؟". كانت سيارة "دورية الإرشاد" قد توقفت أمام الباب. وترجّلتْ امرأة ثانية وفتحتْ باب السيارة لكي يضعوني داخلها. سألتْ أمي "لماذا؟ ماذا اقترفنا؟". قالت "ألا ترين الحال الذي وضعت ابنتك نفسها فيه علناً؟"، وأشارتْ إلى جوربي وقالت "أيمكن أنْ تخرج من منزلها مرتدية ما هو أشدّ ابتذالاً من هذا؟". تجمّعَ الناس حولنا ليتفرجوا، لكننا كنا نعلم أنَّه لا أحد سيتدخّل لصالحنا.

فجأةً التفتتْ أمي إليّ وصرخت "أنتِ! أنتِ خرجت من المنزل على هذه الصورة دون عِلمي؟"، وأخذتْ تضربني، وهي تزعق في وجهي،

"هذه الفتاة ستقتلني! سوف تُريحونني منها إذا أخذتموها. أنا أعلم أنَّ والدها سوف يحبسها بعد ذلك!"، وبينما هي تصبّ جام غضبها على رأسي جيئة وذهاباً، تحوّلتْ أُختا زينب إلى العمل على إنقاذي من سوء معاملتها لي وتهدئتها. كانت أمي تبكي حين أخذت المرأتان تسألانني ألستُ خجلة من الخروج كأني من "البانك" ولي مثل هذه الأم الصالحة وإنْ كنتُ أعلم أنَّ كلمة "البانك" هي مرادف للقذارة. فتّشتا حقيبتي، ولكن كل ما كان في حوزتي حفنة من القطع النقدية الصغيرة ومرآة جيب. رحتُ أومئ برأسي، مُطرقة الرأس والعينين، وكأني أُعدّلُ من شأن ملابسي وغطاء رأسي. كنتُ أشعر بوخز الإحساس بالخزي وعيون الناس كلها مصوَّبة نحوي. "الآن أصبحت مُحترمة". وأخيراً غادرتا. قالت أمي وكاتي معاً "بلهاء!". بدأتُ أبكي وأتذمّر بمرارة لأنها ضربتني. قرصَتْ أمي ذراعي بشدّة وقالت "نجحت الحيلة، أليس كذلك؟"

***

كان تقليد الاحتفال بـ"أربعاء الوردة الحمراء"[1] العريق مُحرَّماً. لقد أرادت الحكومة الجديدة أنْ تستبدل الثقافة الإيرانية بأخرى إسلاميّة لأنَّ الثقافة الإيرانية اعتُبِرَتْ من بقايا العهد الملكي. أردوا أنْ يمحوا الروابط التي تصِل الناس بماضيهم. وعلى مرّ القرون كان الإيرانيون يُشعلون النيران في يوم الأربعاء الأخير قبل حلول النوروز، أو العام الجديد، ويقفزون من فوقها لكي يرموا بحظوظهم العاثرة لتلتهمها ألسنة اللهب. وبعد

1 — يوم الأربعاء الأخير قبل حلول العام الإيراني الجديد.

ذلك يستطيعون أنْ يبدأوا عامهم الجديد بقلب نقيّ وبفيض من الأمل في المستقبل. وعند غروب يوم الاحتفال ذاك، يغادر الترايبودز قواعدهم ليسيطروا على طهران، ولكن لا شيء يمكن أنْ يردع الناس. وكان جيراننا يُقيمون أكبر الاحتفالات. وكنا أنا وأختي كاتي نمشي في أزقة غيشا بحثاً عن الباعة المتجولين اللذين يُنادون بصوت منخفض "صواريخ! ألعاب نارية!". وينظر الرجل خلفه خشية أنْ يكون هناك رجل شرطة يرتدي ملابس عادية، ثم يسأل بسرعة "كم تريدان؟"، فنشتري عيداناً متلألئة و"قنابل" مصنوعة يدوياً، وأكياساً بلاستيكية مملوءة بالحصى والبارود القابل للاشتعال. ولكي تنفجر تلك القنابل يجب رميها بقوة. وفي اليوم التالي، يمتلئ عمود الحوادث في الصحيفة المحلية بتقارير عن أناسٍ أُصيبوا بالعمى، أو نُسِفَتْ أيديهم، أو حتى قُتِلوا.

ولكي يُخيفنا الفتية، كانوا يرمون القنابل عند أقدامنا، ولكي نُبيِّن أننا لم نخف، نتناول قنابل من أكياسنا ونرميها عليهم في المقابل. أما الحصى الحار فيلسع يديّ ووجنتيّ. وتحترق وجنتاي، ولا يبقى أمامي خيار؛ ويتحول "احتفال أربعاء الوردة الحمراء" إلى معركةٍ يجب أنْ نخوضها. عند الغروب تمتلئ الأزقة الداخلية بالكثير من الدخان بحيث لا يجرؤ حتى الترايبودز على التغلغل داخل تلك السُحب الكثيفة. وينبحون في انتظار أنْ يضربوا. وفي أحد الأعوام، فجّر أحد الصِبية اسمه فريد قنبلة ثمنها جنيه أخافت وحدة الدورية النقّالة التي كانَت تنتظر عند أول زقاق الزنبق، شارعنا الصغير. وبينما كانت ألعابنا النارية تتوهّج عالياً، وصل الدعم من المراكز، وهاجموا. وسرعان ما

فرّ الجميع هاربين داخل أقرب منزل بابه مفتوح. وتُرِك الترايبودز وحدهم بين النيران والركام والرماد المحترق. ولم يقع بين براثنهم إلا المشاهدون القادمون من الحيّ المجاور. وبقينا في أفنية المنازل إلى ما بعد منتصف الليل، نأكل الجوز ونُطلِقَ ما بقي من ألعاب نارية ونرمي القنابل اليدوية على الجدار في الشارع. وبينما كنا نقفز فوق النار، كنتُ أغني أنا وأختي "العالم لنا، والشيطان تعيس... والظلام يشعر بالخجل، والشيطان تعيس."

* * *

كان يُحتفل بعيد الأم في يوم عيد مولد السيدة فاطمة الزهراء، ابنة سيدنا محمد، وفي المدرسة كانوا يوزعون جوائز على الفتيات اللائي يحملن اسم فاطمة، وزهراء، وصدّيقة (وهو اسم آخر تُعرَف به ابنة نبيّنا محمد). وفي عيد الممرضات، وهو عيد مولد أخت الإمام الحُسين، تنال كل مَنْ تحمل اسم زينب في المدرسة جائزة. وبدأتْ برامج الأخبار التي تُبثّ عبر محطة تلفزيون "الصوت والصورة" تخترع تعبيرات مثل "على خُطى زينب" وما شابه. كانت الحكومة تشجِّع الأسماء الإسلامية في وجه سواد الذوق الشائع، لكنها بقيَتْ أسماءً غريبة بالنسبة إلى بنات جيلي. وفي طهران الحديثة والثريّة في سبعينيات القرن الماضي، كان اسم الشخص يدلّ على مستوى تعليمه، ورُقيّه الثقافي، ومعتقداته. والأسماء العربية وذات الطابع الديني كانت قد أضحت قديمة الطراز منذ زمن بعيد، خاصة في المدن الكبرى. وحتى إذا حمل المرء اسماً تقليدياً، فإنه يُخاطَب بدلاً منه باسم حديث. وكلهم لديهم

القصة نفسها: في الليلة السابقة لمولدهم، حلمَت أمهم أو أبوهم أو أحد الأقرباء بأحد أفراد الأسرة النبوية أو الأئمة، وتوقيراً لذلك تقرّر العائلة أنْ تسمّي وليدها باسم ذلك الفرد. لكنهم يظلون يُطلقون على طفلهم الاسم الذي كانوا قد اختاروه قبل ذلك الحلم المُبارَك. فزميلتي في الصف فاطمة تُسمّي نفسها هيلغا، وابنة خالي فاطمة كانت تُسمّى مريم. وجارتنا في الطابق السُفلي كان اسمها رقيّة، لكنّ زوجها يُسميها شهلا، وزميلتي في العمل فرناز انفجرت باكية عندما تبيَّنَ لها مُصادفة أنَّ الاسم المكتوب في بطاقة هويتها هو صدّيقة.

في عام 1979، قررتْ الحكومة الإسلامية الجديدة أنْ تغيِّر الثقافة بالدعاوى السياسية وبالقوة. فحُرِّمَ اختيار أسماء معيَّنة للمواليد الجُدُد. من بينها اسم كامليا. ابتسمتُ بيني وبين نفسي لفكرةِ أنه لن تكون هناك أية فتاة اسمها كامليا بعد اليوم. كانت المرة الوحيدة التي أستمتع فيها بتلك الإجراءات المتطرفة. كان أخي الصغير قد وُلِدَ في شهر آذار من عام 1982، واضطرّ والدي إلى ملء جيوب الموظف الرسمي بمبلغ ألف تومان قبل أنْ يتمكن من استخراج بطاقة هوية باسم كاي خُسرو افتخاري فرد. وكاي خُسرو كان شاهاً في إيران القديمة. وعندما كبُر كاي خُسرو، أصبح يُشبه حقاً ذلك الحاكم من العصر القديم اعتماداً على الصور الواردة في كتاب " الشاهنامة ". كان يتّصف، بحاجبيه الكثّين، اللذين يتّصلان معاً في المنتصف، وعينيه السوداوين وبشرته الزيتونية، بهيئة ملك رصين، وأبيّ.

يعلم الله كم مرة لاحقنا كاي خُسرو، أنا وكاتي، بسيفه الدمية البلاستيكي. كان يقف على كرسيّ أو على الطاولة، صارخاً "إنَّ الملك

كاي خُسرو يُعاقبكما أيتها الفتاتان الصغيرتان!". بعد ذلك الإعلان يتّخذُ وِقفةً مسرحيّة، ملوّحاً بسيفه قبل أنْ يقفز ويُلاحقنا. كنتُ أكبره في السن بتسعة أعوام وكانت كاتي تكبره باثني عشر عاماً، لكننا كنا عاجزتين أمام ضربات سيفه البلاستيكي. كنا نركض في أرجاء غرفة الجلوس نهتف لأمنا كي "توقِف ذلك الملك المجنون!". وعندما أصبح أكبر في السن، صار العديد من أصدقاء كاي خُسرو يُطلقون عليه اسم "خُسرو" اختصاراً ، لكنَّ عائلتي كانت دائماً تُناديه باسمه الملكي الكامل. لقد أردنا أنْ يُميِّز الناس شجاعة اختيار والدي في مكتب تسجيل الأسماء.

في غرفة الدرس وأنا في الصف الثالث في مدرسة "نزهة الإسلام" للبنات، كانت هناك تلميذتان كانت معلِّمة من هيئة أمور التربية تُحب أنْ تعذّبهما: هما كامليا انتخابي فرد وساتجين ياغماي. ذنبي هو اسمي الغربي وذنب ساتجين هو المعنى اللا إسلامي لاسمها. في بداية العام الدراسي، كانت مدرسات هيئة "أمور التربية" تفتح دفاتر تسجيل الحضور لكي تُقدّم كل طالبة وتُذكّرها بوجوب المُحافظة على لبس الحجاب وعلى أداء الصلوات. وفي المدارس كانت الصلاة الجماعية أمراً إلزامياً، وكنَّ يخفضن علاماتنا في الانضباط والثقافة الدينية كلما غبنا عن الحضور أو أسأنا السلوك في أثناء الصلوات. وكنتُ أكذب أُسوة بالأخريات، أنحني وأقف مستقيمة وأتلو الصلوات. كان التظاهُر والكذب أول شيئين تعلمناهما في المدرسة، بالإضافة إلى أخذ جانب منتهى الحذر في طرح أسئلتنا وفي الأجوبة التي نُعطي. إنَّ اسمي يبدأ بحرف الألف، ولذلك كان يُدرَج في أول قائمة مُناداة الأسماء بالدور.

كنتُ أستجمع شجاعتي عندما ترفع المعلمة صوتها سائلة، "ماذا – ماذا – إيليا انتخابي فرد؟ مَنْ هذه؟". ويضحكن جميعاً بصوتٍ عالٍ، فأنهضُ واقفة. وأرفعُ رأسي عالياً وأقول "كامليا. كامليا انتخابي فرد"، فتجيب بمُحاكاة ساخرة "ومن أين نحن؟ أنحنُ من أرمينيا؟"

كانت تعلم أني لست أرمنيّة. وكان يُسمح للأقليات الدينية بمغادرة غرفة الصف قبل بدء درس القرآن والتربية الدينية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت لدى معلمات "شؤون التربية" معلومات وافية عن تلميذاتهن وعن معتقدات عائلات التلميذات قبل أنْ تفتح المدارس أبوابها. وكل ما تقوله في ذلك اليوم الأول يدور حول السخرية منا. فأجيب "كلا، كامليا هو اسم زهرة، ونحن مسلمات."

كانت تنتظر مني أنْ أقول إننا مسلمات لكي تباشر خطاباً تدرّبت على إلقائه. "هناك مئات الأسماء الجميلة والمُعبِّرة يمكن العثور عليها ضمن العائلة النبويّة، ثم ننتقي بعد ذلك اسم شخص خائن لطفلنا المسلم؟"، وتختم بأن تقترح عليّ أنْ أتبرّع بالتخلّي عن بطاقة هويتي واتّخاذ اسم إسلامي جديد. جلستُ في صمت، وزميلاتي في الصف ينظرن إليّ بأفواه فاغرة. كنتُ متجمّدة من فرط القلق من أنْ أُجبَر، عندما يُصدِر النظام بطاقات هويات جديدة، على تغيير اسمي. لكنَّ وضع ساتجين كان أصعب بكثير. فوالدها، قوروش ياغماي، كان مغني بوب شهيراً قبل الثورة. وعندما كانت المعلمات يسألنها عن اسمها، تُجيب بسرعة "إنه اسم فارسي، يعني كأس نبيذ قوروش". فيرفعن وجوههن نحو السماء، تعبيراً عن عدم الفهم التام. لقد انتقل وضع اسمها من سيّئ إلى أسوأ. نبيذ من كأس الملك الفارسي العظيم

قوروش! وكانت ساتجين دائماً تعود إلى جلوسها دامعة العين وتقول بعناد إنها تحب اسمها ولن تغيِّره أبداً.

ثم، في الصف الرابع، قالت لي خانم أرابلو، مدرِّسة مادة الإرشاد الديني، أمام التلميذات الثلاثين في صفنا، "إنَّ كامليا كان اسم امرأة غربية فاسقة[1]، ولا يفيدك أنتِ، أيتها الفتاة المُسلمة، أنْ تحملي اسم امرأة شائنة. وعائلتك لا تعلم، حتماً، أيّ شيء عن منشأ هذا الاسم".

نظرتُ إليها بعينين جاحظتين. كانت شديدة شحوب الوجه، والحجاب الأسود الذي كانت ترتدي تحت غطاء رأسها غطى كامل جبينها وحتى الحاجبين والوجنتين. وأمرتني بتغيير اسمي بالسهولة نفسها التي يمكن أنْ تطلب مني بها أنْ أُسدِل الستائر، قائلة، "سُميّة. اسم سُميّة يليق بفتاةٍ ذكية، جريئة، ومفوَّهة، مثلك. سُميّة هو اسم امرأة تستحق الإسلام، امرأة مُستعدّة، بسبب إيمانها وتقواها الراسخَين، للتضحية بنفسها من أجل القضية النبيلة للمُسلمين جميعاً ولمُحبيّ الحرية في العالم. إنْ شاء الله، وببركة هذا الاسم، ستصبحين واحدة من النساء اللائي كافحنَ من أجل الإسلام كمجاهدات". وأمسكت بقلمها وشطبتْ اسم "كامليا" وكتبتْ فوقه "سُميّة". "أنا شخصياً، سأناديك من الآن فصاعداً سُميّة."

أحسستُ كأنَّ عينيّ أصبحتا كرتين صغيرتين من النار. رفضتْ الدموع أنْ تنضح من عينيّ. وعندما رنّ جرس الاستراحة، كأنه كان جرس إنذار خاص لبدء نشر نبأ مذلّتي. وتوافدتْ المتعاطفات المُعزيات إلى غرفة صفنا جماعات لكي يُحدّقنَ إليّ ويُلقينَ نظرة على دفتر الدوام.

1 — الإشارة هنا إلى كامليا الغانية في رواية **غادة الكامليا** لاسكندر دوما الابن. المترجم

لقد كان اسمي غالياً عليّ كثيراً، وكان مشهوراً في مدرستنا. فأنا كامليا، نجمة المسرح، التي تقوم بالأداء في اجتماع الصباح وفي الجوقة. كنتُ أفوز بالجوائز في كل عام في احتفالات إحياء ذكرى الثورة. ولكن لم أكنْ أتحلّى بالشجاعة لأُصحّح ما حصل في دفتر الدوام.

في الفصل التالي عادت معلمتنا النظامية، خانم سابزبوشان. عبستْ، عاقدة ما بين حاجبيها، وقالت إنَّ أسماء الناس هي مسؤوليتهم الشخصية وإنَّها ستتحدث بهذا الشأن مع المديرة. ولكن في صباح اليوم التالي الباكر، انفجر والدي وهو في غرفة مكتب المديرة كبركان ناشط. وطلب الاجتماع شخصياً بتلك المرأة "الطاهرة" التي أهانت عائلته، لكي يجعلها تفهم معنى أنْ يكون المرء فاسقاً أو شائناً. "أخبري تلك المرأة أنه إذا كانت سيئة الحظ إلى درجة أنْ تحمل اسم "صغرى" أو "سكينة"، فعليها أنْ تفكّر أولاً في أنْ تحل مشاكلها الخاصة كلها وتغيِّر اسمها!". و"صغرى " و"سكينة" هما اسمان عربيان قديمان، يستخدمهما بصورة تقليدية العمّال أو الفلاحون، وبعبارة أوضح، إنهما قبيحان ونطقهما صعب، وليسا من النوع الذي ترغب أية امرأة متمدّنة في أنْ تحملهما. راحت المديرة تُردّد قائلة، وهي تستفيض في الاعتذار، "إنَّ مدرّسات شؤون التربية لا يعنين الأمر بهذه الطريقة، لقد كنّ فقط يمازحن كامليا."

هذه المرة عندما رنّ جرس الاستراحة، احتشد الجميع لسماع قصة بسالة والدي. ومنحت المديرة صفّنا دفتر دوام جديداً، ونسيتُ حزني. جاءت خانم أرابلو إلى الصف دون أنْ يكون لديها أي عِلم بما حدث. ولكن عندما حان وقت عرض دروسنا، هتفت اسمي بصوت حادّ،

مرتعش "مدام كامليا، إذا لم يكن هذا مزعجاً لك كثيراً، فمن فضلك اقتربي من السبورة."

كانت الجدَّة ماما باري هي التي منحتني اسم زهرة عندما وُلِدتُ بعد ظهيرة يوم شتائي بارد تغطّيه الثلوج من شهر كانون الثاني عام 1973. كان والدي يبحث عن اسم يبدأ بحرف كاف ليتناسب مع اسم أختي كاتيون وسُرَّ على الفور باسم كامليا. وفي المنزل، تُسمّيني أمي أحياناً كاميلي أو كاميل. وكرهتُ لقب كامي، لأنَّهم بهذا كانوا يُخاطبونني في المدرسة. كان لقب كامي تصغيراً لاسم فتى هو كامران. ولكن بالنسبة إلى جدّتي وأبي، كنتُ دائماً كامليا.

وحتى الآن، وأنا أحلم بالماضي، يتراءى لي منزل الجدّة، المبنى القديم بشجيرات الورد الأحمر وشجرة البرسيمون العتيقة والضخمة. وأيام كانت مدرسة الخياطة التي تُديرها تعجّ بالزبونات اللائي يرتدين أحدث الأزياء، لم يكن يُسمَح لنا بالارتقاء إلى الطابق العلوي لنلعب في الفناء قبل حلول الساعة الرابعة. كنتُ أنتظر وأنا أرتدي ثوب السباحة مجيء لحظة التحرّر حتى نهرع إلى "بِرْكة" جدّتي، أنا وكاتي وابنة خالي إلهام، ونقفز، ونحن نرتدي البكيني، إلى الماء ونبقى نعبث هناك على مدى ساعات. وعندما أصبحتُ أكبر سناً، كنتُ أرنو إلى بركة حديقة جدّتي ذات الستة في تسعة أقدام عرضاً، وقدم ونصف عمقاً بإعجاب. لا أُصدّق أنَّه كان في استطاعتنا نحن الثلاث أنْ نسبح فيها أو أنني كنتُ أُسمّي ذلك الحوض الصغير بِركة. كانوا يُحضرون مِنصّة صغيرة من الخشب من القبو في أيام الصيف ويُثبّتونها على حافة الحديقة، وبعد رشّ الفناء بالماء وسقي الحديقة، تضع جدّتي طاسات الشربات،

والخس، والأوكسيمل[1] على المنصة وتدير المرشّة.

عندما سمعتْ جدّتي عن الأمر المزعج الذي وقع مع مدرّسة شؤون التربية بشأنْ اسمي، اعتبرته إهانة مُباشرة. "لقد كانت مُخطئة، تلك البقرة الحمقاء! ماذا تعرف عن رواية **غادة الكامليا**؟ كان ينبغي أنْ تخبرها أنّ في استطاعتها أنْ تُسمّي ابنتها بأي اسم تشاء. إنَّ حمل اسم كاميليا شيء مُشرِّف". وبهذه الطريقة اكتشفتُ أنَّ هناك رواية تحمل اسمي. فسألتُ أمي بفرح عن الرواية التي تدور حول مدام كامليا. كنا جميعاً قارئات نهمات، وأفضل هدايا نتلقّاها في أعياد الميلاد كانت أنْ تسمح لنا أمي بانتقاء أيّ كتاب نريد من بائع الكتب المحلي. كان موعد إيوائنا إلى السرير هو التاسعة، لكني كنتُ ألتفّ حول نفسي وأقرأ سرّاً بالاستعانة بمصباح كهربائي تحت الأغطية. لكنَّ أمي نظرتْ إليّ وقالت "إنَّ قراءة تلك الرواية لا تناسب فتاة في مثل سنك!"

عدم السماح لي جعلني أريد أنْ أقرأها أكثر من ذي قبل. لكنَّ رواية **غادة الكامليا** كانت أيضاً محظورة. فبعد الثورة لم يعُد العديد من الكتب الفارسية والأجنبية متوفراً إلا في السوق السوداء. وكل محل لبيع الكتب حول جامعة طهران كان يحمل لافتة على واجهته تقول "نحن مستعدون لشراء كتب من مكتبتك الخاصة". كانوا يبيعون كتباً مُستعملة مرات عِدّة بعشرة أضعاف سعرها الأصلي. وعلى مدى أسبوع كامل وفّرتُ مصروفي بدل أنْ أُبدّده على شراء رقائق البطاطا المقلية ومعجنات الجبن، وأوصيت على الكتاب من بائع قريب للكتب. وعندما وصل، كان طبعة من كتاب صغير للجيب. قدّرت عمرها

1 – الأوكسيمل: مشروب قوامه العسل والخل.

بحوالى ثلاثين عاماً. على الغلاف صورة باهتة لامرأة شابة تحمل زهرة بيضاء؛ ويقول العنوان "تحفة ألكسندر كوما، **الابن، غادة الكاميليا**". لفّه بائع الكتب بورق صحف وأعطانيه داخل كيس. وفي المنزل، كان لا بد لي من أن أحفظ الكتاب في درج ملابسي الداخلية أو تحت الفراش، وأنْ أقرأه خفية، وأنا مختبئة في موقف للسيارات. وحسب ما أتذكّر، لم يكن فهم الرواية أمراً يسيراً عليّ. وأخفيتُ ذلك الكتاب المحظور سنوات طويلة قبل أنْ أتحلّى بالشجاعة لوضعه على الرف في منزلنا. لكنني أتذكّر كم بكيت يوم وصلت إلى الصفحات الختامية عندما تموت مارغريت. وبقيتُ حزينة على مدى أسابيع. كانت مارغريت غوتييه معي أينما ذهبت.

الفصل السادس

قبو سجن التوحيد

صيف عام 1999

"سوف ينهالون بالضرب على أخمص قدميكِ بكل قوتهم حتى تعجزي عن المشي. أيها المُخرّبون الفوضويون القذرون، لقد أصبح لديكم الآن عذر جيد: إنه الرئيس خاتمي! أظننتم أنَّ السيد خاتمي هو أحد أقربائكم أيها المُشاغبون؟ أم ظننتم أنه ما دام خاتمي قد وصل إلى هنا أصبح في استطاعتكم أنْ تتخلصوا من الحكومة؟ حسن، أنتم عُميان. إنَّ عيون أولئك الذين وهبوا حياتهم لإمام الزمان مفتوحة. وسوف يُلقنونك درساً. سوف أُلقنك درساً يبدو أنَّ أصدقاءك قد نسوه. هناك أساليب متعددة للتحدث معك، يا بهيمة! سوف أشنقك. أتفهمين؟ بتهمة التجسُّس والخيانة العظمى. وهذا أمر سهلٌ عليّ. لقد وقّعتُ مرات عديدة أوامر بإعدام فتيات وفتيان أصغر منك سناً بكثير. إنَّ الكَفَرَة والخونة تصدر في حقهم أحكام بالإعدام بالنيابة. أتفهمين؟ هل

ذهبتِ مرة إلى "جنة الزهراء"؟ هل رأيتِ القسم المُخصّص للمُلحدين، مقبرة المنافقين[1]؟ سوف يدفنونكِ كما يدفنون كلباً، وبعد ذلك يمكن لأمكِ أنْ تأتي وتبكي عليك. هل تفهمين ما أقول؟"

كان العَرَق يجري على طول عمودي الفقري. وكان حزام بنطلوني قد أضحى رطباً تماماً. كم ساعة بقيتُ جالسة هناك على الكرسي الخشبي ووجهي يُقابل الجدار؟ عشر ساعات؟ خمس ساعات؟ كانت عيناي مربوطتين بشدّة بعصابة غطّت نصف وجهي. كان يُقاطع تهديدات مُستجوبي ضجيج قويّ، طويل، ثم يبدأ من جديد. كان طنيناً يُشبه طنين حشرات تحوم حولي أو كجرس يُقرَع مراراً. وتحوّل صوته الرهيب وكل ذلك الضجيج داخل دماغي إلى عواء. أين أنا؟ لم أعرف. الصراخ والإهانات منعتني من التفكير. قلتُ لنفسي يجب أنْ تبقي قوية. كلا، لا أريد أنْ أواجه مصيراً كمصير غولي. أردتُ أنْ أبقى حيّة وأعود إلى بيتي، إلى أمي. أمي... لا بد أنها قامت بعمل ما لتنقذني. فكّرتُ في أصدقائي الذين لي معهم صِلات وثيقة، في خاتمي نفسه، الذي كنتُ قد نظّمتُ حملة لمصلحته قبل بضع سنوات. وعملتُ في الصحف الإصلاحيّة، في الحركة التي منحها ترخيصاً بتولّيه سُدة الحكم. ألن يُلاحظ نبأ إلقاء القبض عليّ ويهبّ لنجدتي؟ وفكّرتُ في فائزة. حتماً سيأتي أحدٌ ليُنقذني.

عندما أجبروني على الخروج من السيارة، وضع أحدهم شيئاً معدنياً في يدي وقال إنه هوائي لتلقي الإرسال الإذاعي وإنني يجب أنْ أمسك

1 ـــ الإشارة هنا إلى مقبرة خاصة غير رسمية تقع خارج مدينة طهران ويُدفَن فيها مَنْ يُسمّون المنافقين.

به لأتمكن من اللحاق بهم. لم يكن في استطاعة الرجال أنْ يلمسوني بأنفسهم، فكانوا يجرونني وأمشى بخُطى مهتزة وغير واثقة، كأني عمياء. كنتُ أعلم أنَّ وضعي في كل دقيقة يزداد خطراً، ورحت أطلب من نفسي أنْ أتمسّك بالعقلانيّة والهدوء. ثم توقفنا لكي يتبادل حراسي بعض الأوراق مع موظفي السجن، ثم تابعنا المسير. وسمعت طنيناً، وشعرتُ بيد امرأة تُمسك يدي وتقودني إلى الأمام إلى أنْ أوصدَ باب حديدي.

قالت المرأة " ارفعي العِصابة عن عينيكِ قليلاً لكي تري قدميكِ ولا تتعثّري. والآن انزعي العصابة."

كانت صغيرة السن ونحيلة وذات بشرة زيتونيّة. أومأت لي، وهي مُكفهرة، كي أنزع ملابسي. وعلى طاولة كانت هناك بيجاما من القطن الأبيض مع خطوط زرقاء، وغطاء رأس من البوليستر عليه أزهار بنفسجية ورمادية، وخفّ رخيص رجالي.

"ارتدي البيجاما وأبقي الوشاح على رأسك والجورب الأسود في قدميك". أما قميصي الوردي، وبنطلوني الجينز، ومعطف أمي الأسود، وحزامي القطني الأخضر - فذهبت جميعاً، واحداً بعد آخر، إلى كيس بلاستيك.

"ضعي ساعة يدك وحقيبتك على الطاولة، أيضاً". وأخذَتْ حذائي. "انتعلي الصندل، وثبّتي العصابة على عينيك، وامشي خلفي". قادتني إلى قبو وأرتجت القفل المعدني. "الزمي الهدوء. لا تقرعي الباب. مفهوم؟"

فهمت. بعد ذلك بأقلّ من عشر دقائق عادتْ. رمت غطاء الرأس

عليّ. "استعدّي بسرعة. سوف تذهبين للاستجواب."

ما الذي ينتظرني؟ تصرّفتُ بهدوء، لكنَّ قلبي الخفّاق كان يُصدِر ضجيجاً مُخيفاً. قال صوت رجل، رقيق، صادر عن الأنف، للمرأة ذات البشرة الزيتونية، التي سمّيتُها لاحقاً حُميرة، "اتبعيني."

من جديد سُمِحَ لي برفع العصابة عن عينيّ بالقدر الكافي لأنظر إلى موطئ قدميّ. لحقتُ بالحذاء البُنّي الذي يتقدّمني بمقدار خطوتين. أمسكتُ بغطاء الرأس بإحكام تحت ذقني بإحدى يديّ وضممتُ الشقّين معاً بالأخرى. أثار فيَّ صوت الخف البلاستيكي القشعريرة في جسمي. كان مفتوحاً عند أصابع القَدَمين، والفردة اليمنى كانت ممزقةً وتصفع قدمي مع كل خطوة. كان ضجيجها المُخيف يمثّل صوت سقوطي – الصوت الذي سمّته أمي صوت الطبقة السفلى، خطوات "الكادحين".

"ادخلي إلى هنا. هناك كرسيّ. اجلسي في مواجهة الجدار، وأبقي يديكِ بعيداً عن عصابتك، ولا تستديري."

"سيكون هذا هو قبرك، يا سليلة جهنم. إنني أراقبك منذ سنين. أعلم كيف تمارسين الغواية، وأعلم كم تحبين العبث. لقد وقعت بين الأيدي الخطأ هذه المرة. إنني لم أدخل سجناً للاستجواب منذ عشر سنين، لكني أعلم، يا بهيمة، أنكِ كنتِ تمارسين الخداع مع الآخرين. وكان لا بد لي من أنْ ألاحقك بنفسي. هنا لا مجال للخداع، أيتها الجاسوسة الإسرائيلية. مَنْ يمدّك بالمعلومات في إسرائيل؟ أخبريني! سوف تُفضين بكل ما تعرفين عن تجسّسك. لا تقلقي، سوف تستعيدين ذكرياتك. سوف تنالين من الضرب ما يجعلك تتذكرين

الحليب الذي رضعت وأنت طفلة!"

ما هي الذكرى الأولى التي استعدت؟ إنها الأيام العشرة من "مهرجان الفجر السينمائي العالمي". عشرة أيام كانت رغبتي الوحيدة خلالها أنْ أشاهد كل فيلم يُعرَض، لعِلمي أنه قد لا يُتاح لي أنْ أشاهدها غير مُراقَبة في دور السينما العامة. كنتُ مُستعدة لأن أهبَ أي شيء لأشاهد تلك الأفلام. كان الوقت شتاءً، لكني وقفتُ في الطابور منذ الساعة السابعة صباحاً على الرغم من البرد أمام دار سينما آزاد لكي أبتاع بطاقات لمشاهدة أفلام مُحسن مخملباف "**كان يا ما كان ذات يوم، سينما**" و"**زمن الحب**"، وفيلم باهرام بيزائي "**مسافرون**". ومن فرط يأسي، في أثناء وقوفي في الطابور البطيء الحركة، رسمتُ ابتسامة واسعة للجنود الريفيين الذين كانوا قد وصلوا إلى هناك ربما عند الفجر وأصبحوا الآن على مسافة دقائق من بلوغ شباك بيع البطاقات. فأفسحوا حيزاً لتلك الفتاة الصغيرة الرقيقة، ومن أجل الحصول على تلك البطاقات الثمينة، تحمّلتُ الارتطام بسيقانهم التي ضغطت على ساقيّ، وابتساماتهم الجافة، الفارغة، وأيديهم التي كانت تجري على ظهري. وحُشِرتُ وسط ازدحام الحشد المتزايد وضغط الأيدي الفظّة، المُستغلة للموقف، لكني ثبتّ في مكاني على أمل الوصول إلى داخل دار العرض.

كيف وجدتُ نفسي من جديد في مثل ذلك الموقف الخطير الذي يُعرّضني للشبهات؟ عمَّ يمكن أنْ أتخلّى لهذا الرجل في سجن التوحيد حتى يسمح لي بأنْ أتقدّمه؟ خُيِّل إليَّ أنَّه مرّت ساعات طوال خلال تلك الدقائق العشر التي غاب خلالها مُستجوبي ليُصلي. شعرتُ كأنَّ هناك شخصاً ثالثاً معنا، شيئاً شريراً يقف خلفي ويدوّن ملاحظات

دقيقة. ارتجفتُ لدى عودة وقع خُطى المستجوب وهو يقترب لكي يصرخ في أُذني. كنتُ مرعوبة من أنْ يقتلني. وراح يتجول في الغرفة، ثم اقترب مني فجأةً، وخبط بقوة كتاباً أو صحيفة ملفوفة على رأسي. وعندما اقترب مني، تجمّدتُ من شدة الخوف. كنتُ أنتظر أن أتلقّى ضربة رهيبة أو طعنة من أداة حادة على رأسي أو ظهري. كان الضرب والإهانات فظيعة، لكنَّ خوفي كان أشدّ. بقيتُ صامتة أواجه الجدار، خائفة وسط الظلام خلف العصابة. لم أرد أنْ أفقد الأمل. هل مرَّ عليّ يومٌ في حياتي خلا من بعض الأمل؟

بعد ساعات من الاستجواب انهرتُ داخل زنزانتي. جلب لي أحد الحرّاس طاساً نُحاسياً بارداً مملوءاً بالأرز تعلوه يخنة. "هذا غداؤك. لقد فاتتكِ وجبة الإفطار، لذلك وُضِعَتْ في البراد. وفي غضون ساعتين، ستأتيك وجبة العشاء. إن لم تُصلي صلاتي الظهر والعصر، يمكنكِ أنْ تتوضئي."

"أوه. نعم، الصلوات. طبعاً. كم الساعة الآن؟"، ونهضتُ واقفة أشعر بالإرهاق والدوار. كانت الساعة الخامسة عصراً. أحقاً أمضيتُ النهار كله جالسة هناك؟ وقفتُ أواجه القِبلة، وغطاء قماش البوليستر على رأسي، وركعت واستقمت مرات عِدة، وأنا أسبّ في دخيلتي.

شعرتُ كأنَّ في حنجرتي رصاصاً كثيفاً وجامداً حتى عجزتُ عن ابتلاع الماء. لم أرغب في طعام العشاء. أردتُ أنْ أنفرد بنفسي. كانت زنزانتي أشبه بسردابٍ فارغ جدرانه بيضاء وبابه من الحديد الأزرق. كانت الغرفة خالية؛ والأرضية مغطاة بسجادة رمادية رطبة، وفوقي

لمبة كهرباء متوهجة تُضيء الغرفة على شكل بقعة ضوء. "من المستحيل إطفاؤها!"

بدأتُ "بحل الواجب" الذي قرّره المُستجوب - عبارة عن صفحات عِدة من الورق طُبِعَتْ عليها عبارة "استمارة وزارة المخابرات، والاستجواب". أرادوا أنْ يعرفوا عدد أصحابي من الشبان وماذا كنا نفعل معاً، وما مدى تديُّن والديّ، وما إذا كنتُ قد شربتُ الخمر يوماً، وماذا أُصدِّق مما يُقال عن الله. وكانت هناك عبارة بالعربية بأحرف بارزة بالحبر في أعلى كل صفحة: "النجاة في الصِدق". وتحت العبارة العربية أخرى بالفارسية تعني "خلِّصي نفسك بقول الحقيقة". بسطتُ الأوراق على السجادة الرطبة، الخشنة وانكببتُ على العمل عليها.

لم أتمكن من النوم. تلك الليلة الأولى بدا كأنها لن تنتهي أبداً، وأنا أرتجف، وأُصغي للأنين والبكاء يتصاعد من أرجاء السجن كله. وعندما فتحوا زنزانتي عند انبلاج الفجر، جمعت الصفحات المبعثرة تحتي. كانت تتلألأ من الرطوبة التي تشرّبتها من الأرضية. رحت أؤدي شعائر الوضوء بلا حماسة. كنتُ قد نسيت كيف أصلّي، ولكنَّ ذلك لم يكن بالأمر الهام. الهامّ هو أني بدأتُ نشاطي، بعيداً عن رقابة العيون التي تبلِّغ المستجوب عن كل حركة تصدر عني. وعندما انتهيتُ صرخت المناوبة "استعدي. المستجوب ينتظر في الخارج."

جررتُ قَدَميّ، بالخفّ البلاستيكي الذي يبلغ قياسه ثلاثة أضعاف قياس قَدمي، مُصدِرةً ضجيجاً خلفه وأنا أرتقي الدَرَج، وهذه المرة بهدوء أشدّ. كان غطاء البوليستر كريه الرائحة وليس على مقاسي ومُثبَّتاً بإحكام على رأسي بسبب العِصابة. راقبتُ قدميه، وبنبرة إسلامية واثقة

حيّيته "السلام عليكم"

"وعليكم السلام."

أدركتُ من خلال حذائه أنه كان يختلف عن باقي الحراس. ومن زاوية عيني، من خلال فجوة صغيرة في العصابة، رأيتُ أنه خلافاً للصندل الذي كان باقي الحراس ينتعلونه دائماً، كان مُستجوبي، الذي سبقني ببضع خطوات، ينتعل حذاءً من الجلد البُني الملمَّع بأناقة. ورأيتُ الجورب الأبيض والطيّة الحادّة لبنطلونه الكاكي المكوي. لا بد أنه لا يعمل عادة في هذا المبنى حتى جاء هكذا أنيقاً ونظيفاً. وأذكر كيف أنه قبل ذلك بيومين كان قد قال إنه لم يقُم بالاستجواب منذ عشر سنوات. لا بد أنه شخصية أعلى مرتبة، ربما رئيس قسم في وزارة المخابرات. طرحتُ اللغز جانباً لكني ظللتُ أحتفظ به في ذهني.

سوف يُثبت المستقبل صِدق حدسي. ولكي أتخلص من ذلك المأزق، كنتُ في حاجة إلى شخص قويّ، شخص ذي نفوذ. وهو سيكون مُخلِّصي.

* * *

ومرت الأيام، بطيئة كأنها ألف عام، دون أنْ تلوح بارقة أمل في الظلام. وكأني اختفيت عن الوجود. وعندما أُرسِلتُ إلى قاعة المحكمة في اليوم التالي لاحتجازي برفقة عنصريْ مخابرات، كانوا في حاجة إلى غطاء من الإجراءات الرسمية المعتادة. قبعتُ في خلفية سيارة نقل بنوافذ ملوّثة معصوبة العينين، ووضعوا قطعة قماش على رأسي لكي لا يتعرّف إليّ أحد وسط حركة المرور في طهران. وسارت سيارتنا في الجادات

المكتظة وكانت أحياناً تتوقف عند إشارات المرور الحمراء. وفي موقف السيارات أمام المحاكم الثورية، قالوا إنَّ في استطاعتي أنْ أستقيم في جلستي وأنْ أنزع العِصابة. كانت المدينة تمتد أمام عينيّ. عدتُ إلى الحياة وضجّتْ الطاقة داخلي. لكني كنتُ سجينة. كنتُ مقيَّدة. وأثناء سوقي عبر أرض موقف السيارات التابعة لدار المحكمة، شعرتُ كأني أحد المجرمين الذين شاهدتهم مراراً على شاشة التلفاز أو عندما كنتُ أقوم بمهمة رسمية، جُلِبوا إلى المحاكم بملابس السجن المقيتة نفسها التي كنت أرتدي. هل ظن المارّة أني مُهرِّبة؟ أو امرأة طعنتْ زوجها الذي يُسيء معاملتها بخنجر صغير ظريف؟ أطرقتُ رأسي خزياً. مَنْ أنا؟

حُشِرتُ في إحدى الغرف قبل أنْ يستمع القاضي المُعيَّن للنظر في قضيتي إلى التُهَم الموجّهة ضدي. القاضي الذي كان في منتصف العمر وأبيض الشعر عند ذؤابة لحيته كان هو نفسه الذي أصدر مذكرة إلقاء القبض عليّ وتفتيش منزلي، بطلب من وزارة المخابرات. نظر القاضي ياديغار فار إليّ وقال "أأنتِ كائن آدميّ أم وحش؟ يجب أنْ تفهمي أنَّ حكماً بالإعدام ينتظرك". وفتح ملفّاً وقرأ، "إنَّ لكِ صِلات بمصادر إسرائيلية وتتجسّسين لدولة إسرائيل، ومتورطة في نشاطات لمنظمات تجسّس أميركية ومستفيدين من إيذاء الجمهورية الإسلامية. وتعملين لمصلحة وسائل إعلام أجنبية بوساطة جهاز مخابرات، وأبحاث، وتقارير مطبوعة لُفِّقَتْ بغرض تشويه صورة حكم الجمهورية الإسلامية والتسبُّب في إيذائه."

"صدّقني، لا شيء من هذه الاتّهامات صحيح. يا سيدي الحاج، أنتَ مُخطئ. أنا كاتبة. ومُراسلة صحافية. أنتَ مُخطئ. كيفَ أصبحتَ

جاسوسة؟ دعني أذهب إلى بيتي. نحن عائلة مُحترمة، ولا أفهم حقاً عمّا تتحدث. أنا لا أعرفُ أحداً في إسرائيل، ولا أعمل لأية منظمة أميركية و...» وانفجرتُ بالبكاء، كغيمة في أوائل الربيع.

أشار ياديغار فار إلى الملفّ وقال «كل شيء مُوثَّق بوضوح هنا. لقد قام الإخوة بالتحقيقات اللازمة، ولن تفلتي بسهولة من العدالة الإسلامية. إنَّ عقوبة الجواسيس هي الموت. وجرائمك خطيرة جداً. إنَّ وجود صِلات مع جاسوس إسرائيلي...»، وهزّ رأسه تعبيراً عن الحزن وقال «إنَّ هذه محكمة عادلة. إنها محكمة ثورية، ولا أحد يُجلَب إلى هنا من دون سبب. اعترفي. اطلبي الغفران. سوف تخفّ وطأة جرائمك، وسيتولاك الله برحمته.»

* * *

وبكل الهدوء الذي يمكنه أن يطلب به من أحد أن يتذوَّق نوعاً من الفطائر أو أنْ يكتب له مقالة عن فصل الربيع، سألني المُستجوب «حسن، أخبريني كم عدد الرجال الذين ضاجعتهم حتى الآن.»

كدتُ لا أُصدِّق ما سمعت.

«لا تتظاهري بالبراءة. أنا أعرف أنكِ ضاجعتِ حتى لحّام الحي - لديّ شهادته هنا. لماذا لا تتكلمين، يا عاهرة؟ لا تقولي إنكِ عذراء، وإنَّ أهلك أخفوك بعيداً عن الشمس والقمر. تكلّمي. أخبريني، يا جاسوسة. عظيم، إذاً أصبحتِ الآن خرساء. حسن، سوف أُجبرك على إخباري عن المرة الأولى التي استسلمتِ فيها لرجل، خطوة بخطوة. قسماً بالله، لأجعلنكِ تتكلمين وإلا فستنزلين إلى السرداب!»

كنتُ أعرف أين يقع السرداب. إنَّ السرداب هو المكان الذي يأخذون السجناء الآخرين إليه. المرأة التي تظاهرت بالجنون أو لعلها أُصيبت حقاً بالجنون. طوال الليل تصرخ "نفيسة!!!!!!!!!" وتضرب بقوة باب زنزانتها، وتهتف قائلة إنَّ أختها نفيسة تنتظرها على الجانب الآخر من الباب. وتنادي الأخوات على الإخوة، ويجرّون المرأة العاجزة على الأرض، قائلين إنهم سيجمعونها بنفيسة. ويتردّد صدى صراخها على البُعد، ولاحقاً أسمعها تتقيّأ من فرط الألم وتستجير بالله. واشتد خفقان قلبي، ضارباً صدري كطائر جامح.

سألتُ الحاجّة خانم وهم يُعيدونني إلى زنزانتي، "ماذا يحدث للسيدة التي تنادي على أختها عندما تأخذونها إلى السرداب؟"

سألتني "السرداب؟ أحقاً تريدين أنْ تشاهدي ذلك؟". غمزتني ليلى، الواقفة إلى جواري، وتمضغ كتلة ضخمة من اللبان، "إنْ شاء الله، ستُتاح لك الفرصة أنتِ أيضاً لزيارة السرداب!"، وضحكت، ثم صفقت الباب وأقفلته.

وتحقّقت أمنية ليلى... وفي طريقي إلى السرداب صرخت "سأخبركم! أعيدوني إلى أعلى! أُقسم بالله إني سأخبركم!". كانت رُكبتاي ترتعشان، فأمسكني الحراس بقوة من ذراعيّ لكي لا أقع. أنهضوني، ورفعوني قليلاً عن الأرض، وكأني كنتُ أطير في الهواء عائدة إلى غرفة الاستجواب. قلتُ في نفسي، سأقول كل ما يُريد. سأُلفِّق كل ما يطلب، وسأجد شيئاً أقوله له. لن أدعهم يُعذبونني، ولن أبقى في السجن. سأخرج من هنا، هذا ما قلت لنفسي وشددتُ على أسناني. "أُقسم بالله إني سأخبركم."

”اخرسي، يا بلهاء – لا تُقحمي اسم الجلالة في هذا الأمر! الآن أصبحتِ عاقلة. عندما أطلب منكِ بلطف أنْ تتكلّمي، تكلّمي. بسم الله، اجلسي ودعيني أسمع ما لديكِ... في حوزتي قائمة بأسماء سبعة وستين رجلاً ضاجعتهم. ابدئي من البداية، بداية البداية...“

كذبتُ واختلقتُ قصصاً تتلاءم مع الأسماء الواردة في قائمته السخيفة كلها. ولكن لنبدأ من البداية... وهذا يعني البدء باسمٍ واسع الشهرة في إيران. وفي ذلك الاعتراف الأول، قلت الحقيقة.

* * *

خريف عام 1997

عند الغسق انعطفنا في سيارتنا الرينو الزرقاء عند زاوية الشارع وكدنا نضرب سيارة من طراز أعتق تنطلقُ مُسرعة عند المنعطف. ”ماما، احذري!“. وقبل أنْ أُنهي جملتي مالت أمي بخبرة وضغطت الفرامل. أنزل الرجل الذي كان يقود السيارة الأخرى زجاج نافذته، وأبرزت أمي رأسها بعدائيّة من نافذتها لتأمره بالابتعاد. ولبرهة من الزمن ران الصمت علينا نحن الثلاثة. ترجّلَ الشاب، وتحولت نبرة صوت أمي العدائية إلى احترام. حاولتُ أنْ أُخفي ابتهاجي وأنا أترجّل لألاقيه. في صباح ذلك اليوم، قبل هذا بنحو عشر ساعات، كنتُ قد خسرتُ المُعجَب بشهرتي في مطار مهر آباد، والآن، وبالمصادفة، ها أنا أقفُ وجهاً لوجه أمامه في حيّنا.

”لقد انتظرتكِ. بحثتُ في كل مكان لكي أُقدم لك يد المساعدة. إلى أين ذهبتِ؟“. كانت ابتسامةٌ واسعة قد امتدتْ عبر وجهه.

أجبتُ "سامحني. كان لديك الكثير من الهموم، ولم أرغب في إزعاجك."

كنتُ قد رأيته للمرة الأولى في مطار فرانكفورت، في أثناء تسوّقي من متجر في السوق الحرّة. كنتُ أرتدي معطفاً بلونٍ أزرق داكن وتنورة، وأتهيَّأ لوضع الوشاح على رأسي قبل أنْ أَصل الأجواء الإيرانية. وبينما كنتُ أعاين الشوكولاتة والعطر، لاحظتُ أنَّ هناك شاباً يلاحقني خطوة بخطوة. بدا إيرانياً ومألوفاً جداً. لكنني لم أتمكّن من التعرُّف إليه، وعلى متن الطائرة، كاد قسم الركّاب الخاص برجال الأعمال يكون فارغاً، فجلس في الصف الذي أجلس فيه. ونهضَ مراتٍ عِدة لكي يُعدّل من وضع أمتعته في الحجرات الواقعة فوق الرؤوس، وفجأة تعرّفتُ إليه. لقد كان ضيفاً على إحدى الصحف التي أعمل لها، صحيفة "**أفتاب كردون**"، في قسم الصحافة في المعرض العالمي للكتاب. وأجريت معه مقابلة. اسمه علي دائي، بطل لعبة كرة القدم.

"عفواً، هل ترغبين في بعض الشوكولاتة؟" شكرته وذكّرته بأنه سبق لنا أنْ تقابلنا. فضحك.

قال، وهو يُشير إلى مقعد الطفل الوليد الذي كنتُ قد حملته معي إلى الطائرة ووضعته في الحجرة الخصوصية ببعض المشقّة، "يبدو أنكِ اشتريت بعض الأشياء الهامة!". انتبهتُ إلى السؤال المُستتر بأدب خلف تعليقه، فأجبت "إنه من أجل أختي، من أجل تحميم الطفل. إنها تنتظر إنجاب بنت صغيرة. ثم كلا، أنا لستُ متزوجة". كان فاتناً، واضطررتُ للتظاهر بالنوم حتى آخر الرحلة لكي لا أستمر في التحدّث

معه. وعندما وصلنا إلى طهران، اختلقَ أوهى الأعذار لكي يساعدني في حمل حقائبي.

"لا تبتعدي. انتظري عند البوابة، وسأعود لأساعدك". عند بوابة الواصلين، كان هناك مئات المعجبين ينتظرون لاستقباله مع الأزهار والصور الكبيرة. واندفعوا إلى الأمام وابتلعوه كموجة ساحقة. كان أطول من الجميع بمقدار رأس، فرفع حاجبيه وأشار إليّ كي أنتظره. ولما غلبه الجمهور، حملتُ أمتعتي وشققتُ طريقي إلى حيث كانت أمي تقف خلف حاجز من الزجاج، تلوِّح لي بيدها. كنتُ غائبة في ألمانيا منذ شهر تقريباً، و لم أكد أطيق صبراً على الانتظار حتى ألتقي بها وبكاتايون.

قبّلتني أمي وقالت "هل رأيتِ علي دائي؟ لقد كان على متن رحلتك. كنتُ أصلي بيني وبين نفسي، وأفكّر كم سيكون شيئاً جميلاً لو أنكِ تلتقين به."

"أوه يا إلهي! أنتِ تبالغين يا أمي. هيا بنا، فلنذهب قبل أن يظهر من جديد. إنني بالكاد تخلّصت منه، وها أنتِ تقولين كم سيكون أمراً جميلاً لو ألتقي به! ما الذي أنجز، ما سببُ هذا الحشد الضخم؟"

عرفتُ الجواب عن هذا السؤال عندما كدنا نصطدم بسيارة علي دائي. كان عائداً إلى أرض الوطن ليلعب مباراة هامة. وفي غضون بضعة أيام، سوف يلعب المنتخب الوطني الإيراني مع الفريق الأسترالي في طهران. وإذا تغلّبت إيران على أستراليا، فإنَّ فريقنا سيتأهل إلى نهائيات كأس العالم. ابتسم علي. "أين تقيمان؟"

أجابت أمي بالنيابة عني "في نهاية هذا الشارع، في المبنى رقم أربعة."

في الحال أشار علي إلى منزلٍ أبيض كبير يقع خلفه. "ذاك هو منزلي. أليس جميلاً أنْ نكون جيراناً! لماذا لا تدوّنين رقم هاتفي وتعطينني رقم هاتفك ما دمنا هنا". ودوّنَ رقمه على عجل على قصاصة من الورق، وأعطته أمي رقمنا. "يجب أنْ أذهب إلى التلفزيون لأجري مقابلة. أراكما في الصباح!"

كانت أمي كأنما وصلت إلى السماء السابعة. "كامليا، يا خانم، أنتِ محظوظة جداً."

كان علي دائي هو الأعزب المرغوب فيه الرقم واحد في إيران. وبوصفه كابتن منتخب كرة القدم الوطني الإيراني، كان يحمل شهادة في الهندسة من جامعة دانيشغاي شريف وعقداً مع أحد أكبر نوادي كرة القدم في العالم. وفي صباح اليوم التالي رنَّ جرس بابنا، وجلس في غرفة جلوسنا. كان حييّاً وشديد الأدب. وفهم على الفور أنه لا يوجد أب يُهيمن على المنزل. في إيران، غالبية العائلات تُعلِّق صورة فوتوغرافية ضخمة للأب المتوفى العزيز في الصالون، لذلك حالما ولج المنزل، وجد علي صورة أبي أمامه. وكان والدي قد توفي فجأةً وكنتُ لا أزال مراهقة، ولا أزال متأثّرة من خسارتنا. وعندما كان يافعاً، كان بطلاً في لعبة كرة الطاولة وفي الكرة الطائرة، وعمل مُدرِباً في نادي سيري باك للألعاب الرياضية. وكان قد انتهى تواً من لعب مباراة في كرة تنس الطاولة عندما أُصيبَ بنوبة قلبية في أثناء أخذ دش. وأشارت أمي إلى صورته لعلي وقالت "والد كامليا أيضاً

كان رياضياً – ومات وهو في النادي الرياضي.“

لم تستطع أمي إخفاء فرحتها لأنها استقبلت شخصية مشهورة في المنزل، وشعر كاي خُسرو بسعادة غامرة. كان في الخامسة عشرة ومهووساً بلعبة كرة القدم. و لم يُصدّق أنَّ لديه قصة مُثيرة جداً يحكيها لأصدقائه – كابتن فريق كرة القدم الوطني يُصادق أخته! وإذا تزوجنا، فإنه يضمن مقعداً في نادي برسيبوليس لكرة القدم. و لم يتمكن من الكفّ عن رسم ابتسامة عريضة، وتحوّل وجهه إلى ابتسامة كبيرة واحدة. قدّمت لنا أمي الشاي وراحت تستفسر من علي عن والديه، أين يعيشان، ومتى اشترى المنزل القريب منا. وأرته اللوحات المائية التي رسمتها ومعلّقة على الجدار وتباهت بموهبتي في الكتابة. ثم تجاهلتني تماماً عندما رفعتُ لها حاجبيّ لأبلغها بأنها قد تمادت كثيراً وأنَّ عليها أنْ توقِف جلسة الاستجواب تلك.

خلال خمس دقائق انتشر النبأ في أرجاء المبنى كله، وتجمّعَ جيراننا على الدرَج الأمامي حاملين آلات تصوير يدوية ليلتقطوا أفلام فيديو ويحصلوا على تواقيعه. وفي لمح البصر، بدا كأنَّ البلدة كلها باتت تعلم أننا نبأٌ في الأخبار. وعندما أصبحنا نلتقي بانتظام، وجدنا أنَّ من المستحيل أنْ نلتقي في المنزل. كان الضيوف غير المدعوّين يقرعون جرس بابنا باستمرار. وكان الناس يُرهقوننا. لذلك أصبح يأتي لكي يقلّني في سيارته، وننطلق إلى جهة غير مُحددة من طهران. ونذهب بالسيارة إلى منطقة هادئة ونتوقف تحت ظلال شجرة كبيرة لكي نختبئ ونتحدث، أو يأخذني معه أثناء أدائه مهام مختلفة؛ ونتحدث طوال الطريق، ثم يتركني داخل السيارة أنتظر ريثما ينتهي وبعد ذلك يُعيدني

إلى المنزل. وكان جيراننا المهووسون بالنجم يرصدون منزلنا عن كثب بحيث بات من الصعب عليه أن يمشي معي حتى الباب الأمامي، لذلك كان يُنزلني في الخارج. ثم أخذ يقطع وعوداً مُبهمة. "إنّني راغب في الزواج، ولكن لديّ مشكلة يجب أنْ أحلّها أولاً، وحتى ذلك الحين يجب أنْ تحفظي سرّنا وتنتظري". وافقت، ولكن في المنزل، علِمتُ أنَّ مراكز إدارة أخبار أمي تعمل على قدم وساق. أيضاً، كان جميع العاملين في صحيفة "زنِ روز" (المرأة اليوم) التي أعمل فيها قد علِموا بالأمر، لأنَّ إحدى السكرتيرات كانت تقطن على الجانب المقابل من الشارع لمنزلنا في أحد المنازل المُخصصة للمُستخدَمين التي بناها اتّحاد مالكي الصحيفة الأسبوعية. (كان ذلك قبل أنْ تظهر صحيفة "زن" في طهران. وعلى الرغم من العنوانين المتشابهَين، إلا أنَّه لا صِلة لإحداهما بالأخرى) وبدا أنَّ الشخص الوحيد الذي لم يعلم بعلاقتي بعلي هو حافظ الشيرازي، الشاعر الفارسي من القرن الرابع عشر.

تعادلت إيران مع أستراليا، واحد–واحد، وكان ذلك انتصاراً كبيراً لإيران. وكنتُ أول مَنْ اتصل بهم علي من الملعب. "لقد قمنا بعمل عظيم، يا حبيبتي! أحبّك. سآتي إليك في غضون ساعة". وضجّت طهران، وقد عمّها الفرح، بالاحتفالات، ورحتُ أُصغي من مصطبة منزلنا إلى الهتافات في الشوارع. اندفعَ علي مُرتقياً الدَرَج المؤدي إلى شقّتنا، وأمسك يديّ بيديه، وقبّلهما، ثم غادر إلى أستراليا من أجل لعب مباراة الإياب.

لقد كان نجماً، وكنتُ مجرد كاتبة صغيرة. كان مصيري بين يديه. وأعتقد أنَّ أمي هي الوحيدة التي أحبّته، ربما أكثر مني. ولم يكفّ

الهاتف عن الرنين، وأصرّت أمي بدم بارد على وجوب أنْ أردّ على المكالمات. أرادتْ من العالم أجمع أنْ يتصل ويُقنعني باللحاق بعلي. ولكنهم جميعاً توقّعوا أنْ يسمعوا أنه تقدّم لطلب يدي.

"مرحبا، كامليا، **سلام**. ما الأخبار؟". كان الجميع يبدأون بهذا السؤال.

"لا أخبار – الخبر الوحيد هو أنكم لا تزالون تتصلون لتسألوا عنه!"

ثم تبدأ صديقاتي وعائلتي بالتدخُّل. "لا تكوني حمقاء. جرّبي حظّك. إنَّ الفرصة لا تأتيك إلا مرة واحدة. سوف تُصبحين نجمة. ستسافرين. إنه مليونير. إنَّ إيران كلها تسعى وراء هذا الفتى، وهو يحبك – وأنتِ تتمنّعين؟"

عندما استدعاني، وافقت على أنْ أطير إلى ألمانيا. كان صقر الحظ يقفُ على كتفي. وفي الحالة العادية كان يمكن لسُمعة عائلتي أنْ تُلوَّث بسبب معاشرتي لرجلٍ دون زواج، أما الآن ففرحت. لقد رأيتُ أنه مُرشَّح جيد للزواج: إنه مشهور، وثريّ، ومهذّب. أعجبني منه أنْ يستدعيني من أي مكان في العالم لكي أشاركه لحظة عذبة – فقط لكي أتبادل معه تحية المساء وأنّه لا يطيق صبراً حتى يُحضرني إلى بيته. كانت تلك المرة الأولى التي أرغب فيها حقاً، ومن أعماق قلبي، في الزواج. وطبعاً شكّلت شهرته فرقاً – الجميع كان منجذباً إليه. وكانت أمي تتلاعب بي إلى أقصى درجة بدفعي إلى الارتباط به. ودّتْ لو تتمكن من إخبار الجميع بكل فخر بأني سأتزوج علي دائي. كانت عائلتي متيقنة من أني إذا ذهبتُ إلى ألمانيا، فسوف نتزوج هناك.

ترجّلت من القطار في بيلفيلد، وكان علي ينتظرني في المحطة. لوّح لي بيده. قفزتُ لكي أعانقه، حتى كدتُ أخرج من حذائي.

"وو! وو! ماذا تفعلين؟ سوف تسيئين إلى سمعتي. الجميع يعرفونني هنا. أسرعي، ادخلي السيارة!". كان ذلك لقاءنا الأول منذ أنْ غادر طهران قبل ذلك بشهر. كان قد تملّك قلبي، ولم أكن على طبيعتي.

كان كريم باقري، زميله في الفريق، يُقيم في شقة صغيرة مريحة مجاورة لشقة علي مع زوجته الشابة، ليلى، ولم يكن أمام علي من خيار إلا أنْ يعرّفني إليهما. ودعاهما إلى تناول طعام العشاء على شرفي في الخارج، لكنّه أخبرهما أني صديقة قريب له، وأني أتيتُ إلى ألمانيا لأنتظر إجراء مقابلة في السفارة الأميركية من أجل الحصول على تأشيرة. وبدا أنهما صدّقا ذلك - على الأقلّ لم يطرحا عليّ أي سؤال.

كانت ليلى فتاة ريفية من تبريز، حيث عاشت طوال حياتها إلى أنْ حطَّ الحظ على كتفيها هي، وتزوجتْ لاعباً شهيراً من بلدتها. ومن أجل الخروج إلى مطعم إيطالي ارتدتْ ثوب سهرة من الساتان الوردي ووضعتْ عمامة على رأسها ورصّعت شَعرها الأسود المتموّج بأحجار كريمة برّاقة. وكنت أجلس مع علي في السيارة نضحك معاً عليها حتى تألّمتْ خاصرتانا.

ولكن على الرغم من أننا كنا نسخر من ليلى، كان يُعاملني كأني سكرتيرته الخاصة. وفي الأمسيات، لدى عودته من نادي كرة القدم، كان يضع كيساً كبيراً مملوءاً بالفاكسات والرسائل على الأرض لكي أفرزها له. وكانت دائماً مملوءة برسائل من نساء شابات، تتضمّن صوراً لهنّ، يتوسّلن إليه كي يتزوج بهن. وبعضهن كتبن يقلن إنَّ لهنّ آباءً

أثرياء، والبعض الآخر كتبن إنهن يرتدين الحجاب وإنهنّ ربات بيوت صالحات. والقسم الأكبر كتبن يطلبن منه أنْ يُرسل إليهن نقوداً أو هدايا. كوّمت الرسائل المُجعّدة وجلسْت بائسة أُحيطُ رُكبتيّ بذراعيّ.

لم أفهم لماذا لحقتُ به بتلك السهولة إلى ألمانيا أو لماذا أشقُ طريقي بصعوبة وأخوض في الثلوج لكي أذهب في كل يوم إلى السوبرماركت دون تردُّد، كل ذلك لكي أطبخ له يخنة الباذنجان أو يخنة الدجاج على العشاء. كنتُ أقضي ساعات مع أمي عبر الهاتف، أطلب منها وصفات حساء الأعشاب ويخنة الأعشاب الخضراء. هل كان من المفترض أنْ أكون سعيدة بتلك الحياة؟ لقد حلمتُ بعيش حياة رجلٍ شهير، كالنجوم الذين يظهرون في مجلات مثل "**أوكيه**" أو "**هللو**". حسبتُ أننا سنخرج معاً في كل ليلة ونعيش حياةً رومانسية، كالخيال. ولكن لا شيء كان رومانسياً – فهو لم يُقدِّم إليّ أية هدية ولا حتى اصطحبني لمشاهدة فيلم سينمائيّ. وبيني وبين نفسي، أصبحتُ مُدبّرة منزله إلى جانب كوني عشيقته.

لم يكن مُقدّراً لنا أنْ نرتبط. كنا نرغب في عالَمين مختلفَين. هو توقّع مني أنْ أكون امرأةً شرقية مُطيعة أقصى سعادة لها في حياتها الزوجية هي أنْ تُعدّ وجبة العشاء لزوجها وتنظّف منزله. ومع ذلك لم يكن يتحدث كثيراً عن "الزواج" أو حتى عن "الارتباط". كان يكره عملي وطلب مني أنْ أترك الكتابة الصحافية إلى الأبد. لقد أراد أنْ يُحوِّل حياتي إلى سلسلة من غسل ملابسه للتدريب وكيِّها. كنا نتشاجر حول حرق يخنة الباذنجان فيقول "أيّ نوع غريب من الأطعمة هذا؟ لمَ لم تتمكني من صنع شيء أفضل منه؟"

بكيتُ عندما أخبرته أني أريد أنْ أعود إلى وطني إيران، لكنه لم يُجِب. وفي محطة القطار حاولَ أنْ يضع مبلغاً من المال في يدي.

"لا أريد، حقاً، لستُ في حاجة إليه. شكراً على حُسن استضافتك. حفظك الله."

أخيراً بدّلتْ أمي من نبرة صوتها. "كامليا، لقد اتّصلَ علي بنا أمس وسألَ عنك. لم أُعطِه رقمك."

"ماذا قُلتِ له؟"

"لا شيء. قلتُ إنك لستِ موجودة. ثم قال مَنْ تظن نفسها، ابنتكِ هذه؟ وإنَّ لديه ألف فتاة تلاحقه. عندئذ قلت له إنكِ لستِ إحداهن، وإنَّ عليه أنْ يسعى وراء الفتيات اللائي يُلاحقنه."

* * *

حكيت حكايتي، وأنا أسمع مُستجوبي يسير جيئة وذهاباً خلفي. وعندما انتهيت، قال بصوت حزين "اللعنة على أمك لأنها أرسلتكِ إلى ألمانيا وعار على علي داي، المُحترَم والورِع."

كانت لائحة أسماء السبعة والستين رجلاً أمامي، ملفاً ثقيلاً من الإثم، وابتسمت لرؤية اسميْ عمي بيزان ومانوشهر مُدرجَين مع بعض أصدقاء والدي القُدامى. من الواضح أنهم ببساطة جمعوا أسماء كل رجل مُدرَج في دفتري الخاص بأرقام الهواتف، بغضّ النظر عما إذا كانوا مرتبطين بصلة قُربى أو متقاربين في السن ولو من بعيد. قلت "أنا شديدة الأسف، ولكن يجب أنْ أخبرك أنَّه حتى اسم عمي مُدرَج هنا!" فأجاب ببرودة "وماذا في هذا؟ إنَّ أي شيء يصدر عنكِ ممكن."

الفصل السابع

زهر الخزامى ينبت من دماء الشبان

أواخر الثمانينيات

كنا واقفتين أمام دكان حلويات "الشقائق" في شارع شهر آرا، عندما تصادف أنْ تقابلنا مع والدة كريستيان. استفزتني بسؤالها "هل أصبح لصوصَيك منقاران؟". لقد أرادتْ أنْ تعرف إنْ كان صدري قد بدأ يبرز. قطّبتُ ما بين حاجبيّ وتظاهرتُ بأني لم أسمع. فالتفتَتْ إلى أمي وقالت "متى بدأتْ تأتيها الدورة الشهرية؟"، رمقتها أمي بنظرة حادّة. كان أقرباؤنا وأصدقاؤنا كلهم يلحّون في طرح السؤال نفسه. وفي إيران، كما في العديد من بلدان الشرق الأوسط الأخرى، تُعتَبَر هذه قضية كبرى. فعندما تأتي الدورة الشهرية للفتاة أول مرة، لا تعود طفلة ويجب عليها أنْ تتصرف كامرأة. وهذه ليست عملية سهلة. فهم لا يُثقفونكِ على الإطلاق بهذا الشأن في المدرسة، ولكنَّ الأمر يُناقش بصراحة بين النساء ضمن العائلة، على الرغم من أنَّ الفتيات يُحرجن

من فتحه بأنفسهن. لكنَّ أمي ببساطة لم تكن تعرف الجواب – لقد رفضتُ أنْ أُخبرها.

كنتُ في الرابعة عشرة، وكنا نتشاجر باستمرار. فلم تكن أمي قادرة، لسبب من الأسباب، على التحدث بصراحة عن ولوج عالم الأنوثة. وعندما أتتني الدورة الشهرية، بوغتُّ، وانتابتني الحيرة والغضب، كطفلة تركت أمها يدها وسط الشارع وفرّتْ هاربة. شعرتُ بأني أصبحتُ ضعيفة وعاطفيّة، ولم تبدُ أنها فهمت ما يحدث لي، أو إن كانت قد فهمت، فإنها هزّت كتفيها استخفافاً وقالت لنفسها "سوف تتحدث عن الأمر عندما تصبح مستعدة". وكلما طال الصمت حول الأمر، اتّسعت الهوة بيننا أكثر. كنتُ أسمع ثرثرة النساء كلها في المطبخ. ولم أكن أجيب أحداً، ولا حتى أختي كاتايون، وأبقى متجهمة الوجه، عندما يسألنني "ألم تأتكِ بعد؟". وأرسلوا قريبتي إلهام إليّ في مهمة لتسألني سراً، لكني كذبت. "كلا، ولا تسأليني مرة أخرى". كانت أمي هي الحريصة على أن تعرف.

لم أكن مُضطرة بعد ذلك إلى تقاسُم غرفة واحدة مع كاتايون، وفي غرفة نومي، كنتُ أكتب الشِعر، وأرسم، وأقرأ روايات دافني دو مورييه[1]. وكان حصولي على غرفة خاصة بي يعني أنَّ التخلّص من فوطي الصحية في كل شهر لم يعُد مشكلة. كنتُ أُخفي معظمها في صندوق داخل خزانة ملابسي. وكانت أمي وكاتي تحتفظان بكمية

1 – دافني دو مورييه (1907–1989): روائية رومانسية إنكليزية. بدأتْ شهرتها مع صدور رواية "ريبيكا" عام 1938، و"الطيور"، اللتين تحولتا إلى فيلمين شهيرين من إخراج ألفريد هيتشكوك، و"نُزُل جامايكا" و"هنغري هيل" وغيرها. المترجم

من الفوط النظيفة في الحمّام، لكني لم أكن أستخدمها. كنتُ أطلب من صديقاتي أنْ يشترينها بالنيابة عني، وكنّ يهززنَ رؤوسهن تعاطفا معي. وأحياناً كنتُ أستعمل المناديل الورقية، وأحشر القذرة منها داخل حقيبة المدرسة ثم أرميها سراً مع سروالي الداخلي الملوّث إلى ركام القمامة وأنا في طريقي إلى المدرسة. حتى غسل سروالي الداخلي كان يمكن أنْ يفضح سرّي. كان ماء البلوغ البارد لا يكف عن التدفق. وفي الختام، كفّت أمي عن التطفّل، ولكن ماذا كان من المفترض أنْ أفعل بعلبة الكرتون الكبيرة المملوءة بالفوط المُستعملة؟

ذات يوم استقبلني صوت أمي لدى عودتي إلى المنزل، كالمعتاد، وهي تصرخ. ولكنها في ذلك اليوم لم تستقبلني بأمري بأنْ أغسل يديّ ووجهي. كان السيد محمد، مُدبر المنزل الأسبوعي، جالساً في المطبخ يأكل وجبة غدائه. "أيتها القذرة، ألا تخجلين من نفسك؟ إنك تُحسنين عمل كل شيء ما عدا هذا الشيء الوحيد؟". كنتُ جاهلة تماماً سبب صراخ أمي. فقبضت عليّ من يديّ وجرّتني نحو غرفة النوم. في أول الأمر ظننتُ أنها قرأتْ دفاتر أشعاري واطّلعت على بعض من أشواقي السريّة. توقفت عند مدخل الباب، وتجمّدت. كانت الفوط الورقية المُدمّاة التي كنتُ أُخفيها كلها مُكوّمة في وسط الغرفة. بدتْ مختلفة في وضح النهار. لقد تغيَّر لونها. شعرت بخَدَر في جسمي، وكأني كنتُ أقف عارية والجميع يضحك مني. "لقد فتح السيد محمد دولاب الملابس لكي يُنظّفه، فناداني وقال إنه تفوح منه رائحة حيوان ميت وإنه ربما هناك جرذ ميت داخله. عظيم، أنتِ مجرّدة من أي حسّ باللياقة! ولكن أنا التي كدتُ أذوب خجلاً وأنا واقفة أمام السيد محمد!"

ذهبت، ولا أزال أحمل حقيبة المدرسة وأرتدي الزيّ المدرسي، وجلستُ في الفناء، غاضبة كنمر جريح وقع في فخ. حلمتُ بالهروب. ولكن إلى أين؟ ماذا ينبغي أنْ أقول؟ ولماذا يُفترَض بي أنْ أقول أيّ شيء؟ جلستُ على مدى أربع ساعات وحدي بائسة بينما الثرثرة تنتشر في أرجاء بنايتنا. ووصل النبأ إلى سمع والدي والسيد بايات عبر والدة جينوس، خانم بايات. وقررا أن يرميا الصندوق في القمامة أمام المنزل، وهكذا يأتي الناس ويدوسونها ويتعثرون بها، وتسوء حتماً سمعة البناية كلها. وبعد هبوط الليل، حفر والدي مع السيد بايات حفرة في الخارج ودفناه. وهكذا، ليس فقط أمي، بل مُدبِّر المنزل وبنايتنا كلها، كشفت سرّي.

* * *

سئمنا الحرب وغلاء المعيشة، وبدأنا نتوق إلى أيام ما قبل الثورة. والمواد التي كانت ذات يوم شائعة أضحت الآن تُشتهى كأنها وسائل ترفيه – الشوكولاتة، والموز، والأناناس، واللبان. كنتُ أسأل كاتي "أتذكرين كيف كنا نجلب عربة بائع زهر الخشخاش إلى شارعنا؟". كنا ننزع الطرف الأخضر عن الأزهار، ونُسقِط بذورها الصغيرة التي تشبه حبات اللؤلؤ في طاس، ونُضيف مقدار ملعقة من السُكّر، ونأكلها. وسال لعابنا على الذكرى. واستحضرتُ في ذهني نكهات لم أتذوقها منذ سنين، ولن أنساها أبداً. كان كاي خُسرو قد وُلِدَ بعد ذلك بكثير ولا يتذكّر تلك الطيبات، لكنه كان يرى لعابي السائل فيقول "أريد منها!"

كان كاي خُسرو قد اكتشف مذاق الموز بفضل هدايا جارنا السابق السيد قاريخانيان، الذي كان مهندس طيران في شركة إيران إير. كان دائماً يجلب شيئاً مُبهجاً من رحلاته - علب الشوكولاتة السويسرية، مجلات الموضة وعطوراً من باريس لأمي، وموز تشيكيتا لكاي خُسرو. كنا نُضطر إلى الاقتصاد في الكمية القليلة لكي لا يبدأ كاي خُسرو بالإلحاح على السيد قاريخانيان قبل القيام برحلته التالية. كان يبكي ويتوسل أمام والديّ ليحصل على الموز. ويقول والدي "إياك أنْ تذكره بالاسم. سوف يبدأ بالبكاء". ومرّت السنون و لم تكن تجد خلالها موزة واحدة في أي دكان. كانت البحرية الأميركية قد حاصرت موانئ الخليج الفارسي؛ و لم يُسمح لأية سفينة شحن بالرسو في موانئ إيران. والأهم من ذلك، فضّلت الحكومة أنْ تُنفق المال على المواد الأساسية بدل الموز أو باقي الكماليات. كانت إيران معزولة سياسياً واقتصادياً، وكنا نشكر ربّنا عندما نتمكن من ادّخار الأشياء الأساسية اليومية.

وذات يوم مُثلج، رأيتُ بائعاً يحمل موزاً عند إشارة التوقف عند تقاطع طرق على أوتوستراد. ورحت أنا وكاي نقفز فرحاً ونحن خلفه، ونصرخ "موز! موز!" إلى أنْ أوقف والدي السيارة على جانب الطريق ونادى على البائع الفتى. قال الفتى إنه جلبه من باكستان. كان صغير الحجم، أعجف، أسود اللون وغالي الثمن بصورة فَلَكيّة وسعر الموزة الصغيرة الواحدة عشرين توماناً. ولكن بعد ذلك أصبحنا زبائن مواظبين للفتى الواقف عند تقاطع الطرق.

ملأتْ فوضى الثورة والحرب التي تلت طفولتنا بالمحن والندم. كان جيلي، مع بلوغه سن الثانية عشرة، يُصبح حاد الذكاء وساخراً - وكان

علينا أنْ ننمو بأسرع مما ينبغي. وفي فترة المراهقة أصبحت أيام غسل الأدمغة من الماضي. واتّضحَ لسوء الحظ أننا نحن "أطفال الثورة" لم نكن متحمسين كثيراً للثورة. لقد تعلّمنا بالأسلوب الصعب كيف نعيش تحت سطوة القانون الإسلامي.

من بين الأوامر والنواهي والمُحرّمات، كان أصعب الأشياء التي يجب قبولها هو تلك الأزياء المدرسية الشنيعة. فالمعاطف كانت مفرطة الطول وتصل إلى ما تحت الرُكبة، والبنطلونات المتلائمة معها يجب أنْ تغطّي أعلى الحذاء، وكنا نضع حجاباً طويلاً يصل حتى المرفق. وكان علينا أنْ نطوي إلى الأعلى أطراف الساقين لكي تقوم نائبة المديرة بالتفتيش. فإذا صادفَ أننا كنا نرتدي جورباً أبيض اللون أو بلون الكريم، تؤنبنا بعنف، وتنال العقوبة درجاتنا في مادة السلوك. كان على جواربنا أنْ تتناسب مع لون الزيّ القاتم، الذي هو دائماً إما بُنيّ أو أزرق غامق. حتى اللون الأسود كان مُستبعداً. كانوا يعلمون أنَّ اللون الأسود أنيق وجذّاب. ولهذا كان ممنوعاً ارتداء السواد حتى في الحداد.

كانت مدرّسات شؤون التربية يقاطعن سياق الدرس دائماً لكي يجعلننا نرفع أخمرتنا، ويتفحّصننا ليرين إنْ كنا قد نزعنا شعر حواجبنا أو صبغنا شعرنا. وكنتُ أول مَنْ تُستدعى إلى المكتب بتهمة العصيان. كان شعري لامعاً برّاقاً، ولم يكنّ يُصدّقن أنَّ هذا هو لونه الطبيعي. وتُستدعى أمي إلى مكتب المديرة، فتطلب منهنّ بغضب أنْ ينظرنَ جيداً إلى جذور شَعري. ثم أعود إلى صفي، وبعد ذلك ببضعة أشهر ينسين ما جرى، وتبدأ الشعائر كلها من جديد. ولم يكن يُسمح لنا بجلب صور عائلية إلى المدرسة؛ بل لم يكن في استطاعتنا حتى أنْ

نحتفظ بصور والدينا في محافظنا. وكان ممنوعاً علينا أنْ ننتعل أحذية ذات ألوان برّاقة. وكانت منتجات التجميل ومرايا التجمّل مُحرّمة. وكانت زميلاتنا في الصف ممّن ينتمين إلى الرابطة الإسلامية يفتّشننا يومياً. أولئك الجاسوسات لهيئة "أمور التربية" كنّ يُعلّقن قطعة قماش مُشمّع ثقيلة على الجهة الداخلية من مدخل المدرسة، وفي صباح كل يوم تتمركز خمسٌ منهن أو ست هناك مع اثنتين أُخريين على جهتيْ المشمّع من أجل ضبط كل مَنْ تحاول التسلل سرّاً. كنّ يفتشن حقائبنا ودفاترنا وأكياس الغداء البلاستيكية وجيوبنا وتحت أخمرتنا وداخل أحذيتنا، وأخيراً يفتشن أجسادنا لكي يتيقّنَ تماماً من أننا لا نحمل أية مادة خطيرة كأحمر الشفاه. كنَّ يُصادرن كل ما يعثرن عليه ويقرأن ما كُتِبَ على أغلفة دفاترنا، ودائماً مع ابتسامة خبيثة، لكي يتأكّدن من أننا لا نُطلق عليهن ألقاباً زائفة. ومهما أوغلتْ فتيات البوابة في البحث داخل حقائبنا، كنا دائماً نجد طريقة جديدة لإخفاء المواد المحظورة، كالصور العائلية في حفلات أعياد الميلاد أو الأعراس، أو صور مُقتطعة من مجلات أو لمشاهير من الغرب أمثال مادونا أو مايكل جاكسون. في ظل هذه الظروف، كيف كان يمكن أنْ أهتم بدراستي؟

كان والدي يكتب وظائف الإنشاء كلها نيابة عني. دائماً. وكانت علاماتي دائماً تتراوح بين 17 و18 من 20. وذات ليلة، وأنا في سنتي الثانية من مرحلة الأحداث العالية، كنتُ في انتظار عودة والدي إلى المنزل لكي يكتب لي واجبي المدرسي كما واظب على أنْ يفعل منذ أعوام طويلة. ولكن اتّضح أنه اضطرَّ إلى البقاء في مركز العمل حتى وقتٍ متأخّر. وعلى مدى نصف ساعة، رحتُ أذرع أرض الغرفة.

وأخيراً، توصّلتُ إلى نتيجة مفادها أنْ أقوم بنفسي بكتابته. كنتُ قارئة نهمة؛ وقرأتُ تقريباً محتويات مكتبة المدرسة كلها، وكنتُ طالبة جيدة في مادة قواعد اللغة وفي اللغة الفارسية. كنتُ أعشق القراءة؛ أقضي فصل الصيف كله في قراءة الروايات ودواوين الشِعر، لكني لم أكن قد اكتشفتُ بعد كيف تُلهم القراءةُ الكتابةَ بأسلوب أفضل.

في حصّة الإنشاء، كان يُفترَض بنا أنْ نُحضر دفاترنا إلى السبورة ونقرأ بصوت عالٍ. وللمرة الأولى، قرأتُ عملاً من إنجازي، وصفقَتْ لي الطالبات جميعهن. ومنحتني المدرّسة، خانم الله ياري، علامة 19. وارتابت في الأمر، وقرّرتْ أنْ أكتب في الأسبوع التالي واجبي المدرسي أمامها. وكتبته وحصلت على 20! وقال والدي "الحمد لله لأني لم أعُد مُضطراً إلى كتابة مواضيع الإنشاء بالنيابة عنك."

بعد أنْ وجدتُ الثقة الكافية في نفسي لأكتب واجبي بنفسي، بدأتُ أؤلف الشِعر. وذات يوم، في بداية العام الدراسي، أعطتني مُدرّسة الأدب الرائعة، خانم شهرودي، مُغلّفاً مدفوع الأجرة مُعنوناً إلى مكتب بريد في طهران. "كامليا، أظن أنكِ إذا حصلتِ على شخص يوجّهك توجيهاً جيداً، يمكن أنْ تُصبحي كاتبة وشاعرة رائعة. هناك في "نادي الكتابة الإبداعية وتطوير الفكر للأطفال والبالغين" مركز يُدعى "إبداعات أدبية" حيث يطّلعون على الكتابة الإبداعية للفتية ويزوّدونهم بالنُصح والإرشاد. يجب أنْ تراسليهم وتخبريني بالنتيجة."

توهّجَ المغلّف بين يديّ كورقة يانصيب رابحة. بالنسبة إليّ، كانت بمثابة بطاقة سفر إلى الجانب المقابل من العالم. كنتُ من فرط السعادة بحيث لم أتمكن من السيطرة على نفسي. وفي المنزل، رحت أنتقي منتخبات

من دفاتر مقطوعاتي الشِعرية وأنسخها على ورق أفضل لكي أُرسلها بالبريد. كانت قصائد عن الحب وجمال الطبيعة، والسماء والبحر والغابة، وتعبيراً عن حبي لله، ألهمني بها شِعر الشاعرَين الإيرانيين المعاصرَين الشهيرَين فروغ فروخ زاد وسُهراب سبهري.

في أول الأمر، لم يُنظَر إلى مراسلاتي بجديّة حقيقية في المنزل. ولكن كنتُ أُرسل إلى المركز رسالتين في الأسبوع، بانتظام صارم. وكانوا يقرأون عملي الجديد ثم يُعيدونه داخل مُغلَّف أبيض مُرفقاً بنقد. بعد مرور شهرين من هذا النظام أصدر والداي إنذاراً: "سوف نمزّق أية رسائل تأتيك من المركز في الحال. لقد انتهى زمن الشعر. وأنتِ في حاجة إلى أنْ تقضي وقت فراغك في إتمام دروسك. في هذا العام ستتقدمين للامتحان الختامي". ذُهِلت عندما حصلتُ على علامة 20 في امتحان المقالة النهائي، وامتدحت المديرة كتابتي أمام والديّ، "يجب أنْ ترعيا موهبة ابنتكما بجديّة". لكنَّ أمي تنشقت باستخفاف وقالت "ولكن ما أهمية هذا إذا نالت علامة 17 في العلوم!"

في صيف ذلك العام توفّر لديّ من الوقت ما يكفي لممارستي السريّة لكتابة الرسائل. كانت نافذة غرفة نومي تواجه الفناء، كنتُ أُصيخ السمع، في انتظار أنْ يصلني صوت ساعي البريد. وحالما أسمع هدير دراجته النارية، أفتش عن عذر للخروج، وأتسلم الرسالة منه وأحشرها في سروالي الداخلي. ومع مرور الأشهر، أصبحت رسائل المركز تُرفَق بمراسلات مع أصدقاء من الكُتّاب كنتُ قد قابلتهم من خلال المركز، الذي كان يُتيح لنا أنْ نتواصل بعضنا مع بعض لكي نقرأ مراجعات أعمال أقراننا. لم يكن في ملابسي متّسع لإخفائها كلها. وعلى امتداد

السنتين التاليتين، كانت الرسائل التي تصلني من صديقتي الرائعة أماندا، التي تعيش في عبدان، مدينة البترول في جنوب إيران، تصل في طولها أحياناً إلى ست عشرة أو عشرين صفحة، على الرغم من أنَّ ردودي لم تكن تبلغ حتى طول أقصر رسائلها. ولكي أُبقي الرسائل بعيداً عن براثن أمي، كنتُ أقفز من النافذة إلى الفناء، وأتلقى الرسائل وأرتقي بسرعة عائدة إلى غرفتي.

"يكفي أدباً!" وهدّدتْ أمي بالطلاق من أبي إذا سمح لي بالانتساب إلى "مدرسة العلوم الإنسانية العليا". لذلك وافقتُ على مضض على الانتساب إلى "مدرسة العلوم التطبيقية العليا" التي تسمّى فايزبخش. ولكن عندما سُئلتُ في الصف عن المجال الذي أودّ أنْ أكرّس نفسي له في المستقبل، أجبت "الصحافة". وكنتُ قد وقعت صريعة هوى قراءة الصحف. كنتُ أقرأ الصحيفة اليومية من الألف إلى الياء، حتى الإعلانات المبوّبة وصفحات النعي.

في أثناء الحرب، حدّدنا عدد الصحف التي ننتقي منها، وغالبيتها من صحف الحكومة المُحافِظة: "**كيهان**" (العالم)، "**فكر**"، "**جمهوري إسلامي**" (الجمهورية الإسلامية)، "**أبرار**"، "**رسالت**". اشتركنا في صحيفة "**كيهان**". كانت العناوين الرئيسة مُكرَّسة لآخر أخبار الجبهة: جدول بتحركات تقدّم جيش الإسلام وتقهقر العدو المارق، وأعداد الجنود العراقيين الذين قُتِلوا وأعداد البعثيين الذين أُسِروا، وجنازات الشهداء بعد صلاة يوم الجمعة من أمام جامعة طهران. ثم يملأون الصفحات الباقية بأخبار أمس المُكرَّرة، فيما لا يُذكر أيّ شيء عن الأخبار الأخرى – فلا أخبار عن احتلال كربلاء. وبدا أنَّ الحرب لن

تنتهي أبداً، والصحف لا تأتي على ذكر أي شيء عن توقّع هزيمة العدو أو عن السلام.

كانت هناك شبكتا بث تلفزيوني تابعتان للدولة. ولا فرق إلى أيّ القناتين تتحول - كلتاهما تبث حديث الملاّ الممل عن الدين أو أهانغران، أشهر مَنْ يتحدث عن جبهات الحرب، وهو يندب. ومن خلفه مجموعة من المتشحين بالسواد يصرخون "يا حُسين!" ويضربون صدورهم، وهو ينشد:

إنَّ الطريق إلى تحرير القدس يجب أنْ يمر بكربلاء
حيث يستريح ذلك الرأس المقطوع
إلى الأمام، أيها الأسد المحارب!
انتزع وطنك من العدو!

كان والدي يُطفئ جهاز التلفاز ويلعن العالم الذي قيّدنا بقناتين بالأبيض والأسود. وقال إنَّ ذلك يعود إلى أنَّ العمائم لا تتألّف إلا من هذين اللونين. "فإما أنْ تكون بيضاء أو سوداء". في أيام الجمعة، بينما والدي يشوي الكباب على المشواة في الفناء الخالي وسيجارة في فمه، يهتف "كامليا، ارفعي صوت المذياع!"، ونصغي جميعاً بانتباه إلى خطب صلوات يوم الجمعة. ويظهر الطعام على المائدة وسط تكبيرات "الله أكبر" الصادرة عن "وزير التكبير"، (كما كان والدي يُسمّي مَنْ يُكبِّر في أيام الجمعة). وأطلب من كاتي أنْ تناولني وعاء الزبد، وأضع كتلة كبيرة منه تحت الأرز الأبيض في طبقي. ويتحدث رفسنجاني، المتحدث باسم المجلس (ولاحقاً رئيس إيران)، عن الاستكبار العالمي. وأتجاهل شدة حنق أمي وأزيل كمية كبيرة من أوراق الحبق من بين المواد الخضراء

الأخرى. وكانت دائماً تقول لي "إنَّها خضروات صالحة للأكل، ولا ينبغي رميها. ضعي حفنة منها في طبقك وكليها كلّها."

ونأكل طبق "اللحم المشوي" في صمت ونُصغي إلى خطبة الجمعة. وحالما يُعاودون التكبير "الله أكبر" من جديد، نقفل المذياع ونحاول أنْ نُخمّن الحقيقة وراء تصريحات الملالي. وقد نُخمّن أنَّ قسماً منها هو سلسلة من الأعذار لارتفاع أسعار الوقود، أو قد نعتقد أنَّ هناك محادثات سرية تجري خلف الكواليس مع الولايات المتحدة، وأنَّ الحكومة لن تسقط، وأنَّ الحرب ستبقى على حالها. وإذا ورد أي ذِكر لنساء مهملات في مظهرهن، نعلم أنه في اليوم التالي سيقوم أفراد مُسلحون من الميليشيا على متن دراجات نارية باجتياح مفاجئ لمراكز تسوّق ومطاعم. وسوف يمنحهم إمام صلاة يوم الجمعة المُبرّر اللازم للهجوم.

مرت سنون عديدة منذ اندلاع الحرب مع العراق ثم أُضيفَتْ إلى لغة "لاجئو الحرب" و"الشهداء" التي أضحت مألوفة، عبارة جديدة إلى قاموسنا: "ضحايا الأسلحة الكيميائية". كانت قلوبنا تنقبض لمرأى الصور الرهيبة لضحايا قُتِلوا أو شُوِّهوا بصورة فظيعة على يد صدّام حسين في أثناء الهجمات بالأسلحة الكيميائية عام 1988 على حلبجة. ولم يكن الهدف فقط الجنود الإيرانيين. كنا خائفين. كيف يمكننا أنْ ندافع عن أنفسنا إذا تعرّضنا للهجوم؟ ورحنا نُصغي بقلق إلى التحذيرات التي تصدر عبر المذياع. كنا نعلم أنَّ لغاز الخردل رائحة زكية، فإذا شممنا رائحة زكية فعلينا أنْ نسد أفواهنا وأنوفنا بمنشفة مبللة ونغلق النوافذ والأبواب ونسد المنافذ والشقوق كلها لكي ننقذ أنفسنا.

في طهران، لدينا طريقة خاصة للتعامل مع كل شيء.

كانت العائلات تُرسل أبناءها إلى خارج البلاد بأية وسيلة مُتاحة. وكان الحرس الثوري يستوقف الشبان في الشارع ليتحققوا من هوياتهم، وليبحثوا عن منشورات مكتوبة باليد. كان بعض الآباء يُرسلون أبناءهم عبر الحدود بصورة نظامية قبل أنْ يبلغوا السن القانونية. وآخرون كانوا يُهرّبونهم إلى الخارج؛ فينتقلون من مخبأ إلى آخر في القطارات والطائرات، متخفّين على هيئة أكباش بين قطعان الغنم، إلى أنْ يصلوا الأراضي التركية. وقد أُرسِل ابن عمي أوميد إلى إنكلترا قبل أنْ يبلغ السادسة عشرة، وابن مينو خانم علي، وغالبية صديقاتي في المدرسة، وجيراننا اليساريين القُدامى، نيما وماني واقدي، خرجا من إيران بأمان. ولكن ليس الجميع كانوا محظوظين هكذا. فالبعض قُتِلوا وسط تبادل لإطلاق النار بين شرطة الحدود والمهرّبين، بينما آخرون اعتقلوا أحياءً وأُرسِلوا إلى السجن ثم انتقلوا ليؤدوا الخدمة العسكرية.

الطريقة الأخرى لتفادي أداء الخدمة العسكرية كانت الانتساب فوراً إلى الجامعة. لكنَّ شهريار ناخئي، قريبي الثالث، كان في السنة الختامية من المرحلة الثانوية و لم يكن مجتهداً جداً. كان في العام السابق قد أعاد السنة، أي سُمِحَ له بإسقاط أدنى الدرجات، لكي يتمكن من دراسة العربية. وهذه الإعادة لا تُتاح إلا مرة واحدة. فاقترح نائب المدير أنْ يتطوّع للذهاب إلى الجبهة. وكان المتطوعون يتمتعون بمزايا خاصة في مجال تعليمهم، وهكذا انضمّ شهريار إلى الحرب تعويضاً عن درجاته المتدنية في اللغة العربية.

كادت أمه تُجنّ "لا تذهب! يا بنيّ، لا تذهب!". كان والد شهريار،

ساراهانغ إيراج ناخئي، آمراً في جهاز الشرطة في غرب إيران. وفشل بصورة محزنة في إقناع ابنه بأنَّ من الأفضل أنْ يفشل ويُطرَد من المدرسة على أنْ يُقامر بحياته. وكان شهريار طويل القامة ذا كتفين عريضتين. وفي عام 1986 سمعنا أنه شُحِنَ بالسفينة، ثم في الشهر التالي جاءنا نبأ يقول إنه جُرِح. ففي عملية جزيرة الفاو، ضرب صاروخ قارب فرقته، فسقط الجميع في المستنقعات المحيطة بالجزيرة. وأُصيب في ظهره، وتسبّبت مياه المستنقع بإصابته بالتهاب. وفقد شهريار ساقيه الاثنتين. واحدة بُتِرَتْ من فوق الفخذ، والأخرى من موقع أدنى بقليل. كان شيئاً مرعباً. وبكينا جميعاً، حتى الذين لم يعرفوا اسمه، عليه.

لم أره بعد ذلك إلا بعد مرور أعوام في أثناء تجمّع عائلي في منزل العم منوشهر. كان شهريار قد نمّى لحية ويرتدي ما يشبه المعطف أخضر اللون يلبسه عادة عناصر الباسيج (التعبئة) والحرس الثوري. كان يمشي من دون الاستعانة بعصا للمشي. وأخبرنا عمي أنهم ثبّتوا له ساقين اصطناعيتين وأنه يحصل على راتب من مؤسسة الجرحى. وعندما جلس على مقعده، رأيتُ بلاستيك أحمر برّاقاً في الفجوة الكائنة بين ساقيْ بنطلونه وجوربه. وجاهد عقلي بكل طاقته كي أتخيّل أني مُعاقة. وتساءلت كيف يمكن لحدث واحد أنْ يُغيِّر حياة المرء إلى الأبد.

ثم أخبرني والدي أنه يبدو أنَّه سوف يُضطر إلى قضاء بضعة أشهر أخرى على الجبهة، لكي يتمكن من الاحتفاظ بعمله. وباشر في حضور دروس التدرّب على إطلاق السلاح الناري التي أعدّتها الرابطة الإسلامية لمصنع "الحليب النقي". وعثرتُ على موجز تلك الدروس، وقرأت عن كيفية استخدام السلاح الفردي، فغاص قلبي بين أضلعي.

لقد سئمتُ الموجزات والحرب والموت. لماذا ينبغي على والدي أنْ يُقاتل؟ لم يكن جزءاً من كل ذلك الموت، لم يكن ينتمي إلى ثورة الخميني.

قلت "بابا، هيا، دعنا نهرب". سألني والدي، مذهولاً، "أهربُ ممَّ؟"، ونظر إليّ متعجباً. خجلتُ من النظر في عينيه وقول "فلنهرب من أجلك، لكي لا تذهب إلى الحرب وتُقتَل"، وبدل ذلك ناشدته، "ما أعني هو أنْ نغادر إيران". حدّقَ والدي إلى المدى البعيد وأجاب "وماذا نفعل في أي مكان آخر؟ هذا بلدنا. إلى أين سنذهب؟". لحسن الحظ، لم يُستدَع إلى الجبهة أبداً.

توقف قصف طهران سنوات عِدّة في وسط الحرب، على الرغم من أنَّ حالة الإنذار الأحمر كانت لا تزال تُعلن في المدرسة. ثم ظهر عمّال البناء وحفروا حفرة هائلة في وسط فناء المدرسة الفسيح، تحولت إلى ملجأ تحت الأرض ذي سقف من الاسمنت المسلّح السميك. كانت هناك أربعة مطالع للدَرَج تؤدي إلى داخله، وكنا نتسلل إلى أسفله لنتفقّد. وتقول أمي "إياكم والهبوط إلى هناك في أي حال من الأحوال. إذا سقط صاروخ، فسوف تُدفنون جميعاً تحت الأنقاض. إنها غير مُزوّدة بمنافذ للتهوية. سوف تختنقون جميعاً."

كان الملجأ نذيراً بأنَّ أسوأ الأيام لم تأتِ بعد. وبعد مرور سبعة أعوام على بدء الحرب، وفي أوائل شهر آذار من عام 1987، وقبل حلول عطل عيد النوروز بثلاثة أسابيع فقط، عادت طهران لتُصبح هدفاً للقصف. كنا نستيقظ على اهتزاز هدير انفجار القذائف الهائل. كانت إذاعة صوت العراق تُنذر بأنهم سيظلون يهاجمون إلى أنْ يُقوّضوا نظام

الملالي. وحالما تظهر الصواريخ على شاشة الرادار، تُعلن وزارة الدفاع عن حالة الطوارئ العامة، لكننا لم نكن نعلم أين سيضربون. ومع تدخّل الأمم المتحدة في الأمر، أغلقت المدارس كلها أبوابها، حتى نهاية ذلك العام تقريباً، عندما قدّمت مديرية التربية تبريراً بائساً لإلغاء امتحانات نهاية العام واعتبرت الجميع ناجحين. كانت كاتي في حاجة إلى النجاح لكي تتخرّج، وحصلت على شهادتها من دون أنْ تبذل أيّ جهد.

كانت عمتي توران تزور حيّها القديم عبر تقاطع طرق "حسابي" عندما انفجر صاروخ بالقرب منها. وعندما سمعنا النبأ أسرع أبي بالعودة إلى المنزل لكي يأخذنا ونذهب لنعودها. كانت متمددة على الأريكة مع زجاجة ماء ساخن. وكانت ابنة عمتي بيتا في أحسن حال، لكنهما غابتا معاً عن الوعي. وكانت يد عمتي مجروحة بشظايا زجاج، ومُضمّدة. أصغينا مبهورين بوصفها للهجوم. "ذهبت بيتا لتزور صديقتها بينما كنتُ أشتري البقالة. وعندما انتهيت ووجدتُ أنَّ بيتا لم ترجع بعد، توجهت إلى هاتف عمومي لكي أتصل بها... فسمعت صفارات إنذار الغارات الجوية، ووجدتُ أنَّ الجميع ينظرون إلى السماء. فرفعت بصري ورأيتُ شيئاً لامعاً بحجم برميل بترول آتياً مباشرةً نحونا، وغطّى هدير صفيره على كل شيء آخر. أصاب الذهول الجميع، وتسمّروا في أماكنهم. ثم سقط على بُعد أمتار مني، وبعد لحظة كانت النوافذ كلها قد تهشّمتْ، وضجّ هدير الانفجار". رفعت عمتي يدها الجريحة "وانبعثَ دخانٌ كثيف من الشارع المجاور. أردتُ أنْ أركض، ولكن شعرتُ كأنَّ قدميّ علقتا في الأرض ولم أتمكن من الحركة. كانت بيتا ثابتة في مكان وقوفها."

قاطعتها بيتا "عندما رأيته، تجمدتُ أنا ومورواريد. ثم أعطيتُ ظهري بحركة آلية للنافذة، وشعرتُ باهتزاز صدمة هائلة. وتقوّض الباب والنافذة والزجاج كله، وقُذِفنا إلى السرير... حسبتُ أني متّ. رفعتُ رأسي فرأيت أنَّ أُطر النوافذ والستائر قد سقطت فوقنا. وهناك، حيث كان منزل الجيران قائماً، اختفى كل شيء. كانت السماء تتلظى ناراً، والطنين يملأ أُذنيّ. نهضنا بحركة آليّة وانطلقنا نركض ونصرخ."

التفتنا نحو عمتي. "الجميع كانوا يركضون هاربين، فعدت إلى وعيي. رحت أصرخ "بيتا! بيتا!" وأنا أركض كالمجنونة. وانخلع حذائي من قدمي، لكني بقيتُ أركض. وسمعت صفارة سيارة الإسعاف عن بُعد. كنتُ أصرخ وأركض. ولم أشعر بوجيب قلبي. لم يعُد يصدر عنه أي صوت. فجلستُ حيث كنت على الأرض. كان مستحيلاً تبيُّن أي المنازل أُصيب، واكتفيت بالجلوس والبكاء."

زفرنا كل الهواء الذي كان سجين صدورنا عندما أنهت بيتا كلامها. "عندما كنتُ أركض كانت أُذناي ملتهبتين... ووجدتُ أمي جالسة على الأرض كغجرية، وتضرب رأسها."

ولولت عمتي "لا أدري كيف خرجنا من ذلك الجحيم. عندما رأيتُ بيتا، رحت أرتعش. وكأنَّ روحي تغادر جسدي وأنا هناك..."

بينما القذائف تنهال على طهران، كان الناس يُغادرون حشوداً - ليس للاحتفال بعيد النوروز، بل طلباً للأمان. وقُتِل عدد من معارفنا، وفررنا نحن أيضاً إلى دارةٍ في بلدة كرج تخصّ أقرب صديقة للعائلة، العمة ماهين. كانت حديقتها في حالة فوضى، والمنزل مزدحماً بلاجئين آخرين. ووسط كل ذلك الحشد، لم يبق

متسع لإبرة. نمنا متجاورين على الأرض. وعندما انطلقت صفارة إنذار الغارات الجوية، تجمّع مُعظمنا في الزاوية بينما خرج عدد قليل ليراقبوا الصواريخ تعبر سماء طهران. وبعد ذلك، بات الجميع يجلسون بجوار المذياع للإصغاء إلى بث إذاعة صوت العراق، أو صوت أميركا، أو بي بي سي، بالفارسية.

مكثنا في كرج طوال فترة ذروة الحرب الخطرة. ثم رجعنا إلى بيتنا، وحلّ الصيف الحارّ. وفي 18 من شهر أيار، عام 1988، سمعنا جارتنا تصرخ صراخاً مُدوياً صادراً من المدخل. وكالمعتاد، لم يكن الباب مُوصداً، ودخلتْ خانم بايات دون أنْ تقرع الباب. "انتهتْ! انتهتْ! خانم انتخابي فرد، الحرب انتهتْ!". وقف والدي مصدوماً، ولا يزال بملابسه الداخلية. أدرنا جهاز التلفاز. كان الخميني، كما ورد على لسانه، "قد تجرّع كأس السُم" ووافق على قرار الأمانة العامة للأمم المتحدة رقم 598. وهتفنا، "انتهت الحرب!". كان صعباً تصديق ذلك، لكنها انتهت في نهاية المطاف. وطوال فترة بعد الظهيرة، أخذ الناس يوزعون الحلوى في الشوارع. و لم نعُد في حاجة إلى القلق بشأن أخي الصغير، وقريباً سيعود الجنود إلى منازلهم.

ثم، بعد بدء هذه المناسبة المُفرِحة ببضعة أيام، سمعنا عن هجوم ضخم على حدود مدينة إسلام آباد غرب شنّه مجاهدو خلق، الذين كانوا قد أعادوا رصّ صفوفهم في ظل قيادة رجوي في العراق. وتحت مظلة حماية صدّام حسين، افتتح المجاهدون محطة إذاعة وشبكة بث تلفزيوني خاصة بهم وبدأوا ينفّذون أعمالاً إرهابية. والآن ها هم استغلوا اتّفاق وقف إطلاق النار واحتلوا إسلام آباد وتقدّموا نحو

حسّان آباد، ويقتربون من باختاران (وتُسمّى أيضاً كرمانشاه). وبعد ذلك بأربعة أيام سحقتهم القِوى الجوية وقوات الباسيج والحرس الثوري، وقُتِلَ جرّاء ذلك آلافَ المجاهدين على الأراضي الإيرانية. وعرض التلفاز صور الشبان والشابات الذين قُتِلوا. وسمَّى المجاهدون العملية "الإشعاع الأبدي" وسمّتها السلطات الإيرانية "الكمين".

وكان رد الخميني بذبح السجناء السياسيين، والمُلحدين، والمُجاهدين، والشيوعيين – حُرِقوا جميعاً بنار انتقامه. ومن جديد، جلس أفراد من عائلاتنا يجهشون بالبكاء حزناً على أحبائهم الذين أُعدِموا حتى دون أنْ يُسمح لهم بأن يحظوا بجنازة لائقة. وكان زوج إحدى قريبات والدي، الذي كان ضابطاً شيوعياً، من بين الذين أُعدِموا، بعد أنْ قضى سبع سنوات في السجن.

لم نُدرك فداحة عمليات الإعدام تلك إلا بعد ذلك بسنين عديدة، عندما نشرتْ منظمات حقوق الإنسان معلومات عن عمليات الإعدام الصامتة لآلاف السجناء السياسيين. ففي ذلك الوقت، سادت الفوضى. وفي أحد الأيام، بثّت الإذاعة الوطنية أنَّ الخميني حرم آية الله مُنتظري من خلافته، وقد اكتشفتُ لاحقاً (عبر مذكرات مُنتظري التي ظهرت على شبكة الإنترنت) أنه وجّه رسالة إلى الإمام بخصوص المذبحة. وفي صباح ذلك اليوم، عندما مررنا بميدان فاطمة، لاحظنا ونحن لا نكاد نُصدّق أنَّ اللوحة الجِدارية العملاقة التي تمثِّل مُنتظري قد اختفت بكل بساطة.

* * *

خريف عام 1987

"مستحيل. لا تُثيري هذا الموضوع. سوف يسلخ والدك جلودنا ونحن أحياء". كانت أمي تغسل الأطباق عند المغسلة، وكنتُ لا أكفّ عن النحيب.

"قلتُ لا تفتحي الموضوع". ثم صرخت "اخرجي من المطبخ!"

عندما يقول والدي لا، فهذا يعني أنَّ من المستحيل أنْ يبدِّل رأيه. الجميع قالوا إنَّ من غير الوارد أنْ يسمح والدي العنيد لابنته بالذهاب إلى مشهد وحدها في رحلة بالحافلة تستغرق أسبوعَين. كنتُ قد دُعيتُ إلى حضور "المهرجان الوطني للكتّاب والشعراء الشبّان". كان طلابٌ من أرجاء إيران كافة سيجتمعون في مشهد لكي يستمع كل منهم للآخر وهو يقرأ من أعماله. والمُدهش أنَّ العاملين في مدرستي لم يعترضوا بكلمة واحدة على الأمر، ولا بكلمة. في الواقع، لقد سُرّوا. ووعد "نادي الأدب الإبداعي" بتوفير الإشراف المستمر وتأمين أماكن للنوم، وبفصل الفتية عن الفتيات بصرامة، إلا في أثناء القراءات العامة.

لم يبقَ إلا والدي، ولم يكن قد بقي إلا ثلاثة أيام للحصول على توقيع طلب الموافقة. وخطرت على بالي فكرة نيِّرة – العم منوشهر! كان الوحيد القادر على التفاهم مع والدي. فذهبتُ إلى كشك الهاتف وفي حوزتي ريالان فقط ودعوته إلى الحضور. كان والدي أقرب إلى منوشهر منه إلى إخوته الأصليين. وكان منوشهر أكبر منه بحوالي خمس سنوات، وكانا صديقَين منذ عهد الطفولة. وعندما عارضتْ

عائلة والدي زواجه بأمي، كان منوشهر هو الوحيد الذي توجه إلى منزل جدّتي لكي يطلب يد العروس بالنيابة عن قريبه المفضّل، ومنذ ذلك الحين وهو ووالدي يدعم أحدهما الآخر دائماً.

على الرغم من أنَّ والدي لم يكن مُتديّناً، فإنه كان تقليدياً، و لم يثق بحكم الطبقة الاجتماعية الجديدة. لم يرِد لي، أنا ابنته، أنْ أخرج وحدي إلى العالم مع ذلك النوع من الناس. كان يعتقد أنَّ كل المفكرين، والمثقفين، والمتمدنين قد فرّوا هاربين أو قُتِلوا وأنَّ مُحدَثي النِعمة في مجتمع ما بعد الثورة هم مُدّعون يُثيرون الاشمئزاز. لم يكن يعرفهم، و لم يُرِد لنا أن نختلط بهم. كان يقول "لم يعُد أحد يحترم المرأة في هذا البلد. وينبغي أنْ تبقي بعيدة عن مثل هذا النوع من الناس". لكني كنتُ شديدة الرغبة في مقابلة كتّاب آخرين في مثل سني، وعقد صداقات جديدة، وفي أنْ أحظى بفرصة للتعلّم منهم. وكان العم منوشهر يعلم بالضبط كيف يفتحُ الموضوع عندما يزورنا. ثم قدّمتُ الدعوة، وإذا بأبي يوافق، بصورة لا تُصدَّق.

كم كنتُ محظوظة! وبدأ أبي يرمقني وفي عينيه افتخار واحترام جديدان. كان يطلب مني في حضور الضيوف "يا ابنتي، أحضري مجموعتك الشِعرية!". وأنطلِق في إلقاء متقطّع ومرتبك، وأنا متوترة ومُحرَجة. ويُتمتم والدي مُستحسناً "باهٍ، باه، باه، باه، باه، باه، باه". ولا يبقى أمام جمهوري المرتبك، الذي لم يفهم أيّ شيء، إلا أن يومئ برؤوسه مُستحسناً.

وذات مرة، ونحن وحدنا، طلب مني من جديد "أحضري دفترك". كان والدي جالساً في الفناء الذي رُشَّ بالماء تواً وهو يُدخّن سيجارة.

"اقرئي"، وقرأتُ القصيدة بتردُّد.

"يا ابنتي العزيزة، على الشاعر المُجيد أنْ يكون مُلقياً جيداً. وبطريقتكِ هذه في الإلقاء، لن ينظر إليكِ أحدٌ بعين الجديّة. على الشِعر أنْ يُقرأ بهدوء وبإحساسٍ عالٍ. يجب أنْ يُقرأ باقتناع. حاولي من جديد". وبقيت كلماته معي وأنا أتدرَّب بإتقان وأستظهر قصائدي، وتحوّل حيائي إلى ثقة بالنفس.

استقللت متن الحافلة، ترافقني عبارات الوداع والصلوات، وانطلقتُ مُيمّمة وجهي صوب مدينة مشهد ومُولّية ظهري لطهران. اجتزنا فيروز كوه، وجنباده كاووس، وشهرود، وقوتشان، وكنا نتوقف للنوم في مدينةٍ مختلفة كل ليلة. وكان والدي قد نصحني بالجلوس في الصف الأخير من الحافلة، ففعلت. وكان قد نصحني بألا آكل على الطريق، لذلك اكتفيتُ بالخبز واللبن الرائب أو الجبن. وأخيراً أُصِبت بالبرد، ولكن مع حلول الليل وولوجنا مدينة مشهد، كنتُ قد امتلأت بالطاقة. كان الليل قد تجاوز منتصفه عندما طلب منا السائق أنْ نقف تحية للإمام رضا، إمام الشيعة الثامن. وعن بُعد شاهدنا قبّة ضريحه تغتسل بالأضواء الكاشفة.

هتفنا أمام القبّة الذهبية ،"**السلامُ عليكَ يا علي بن موسى الرضا!**"

قالت مُرشدتنا، آذر فخري، التي أمسكتْ بيدي وتركتني أُريحُ رأسي المحموم على كتفها، "بعد تناول طعام العشاء، سوف نذهب إلى الضريح عند الساعة الثالثة صباحاً."

كان مهجع النوم شاسعاً؛ وانتشرت الفتيات عبر الأرضية، نائمات، مع سماع بعض الهمس الخفيف. وأعطوا كل واحدة منا نحن الوافدات

الجديدات ملاءة ووسادة. وكان في المنزل، المتعوّد على استقبال قوافل الزوّار، كغيره من منازل مشهد، صالون فسيح، ومطبخ كامل التجهيز، وحمامات متعددة. كان الفتية ينزلون في مكان آخر، في مكان بعيد بالقدر الكافي بحيث يستحيل أنْ يحدث أيّ تواصل بيننا. انتقيت بقعة في الزاوية وغطيتُ رأسي بالملاءة. وعند الساعة الثالثة، عندما استدعتني آذر من أجل الذهاب إلى الضريح، لم أتمكن من النهوض. نظرت فتاةٌ ذات عينين سوداوين كبيرتين وبشرة داكنة إلى آذار وبلكنة أهل جنوب إيران قالت "لا عليكِ منها. اذهبي أنتِ. سوف نعتني بها"، ثم التفتتْ وابتسمت لي.

وهكذا قابلتُ ماندانا من عبدان. كانت ماندانا إحدى ضحايا الحرب، وقد عاشت في مخيَّم للاجئين في بندر عبّاس. وعلى مائدة الإفطار عرّفتني إلى عدد من الأخريات، بمن فيهنّ فيدا من شيراز ونسرين من أذربيجان. شعرتُ، مع حقيبتي الوردية الممتلئة بالملابس، بأني سأتحول بين ليلة وضحاها إلى الفتاة الصغيرة الثرية المُدلّلة من طهران. الباقيات لم يكن في حوزتهن أيّ شيء. وضعتُ مصروف جيبي الذي كان والدي قد أعطانيه في عهدة قائدة المجموعة لكي تحفظه لي وأبقيتُ حقيبتي مُخبّأة خلف الوسادة. لم تكن أيّ منهن تحمل نقوداً، وبدوت غريبة تماماً عنهن وأنا ببنطلوني الجينز الحديث الأزرق اللون وبلوزتي الطويلة الصفراء. وعلى مدى أيام رفضتُ أن أُبدّل ملابسي لكي لا ألفت الانتباه إلى حقيبتي الممتلئة بها.

في طريقنا من مهجع النوم، كنا نهلّل عندما نشاهد أعلاما ترفرف من مصابيح كهرباء الشارع مُعلنة عن برنامجنا: "مهرجان ليالي الشعر

وسلسلة القصص القصيرة السنوي الأول - خريف عام 1987، قاعة الفردوسي، مشهد". وعرَّفنا مُرشدانا المحبوبان، وهما الشاعران المتميزان أسد الله شعباني وجعفر إبراهيمي، واحدة بعد أخرى. قرأتُ شِعري بحماسة متزايدة، وبصوت مرتفع - إلى أن رأيت صديقاتي بين الجمهور يُشرن إلى شيء خلفي. كان خماري قد علِقَ في شمعة مشتعلة وأخذ الدخان ينبعث منه. فاقتربت إحدى المُرشِدات وأطفأت الشمعة وخِماري. وضحكنا جميعاً طويلاً ومن قلوبنا طوال السهرة. وحدث ثقب في خِماري أكبر من قطعتيْ تومان. ولاحقاً بعثت نسرين إليّ برسالة من أذربيجان مع رسم كاريكاتوريّ يمثّلني وأنا أُلقي شِعري وغطاء رأسي ينبعث منه الدخانً.

عندما عدتُ إلى بيتي، شمّتني أمي مرة واحد وقالت "أووف! ملابسك تفوح منها رائحة كريهة! لماذا لم تبدّلي قميصك؟"

هتفتُ من تحت الدش "لم أتمكّن من فكّ أزراره."

عندما بدأنا نتراسل أنا وماندانا، أصبحتْ تعرف كل فرد من أفراد عائلتي. وأرسلت بطاقة معايدة لمناسبة عيد مولد أمي وعزّتنا عندما توفي والدي. وأثناء استعداد أختي كاتي للزواج، أمسكت ماندانا بيدي وقالت "أنتِ مُتعبة، اجلسي. أنا سأحلّ محلك في تقديم العون."

كتبت لي ماندانا تفاصيل مُرعبة عن مخيّمات اللاجئين في بندر عباس؛ عن فتاة حملت من صهرها؛ عن الفقر والانحطاط والعزل؛ عن خُرّمشهر وعبدان؛ عن حِصار عبدان عندما ضاع أخوها باهمان، وراحت هي وأمها تبحثان في أدراج المشرحات كلها واحداً بعد آخر؛ عن ذكرياتها في حيّهم في عبدان وعن اشتياقها لانتهاء الحرب لكي

تتمكن من العودة إلى زقاق بروانه.

في يوم عودتها، كتبت لي تقول إنَّ بيتهم أُصيبَ بمدافع الهاون وطلقات الرصاص، وإنَّ أثاث منزلهم نُهِب. "هذه مدينة محروقة. تشبه قلوبنا. لقد عُدنا إلى مدينة محروقة". وكان والدي قد عاد إلى المنزل في وقت متأخّر، وتحلّقنا حوله لكي لا يُضطر إلى الجلوس على مائدة العشاء وحده. كنتُ أبكي على ما جرى لماندانا، وطلب مني أنْ أُحضِر الرسالة وقرأتها له.

"كامليا، أكتبُ إليكِ من زقاق بروانه. من شارع خالٍ من أي مظهر من مظاهر الحياة. أكتب إليك من عبدان، مدينة المعاناة، عن الجالسين وسط الدماء والقذارة. إنَّ قلبي مُترع ومُحطَّم كالجثث المرمية في صحراء يباب تضربها الرياح. إنَّ منزلنا أطلال لم يبق منه إلا ثلاثة جدران. إنَّ دراجة طفولتي لا تزال مرميّة في زاوية من القبو بعد أنْ احترقت ألف مرة". أصغى أبي وعيناه مُثبّتتان على جهاز التلفاز، لكنه كان ينظر إلى ماندانا وإلى مدينتها المحترقة، وحنجرته مختنقة بالنشيج.

ران الصمت على الجميع، حزناً على أرض إيران المحروقة. "إنَّ شعب عبدان دافع عن المدينة بأيدٍ خالية، وأبناؤنا وإخوتنا سقطوا على الأرض كأزهار في فصل الخريف. صدّقيني، يا صديقتي، لقد أُبيد النخيل كله. أخبريني، متى سيخضرّ شبابنا، ونخيلنا، من جديد؟"

* * *

شتاء عام 1989

وصل رجال محطة التلفزيون "صدا وسيما" إلى باب بيتنا قبل بدء

احتفالات شهر شباط بذكرى الثورة بأسبوع. وطلبوا مقابلة "خانم كامليا انتخابي فرد". كنا في يوم جمعة. وقد أكلنا وجبتنا المعتادة من اللحم المشوي، وكان والدي نائماً في غرفة نومه في الطابق السُفلي. أحضرتْ أمي الشاي والحلوى، وبرّروا طلبهم بأنهم يُنتجون برنامجا إحياءً للذكرى يُبرزون فيه مراهقي البلاد الناجحين والمتميزين. وقد أوصى "نادي الأدب الإبداعي" باختياري، أنا كامليا، الشاعرة والرسّامة.

ثم سألوا، "هل لديك أشعار عن الثورة أو عن الإمام؟" فأجبتُ على الفور "نعم، طبعاً. لديّ قصيدة كتبتها من أجل الإمام". كان من المستحيل أنْ أفوّت تلك الفرصة. وهكذا بُتَّ الأمر، وراحوا يتجولون في غرفة نومي لكي يُقرروا إنْ كانوا سيلتقطون صوراً هناك أم في الاستوديو.

لاحقاً، فتحت دفتر أشعاري، وتساءلت، أيُّها كانت من أجل الخميني؟ ولا واحدة. ولكن هل من طريقة أخرى للارتقاء في مجتمع إيرانيّ؟ الجميع يكذبون ولهذا كذبت، أنا أيضاً. وعندما استيقظ والدي من قيلولته وسمعَ بما حدث، طار فرحاً. لم نُخبره بأنهم طلبوا شِعراً يُمجِّد الإمام. لخّصنا له الأمر بجملة واحدة "يريدون أنْ يُعدّوا برنامجاً عن كامليا".

في الاستوديو، كان هناك ثلاثة من المراهقين مثلي جالسين ينتظرون مع أولياء أمورهم ريثما يحين دورهم في التصوير. كان مُخصصاً لكل منا مدة عشر دقائق لتقديم ما لديه من موهبة أمام آلة التصوير. كان الفتية الذين يتقدّمون عليّ قد بدأوا بالتدرّب، ولكن عندما بدأت محطة

"صدا وسيما" التصوير، ارتكبوا أخطاءً عديدة. كانت المخرجة، خانم بروين شمشاكي، توقِف التصوير وتجعلهم يبدأون من جديد. وعندما جاء دوري، قررتُ أن أبذل أقصى جهدي للنجاح. وسألوني "ألا ترغبين في إجراء اختبار؟". هززتُ رأسي رفضاً. كنتُ أحمل إحدى لوحاتي المائية بيد ودفتر أشعاري بالأخرى. انتقيت إحدى القصائد التي أحبّ أن أقرأ. أبعَدوا الخِمار عن فمي نحو الأمام قدر المُستطاع. وكان للمُخرجة عينان حادّتان. قالت "من فضلك انزعي أساورك"، فنزعتها. "استعداد... ابدئي!"

قرأتُ قصيدتي بعناية، مُعرِّفة إياها بأنها "إلى الإمام..."

منى إليك
حتى آخر الفجر
من أعالي أغصان شجرة الصفصاف القوية
أنا عاشقة، مُخلصة لك

منى إليك
كمياه رقراقة لجدولٍ صافٍ في الريف
أصابني سهم الحب، عندما لمحتك
بين التلال والضباب.

منى إليك
كتغريد الطيور...

ثم عرضتُ لوحاتي أمام آلة التصوير واحدة إثر أخرى. تكلّمت لمدة عشر دقائق دون أي تلعثُم. قالت خانم شمشاكي، "كنتِ مُذهلة، يا كيدو. شيء عظيم. أداء عظيم. وواثقة من نفسك. أنتِ مُقدِّمة أخبار بالفِطرة."

عند غروب أحد أيام احتفالات بهمن، بُثَّ البرنامج، وبمحض المُصادفة كان الجميع يُلازمون المنزل . كان والدي نائماً، فهرعتُ إليه لأوقظه. وسرعان ما وضعنا شريط الفيديو الفارغ الذي أحضرناه لكي نسجّل المناسبة في الجهاز. وجلستْ عائلتي الصغيرة تراقب بانتباه عرض العشر دقائق المُخصصة لي على البلاد كلها. ومن زاوية عيني، نظرتُ إلى والدي. بدا منهمكاً بكل كيانه في مشاهدة البرنامج وكان يشعّ افتخاراً. وأدركتُ أنَّ كسب هذه الشُهرة قد تطلَّبَ مني أن أمارس الخداع، وما كان في الإمكان أن ألاقي الترحيب الشعبي وعلى شاشة التلفاز لولا الكذب. لقد تعلّمتُ هذا جيداً في المدرسة، وأنا أؤدي صلواتي الزائفة أمام إمام هيئة "شؤون التربية" في صباح كل يوم، أمارسُ الادّعاء لكي أستمر في الحياة. ومع ذلك، عندما شاهدتُ ما ارتسم على وجه والدي، شعرتُ بالرضى.

* * *

ربيع عام 1989

عندما مرِضَ الخميني، عُرِضَ على شاشة التلفاز وهو في مستشفى خاص بُنيَ بالقرب من منزله في جمران، وبدا أنه سيُشفى سريعاً. وكان أقرباؤنا الذين في جمران، الذين يجتمعون في "الحسينيّة" للصلاة من

أجل أنْ يستعيد الإمام صحته، يُزودوننا بانتظام بالشائعات التي تقول إنه في سبيله إلى الشفاء. وفي مساء الثاني من شهر حزيران، عام 1989، كانت أمي قد رشّتْ الفناء بالماء كعادتها في مساء كل يوم، وقد جلسنا باستمتاع على العشب، نتناول وجبة العشاء. وانضمتْ إلينا جارتنا في الطابق العلوي شبنام، زميلتي في المدرسة. كان لدينا في اليوم التالي امتحان اللغة الإنكليزية لنهاية الفصل، وتمنّيتُ بغباء لو أنه يُلغى بصورة ما. وبينما كنتُ أتمنّى لشبنام ليلة هانئة عند الدَرَج، قلت لها "سآتي لأصطحبك الساعة السابعة صباحاً. هذا، طبعاً، إذا لم يكن الخميني قد مات حينئذٍ!"

عند الساعة 6:45 من صباح اليوم التالي، هتفت لي أمي من أعلى الدَرَج. فنزلتُ وأنا ناعسة إلى المطبخ. كان المذياع مفتوحاً. كانوا يبثّون تلاوةً للقرآن. فأصختُ السمع. كان سماع ترتيل القرآن يُبثّ من الإذاعة في مثل ذلك الوقت من النهار أمراً غريباً. دقّت ساعة الإذاعة ثلاث مرات إيذاناً ببدء نشرة أخبار الساعة السابعة، ثم عاد صوت المُذيع ليقول "**إنّا لله وإنا إليه راجعون**" (قالها المُذيع بالعربية)[1]. ثم تابع تقريره بالفارسية، "آه يا أمة إيران العظيمة ومُنجبة الشهداء، لقد عادت الروح إلى باريها". لم أكن أتحلّى باللياقة الكافية لأُكمل الإصغاء إلى باقي الإعلان. وأطلقتُ صيحة أخذت تخفقُ في صدري، وأنا أصرخ "مات الخميني! مات الخميني!"، فأخذتْ أمي تنهال بالضرب على رأسي وكتفيّ. هربتُ إلى الخارج هتفت، "شبنام! شبنام!"، ففتحتْ الباب، "لقد مات! لقد مات! الخميني مات!". أبرزت والدة شبنام،

1 – بين القوسَين من وضع المترجم.

خانم مير إسكندري، رأسها الناعس من خلفها ولحقت بي مسرعة تهبط الدَرَج إلى شقتنا. كانت كتفاي تؤلمانني. وجلستْ أمي بجوار جهاز الراديو مذهولة. وعندما رأتنا، ثار جنونها من جديد. كانت هستيرية بشكل كامل. ولا أزال حتى يومي هذا لا أعلم لماذا، بخبر كهذا، في يوم كذاك، كان يجب أنْ تضربني.

سألتْ خانم مير إسكندري "وماذا سنفعل الآن؟". كانت الحرب قد انتهتْ، لكنَّ الوضع الاقتصادي والاجتماعيّ في إيران لم يكن قد أحرز أيّ قدر من التحسُّن. هل ستندلع ثورةٌ أخرى؟ هل سيهاجمنا العراق من جديد؟ هل ستندفع الجماهير إلى الشوارع؟ هل سيبدأ الملالي الذين سيخلفون الخميني بالترتيب بالتقاتُل؟ هل ستندلع الحرب الأهلية؟

بالنسبة إليّ، كان أول أمر هام وقع هو إغلاق المدارس أبوابها على مدى أسبوع، وتأجيل الامتحانات النهائية. وأُعلنتْ فترة حِداد وطنيّ. وقام مجلس من الخبراء بانتخاب الرئيس، حُجّة الإسلام علي خامنئي، خلفاً لآية الله الخميني، مرشداً أعلى. وسرعان ما حُدِّدَ موعد الانتخابات الرئاسية، وانتُخِبَ هاشمي رفسنجاني رئيساً، وهو منصب يحتفظ به مدّتين رئاسيتين متواليتين.

وغرقت طهران في هدوء غير معهود خلال فترة العطل التي جاءت من حيث لا ندري. وأُقيمت جنازة الخميني في مُصلّى طهران الكبير وبُثَّت على الهواء. ولم يتزحزح أحدٌ من أفراد عائلتي من مكانه أمام جهاز التلفاز طوال النهار. لم نرغب في أنْ يفوتنا أيّ شيء من أشدّ لحظات إيران تاريخيّة. تناولنا طعام الإفطار، والغداء، والعشاء ونحن

جالسون أمام التلفاز. كان كل واحد منا يندفع بسرعة البرق إلى المطبخ لإحضار طعامه.

حُمِلَ تابوت الخميني الزجاجي عمودياً لكي يتمكن الناس من مشاهدته. كان مُغطّى كله بأزهار الغاردينيا البيضاء. وجاء ملايين المُعزّين من أرجاء إيران كلها، رجالاً ونساءً، وكلهم يبكون ويضربون رؤوسهم ووجوههم. والخميني، هناك عالياً في التابوت الزجاجي، راقدٌ بسلام. ومن المُصلّى، حيث ودّعت الجماهير قائد الثورة ومؤسس الجمهورية الإسلامية، شقّ موكب الجنازة طريقه إلى مقبرة "جنّة الزهراء" لدفنه.

كانت ملايين أخرى تنتظر الخميني في المقبرة، وآلافٌ ارتقوا أعالي الحاويات الضخمة المستطيلة الشكل، ذكّرتني بتلك التي يستخدمها طاقم صنع الأفلام، التي توضع لكي تمنع تجمّع الجماهير. وحُفِرَ القبر، وتكوّنت أكوامٌ من التراب حوله. وعندما وصل الموكب، اندفعَ الناس نحو الأمام، مُخترقين صفوف رجال الشرطة. احتُفظ بأكوام التراب من أجل ردم الجثّة التي اختفت في لمح البصر. وقبض كل شخص على التراب المُبارك أثناء تمايُل جثمان الخميني خلال الحشد، وهو ينتقل من مجموعة من الأيدي إلى أخرى. وأراد الجميع أنْ يلمسوا الجثّة أو يقتنصوا قطعة من كفنه. رحنا نتفرّج بدهشة بينما كفنه يتمزّق، وجسده العاري ينفكّ عنه. والتقط المصوّرون تلك اللحظة النادرة، وأظهرَ غلاف مجلة "تايم" في العدد الأسبوعي التالي قائد الثورة وكفنه يسقط كاشفاً عن صدره العاري وذراعيه.

تمَّ تخليص الجثمان من قبضات الجماهير الصارخة، والمتدافعة ووُضع في طائرة مروحية. ووفقاً لرواية خالي علي، طاروا به عائدين

إلى عيادة مانزريا لكي يُلفّ بكفن جديد. ودفع الجنودُ الناسَ نحو الخلف، ووصلت قوات جديدة إلى موقع الحدث. ولا أتذكّر بالضبط بعد كم من الوقت عادت المروحية حاملة الجثمان، وعندما عادتْ، أسرعوا بدفنه وأغلقوا القبر قبل أنْ يتمكن المعزّون من نبشه من مثواه الأخير وسرقة التراب.

الإشاعات التي سمعناها لاحقاً أخبرتنا قصة أخرى. قال الناس إنه كان بين المُعزّين عناصر من المجاهدين وأفراد من عائلات الضحايا الذين أعدمَهم النظام كانوا يشدّون جثمان الخميني ومزّقوا كفنه إرباً.

* * *

شيئاً فشيئاً، بدأت قصائدي وغزلياتي تُنشَر في الصحف والمجلات. وعندما فزت للمرة الأولى في مسابقةٍ للشعر في مقاطعتنا، كانت جائزتي هي الانضمام إلى مجموعة أخرى من الطالبات المتميزات لمقابلة المرشد الأعلى الجديد، خامنئي، ومن ثم نزور ضريح الخميني. وكان الضريح مُصمَّماً على طراز المسجد الأقصى في القدس، وكان تنفيذ البناء قد تقدَّمَ ببراعة لا تُصدَّق. وكان من المفترَض أنْ يكتمل مع حلول الذكرى السنوية الأولى لوفاته. حملتُ غطاء رأسي الأسود داخل حقيبتي ومعه رسالة موافقة من أمي (لم يعلم والدي أي شيء عن الرحلة الميدانية، و لم نذكر له أية كلمة).

عند مدخل الضريح، خلعنا أحذيتنا. لم تكن عملية البناء قد اكتملت تماماً، وكان هناك عمّال لا يزالون يعملون في الجزء الخارجي. اقتربنا من القبر المكسوّ بالذهب، وقبّلتْ مُدرِّسة من هيئة "شؤون التربية" جاءت

معنا السياج ورمت مُغلّفاً يحتوي نقوداً إلى القبر. كانت مساحة القبر من الداخل ممتلئة بالقطع النقدية، وبحلي نساء ذهبية، وبمغلفات رماها الناس نذوراً. وعلى أرضية الرخام الأبيض أمامي، رُسِمتْ صورة مهيبة من أزهار التوليب الحمراء. ورفعتُ بصري، فرأيتُ فوق القبر نوافذ من الزجاج الملوّن مزيّنة بصور لأزهار التوليب. وأتذكّرُ بيتاً من الشِعر كُتِبَ على الأبواب والجدران في أرجاء المدينة كلها: "من دماء الشباب ازدهر الوطن بأزهار التوليب".

هنا، أيضاً، نبتت أزهار التوليب.

الفصل الثامن

سأزرع يديّ في الحديقة

تموز عام 1999

"أخبريني، يا عاهرة، مَنْ هو صِلة اتصالك في إسرائيل! كم مرة في العام كنتِ تقابلينه؟ سوف أجعلهم يضربونك كالكلب! هل أنا في حاجة إلى أنْ أخبرك باسم صِلة اتصالك في إسرائيل؟ سأخبرك. إنه ياكوب!"

عصرت ذهني. ياكوب... ياكوب... لم أتذكّر. لا بد أنهم علموا بأمر اجتماعي بجورج سوروس[1] في أميركا... ربما هذا ما كان يتكلّم عنه.

---

1 – جورج سوروس (ولد عام 1930): رجل أعمال أميركي من أصل هنغاري لأبوين يهوديين. غيَّرت العائلة كنيتها من شوارتس إلى سوروس تفادياً للاضطهاد النازي. رجل أعمال وملياردير سخّر ثروته للدفاع عن الأفكار والحركات الديموقراطية في أميركا والعالم، ويدعم بسخاء المرشحين الليبراليين في الانتخابات الأميركية، ويدافع عما يُسمّى الـ"المجتمع المفتوح". أنشأ مؤسسات تمويل كثيرة، وله كتب مثل **"كيمياء التمويل"** 1994، و**"أزمة الرأسمالية العالمية"** 1998، و**" فقاعة التفوّق الأميركي: تصحيح أخطاء القوة الأميركية"** 2003، وغيرها. – المترجم

"أُقسم بالله أني لا أعلم. أُقسم على القرآن بأنكَ مُخطئ."

"أيتها الصغيرة القذرة! إنَّ استخباراتنا دقيقة جداً. لقد جاء ياكوب معك من الأردن إلى دبي لكي تتمكنا من ممارسة الجنس معاً، ثم غادرتِ إلى طهران. أخبريني ما هي المعلومات التي تبادلتها معه! أخبريني، وإلا تركتكِ تتعفّنين في زنزانتك إلى أنْ تتخلّصي من فسادك."

كنتُ قد قمتُ بتلك الرحلة كمراسلة لصحيفة "زن". وضاع صراخه عندما مزّقَ ذلك الطنين الرهيب والغريب جو الغرفة من جديد. كان رأسي ممتلئاً بضجيجه الذي يشبه أزيز الحشرات. وأدهشني أني تذكّرتُ ياكوب، بينما صوت مُستجوبي ينساب مبتعداً.

أرهقتني الرحلة التي قمتُ بها إلى الأردن لكني كنتُ شديدة الحماسة لأخبر فائزة وزميلاتي في صحيفة "زن" كل شيء عنها حتى إني توجهتُ من المطار إلى المنزل فقط لكي أترك حقيبتي قبل أنْ أهرع إلى الصحيفة. بل إني لم آخذ دشاً. وعندما أُعلن عن إقامة جنازة الملك حسين، قررتُ بين ليلة وضحاها أن أُعدّ تقريراً عن الحدث وأزعجتُ السفير الأردني في طهران في منزله في وقت متأخّر من المساء من أجل الحصول على تأشيرة دخول في الحال. وها قد عدتُ إلى الوطن، مُشوّشة ومُتعبة وفرحة لأنَّ مقالتي تصدّرت الصفحة الأولى.

"ومَنْ أنتِ؟ دعيني أرى إنْ كانت في المكتب."

ثبّتت زميلتي في العمل فائزة عينيها الخضراوين الواسعتين عليّ، وغطّتْ سماعة الهاتف وقالت "يا له من صوت... من هذا الرجل؟ قال إنّ اسمه ياكوب من دُبي."

قفزتُ واقفة وقبضتُ على الهاتف المُركَّب. "**سلام... نعم،**

عدتُ بأمان... شكراً لاتصالك... باي"

إنَّ أخطر اتّهام وُجِّه إليّ في السجن كان التجسّس لمصلحة الحكومة الإسرائيلية. لم يستطع جنون الارتياب المَرَضيّ الذي تعاني منه وزارة الاستخبارات من تقبُّل أني فقط شربتُ فنجان شاي مع ياكوب، وأني قابلته وأصدقاءه مُصادفة، دون أنْ أعلم من أين أتوا أو إلى أين كانوا ذاهبين. لقد اضطررتُ إلى التوقُّف في دُبي مدةً لم تتجاوز ثماني ساعات لكي أنتقل إلى الرحلة المتوجهة إلى طهران. وبمعيّة تأشيرة الانتقال ذهبتُ إلى فندق في المدينة لأغتسل وأتناول وجبة الإفطار. وحالما لاحظتُ أنَّ الأشخاص الغرباء الذين يجلسون إلى جواري يتحدثون الفارسية قدَّمتُ نفسي إليهم، بحُسن الضيافة الذي نشأتُ على إبدائه، قلت "سلام، أنا أيضاً من إيران". وفي المعتاد كل الإيرانيين خارج إيران يفعلون الشيء نفسه. وبغضّ النظر عن هيئة الأشخاص الغرباء، فإنهم يتبادلون التحية بودّ. "أأنتم إيرانيون؟ لقد سمعتكم تتحدثون الفارسية!" (يجب أنْ أذكُر أنَّ موقفي قد تغيَّر. فمنذ أنْ غادرتُ إيران آخر مرة، كلما سألني أحد إنْ كنتُ إيرانية، أُجيبُ باقتضاب "نعم، أنا كذلك"، وأتجنب الخوض في أية محادثة معه).

أخبرتُ ياكوب وأصدقاءه عن جنازة الملك حسين في الأردن. وقالوا إنهم يقومون برحلة لشراء بعض العاديات؛ أحدهم كان من طهران والاثنان الآخران كان لديهما متجرٌ في لندن. كان ياكوب يُحيط عنقه بسلسلة رائعة. فنظرتُ إلى القِلادة وسألته "أنتَ تلبس فاراواهار[1] – أأنتَ زرادشتي؟"

---

1 – فاراواهار: قرص مُجنَّح يمثِّل الإله الزرادشتية أهورامازدا.

"هذه شارة يحملها ضباط الجيش الإسرائيلي. نحن يهود. لا أظنّ أنّ هذا يسبّب أية مشكلة، أليس كذلك؟"، فهززتُ رأسي نفياً. وشرح قائلاً إنه كالعديد من الإيرانيين اليهود، غادر إيران مع بداية الثورة. ثم ذهب إلى إسرائيل وخدَمَ في الجيش، على الرغم من أنه الآن يعيش في لندن. رافقوني حتى سيارة الأجرة، وتبادلنا بطاقات العمل، ووعدتُ بزيارة متجرهم ذات يوم أثناء قيامي برحلاتي، إذا أمكنني ذلك. وهذا كل شيء.

راح مُستجوبي يلحّ في سؤالي عن قلادة كنتُ ألبسها دائماً، وتلمع من تحت غطاء رأسي الرقيق. العديد من الفتيات في مكتبي طلبنَ رؤيتها، رغبة منهنّ في معرفة معنى الكلمة العبرية المكتوبة. قلتُ إنها تعني " حياة " وإنَّ ذلك الشيء الفاتن هدية من صديقٍ يهوديّ في ألمانيا. ثم أمازحهن، وأرسم تعبيراً همجياً على وجهي وأقول " ألا تعلمن، أنا يهوديّة! " وأضحك من تعبير الصعقة على وجوههن. لكني لم أعد أضع القلادة الآن - لقد أعطيتها لامرأة لطيفة تعمل في الأمم المتحدة قابلتُها في البوسنة. كانت قد دعتني إلى حفل عيد ميلادها، ولم يكن في حوزتي ما أُعطيها إياه إلا قلادتي. وبما أنه لم يكن معي ما أُريه لمستجوبي، أقسمتُ له بأنه لا وجود لها.

ولكن الآن بعد أنْ بُتَّ الأمر سأعترف بأني ضاجعتُ سبعة وستين رجلاً، وأقحمتُ بينهم اسم ياكوب أيضاً. وهكذا اعترفتُ بأنَّ ياكوب لحق بي إلى غرفتي وأننا تضاجعنا وبقينا على تواصل عبر الهاتف بعد ذلك، ولكنني لم أكن أعلم أبداً أنه جاسوس. فإذا كانت ممارسة الجنس خارج رباط الزواج إثماً، فإنَّ الإثم قد تضاعفَ كثيراً لأني ضاجعتُ

رجلاً يهودياً. وتكلّمتُ عن ياكوب وكأني أعرفه من سنين. وأرادوا أنْ يسمعوا الكثير من التفاصيل، وبدأتُ أعتقد أنَّ ياكوب كان حقاً جاسوساً أرسلته إسرائيل إلى دبي ليتصّل بي... أو لعله كان عميلاً مزدوجاً، وقالت له الحكومة الإيرانية "يبدو أنَّ كامليا سهلة القياد، قُمْ باختبارها لأجلنا". وشعرت بالإحباط والبلبلة إلى درجة أني لم أتمكن من التركيز على أيّ شيء أبعد مما أراد مستجوبي. ووعدته بأنْ أشعر بندم شديد، وبأني لن أتحدث مع الغرباء بعد الآن. فسألني "كيف تجرّأتِ على مُضاجعته؟"، فأجبت "لم أكن مُثقّفة بالقدر الكافي، لم أكن مُسلمة صالحة، كنتُ مُدمنة جنس. إنَّ الإثم يُسربلني، ويجب أنْ تعاقبني كيف ما تشاء..." كنتُ مُرهَقة. قلتُ له إني كنتُ أفتش عن شخص أتزوجه وإني اختبرتُ كل شخص أبدى اهتمامه بي، لكنني فشلتُ في ذلك، والآن أريد أنْ أصبح نقيّة، أنْ أُصبح مُسلمة صالحة وأتوب إلى الله.

كانت محطة "صدا وسيما" تبثّ بانتظام مقابلات مع شبان أُلقيَ القبض عليهم أثناء إضرابات الطلاب. كانوا يجلبون الأسرى العاجزين مُقيَّدين، فيعترفون بأنَّ لهم صِلات بالفوضويين والمُحرّضين ضد الحكومة وأنهم تلقّوا مبالغ من المال من جماعات متنوّعة من أجل القضاء على الجمهورية الإسلامية. وشاهدتُ منوشهر محمدي وغلام رضا مهاجري نجاد، وهما زعيمان بين الطلاب الناشطين، وقد وُضعا أمام آلة التصوير. وفي الفجر المجيد لحركة الإصلاح، كان محمدي يشتعلُ حماسة. كان مفوّهاً وشجاعاً وزار الكرة الأرضية كلها، من الشرق إلى الغرب وحتى الأميركيتين. ألقى مُحاضرات موجهة

إلى الإيرانيين في المنفى، يدعوهم فيها إلى العودة إلى إيران ليشهدوا المرحلة الجديدة، مُعلناً "إيران للإيرانيين جميعاً"، عنوان حملة خاتمي الانتخابية. و لم يكن إيرانيو المنفى قد استمعوا إلى مَنْ يتحدث بمثل تلك الجرأة ضد الحكومة. والآن وأنا أتمدّد على السجادة القاسية، الكريهة الرائحة، أسمع أحياناً صوت منوشهر محمدي السقيم في مكان ما فوقي. يصرخ كمَنْ فقدَ عقله متوسّلاً العون من الله.

إنَّ جسمي كله يؤلمني. لقد انتظرتُ أياماً في فراغ، مع سلسلة قاسية من الاستجوابات، أتخيَّلُ فائزة أو غولريز، صديقتيّ من منظمة حقوق الإنسان، تظهران كملاكَين لتنقذاني. والآن، من بين الأصوات كلها التي تكتنفني، الصوت الأقوى يخرج من داخلي، قائلاً إذا أردتُ أنْ أخرج من هنا، يُستحسن أنْ أساعد نفسي.

دفنتُ رأسي بين يديّ وباشرتُ حواراً مع نفسي. لقد كنتُ ممثلة جيدة. أديتُ أدواراً رئيسة في مسرحيات قُدِّمت في المدرسة الثانوية. وأحببتُ المسرح، ولكن بالنسبة إلى والديّ لم يكن المسرح مهنة مقبولة. ولطالما علّلتُ نفسي بأني سأحصل على فرصة أخرى أُثبتُ فيها تفوّقي على خشبة المسرح وأنه سيكون أعظم أداء أُقدّمه في حياتي. كنتُ أعلم أنَّ تركيزي سيزداد مع مرور الأيام والشهور، وعقدتُ عزمي. أخذتُ نَفَسَاً عميقاً واندمجتُ في دوري.

في كل صباح وفي كل مساء، وأنا وحدي في زنزانتي، أغمضُ عينيّ وأتأمّل. كانت مُدرِّسة الرسم، فيروزه غول محمدي، قد علّمتني هذا الفن النفيس في استجماع الطاقة وتوجيهها نحو هدفٍ معيَّن. كنتُ

أركِّزُ طاقتي كي تؤثِّر في تفكير مُستجوبي. وكانت فيروزه درويشة[1]، ومتعمّقة في مبادئهم، وجّهتْ دفق طاقتها ونورها نحو إبداع فنّها. وفي نهاية درس الرسم المائي، كنا نجلس القرفصاء ونتأمّل بينما فيروزه تطلب منا أنْ نعثر على نقطة في داخلنا ونركّز عليها. "سوف تتجلّى أمام عيونكن صور تتجسّد في لوحاتكنّ". لقد بثّتْ فيَّ الإلهام، وفي أثناء عطل العام الجديد، تماديت وذهبتُ أبحث عن الدراويش الذين يجتمعون في السوق العامة في طهران، يجلسون منذ أول الغسق وحتى انبلاج الفجر يُدوّنون صلوات "شرف الشمس" على حجارة العقيق الأصفر. لم أكن أحمل خاتمي العقيق وأنا في السجن، لكنني أغمضتُ عينيّ وتخيّلتُ النتيجة التي رغبت فيها بقوة: أن أكون حرة. حرة كما كنتُ عندما جلست أثناء دروس الرسم خلال فصل الصيف، أراقبُ الفراشات تحوِّم حول أزهار عبّاد الشمس في حديقة فيروزه الغنّاء، أو بجوار الموقد في الشتاء والثلج يهطلُ غزيراً في الخارج. أين ذهبت تلك الأيام، أين اختفتْ؟ اشتقتُ إلى حرية شبابي الأول التي انقضتْ إلى الأبد، ولكنْ بقيَ يحدوني أملٌ في يوم خالٍ من التهديد والخوف، يوم أستطيع فيه أنْ أرسل أزهاراً إلى أمي عربون شكر لأنها أنجبتني، وأستطيع ببساطة أنْ أجلس وأقول لله "أنا سعيدة".

مع كل يوم مارست فيه التأمّل في زنزانتي، أصبحت أكثر انغماساً في دوري فأكثر. كنتُ قد قرّرتُ أنْ أخرجَ من السجن وأنَّ الرجل الذي يأتي لاستجوابي نفسه سيهبّ لمساعدتي. كان عليّ أن أخزّن مقداراً هائلاً من الطاقة لكي أجذب انتباهه. لم يكن أيٌّ منا قد رأى وجه

1 – تقصد أنها من الدراويش المتصوفة.

الآخر. وجهي كان دائماً في مواجهة الجدار، وعيناي كانتا معصوبتين. وحدهما يداي كانتا حرّتين في الحركة، وكان عليّ أنْ أوجّه طاقتي كلها نحو يديّ. كان دوري هو أنْ أقع في الحب وأن أجعله يقع في الحب. كانت حريتي مُركَّزة على حركة يديّ.

تردَّد صدى صوت فيروزه الناعم في أُذنيّ. "كامليا، كوني هادئة وفكّري في الطاقة الهائلة التي في داخلك. صيري قوية. بهذه الطاقة يمكنك أنْ تغيِّري الناس". تذكرتُ رحلة الحج التي قمنا بها معاً. آلاف الإيرانيين قاموا بتلك الرحلة إلى جامع جمكران بالقُرب من قُمْ في أيام الثلاثاء، الذي يعتقد الشيعة أنه يوم إمام الزمان. وفي الحافلات التي حملت تلميذات فيروزه إلى جمكران، كان هناك من الطاقة والحياة أكثر مما في استطاعتي الآن أنْ أتذكّر.

طِبقاً للأسطورة، عندما ذهب إمام الزمان للمرة الأولى ليختبئ كان **أبوابه**[1] يتلقّون رسائل من أتباعه ويضعونها بين يديه. وقبلَ أنْ يموت **باب** الإمام الثالث، أعلنَ أنه آخر **باب** وأنّه من الآن فصاعداً سوف يختبئ الإمام داخل سرداب. والسرداب الأصلي الذي استُخدِمَ للتواصُل معه هو مقصد للحج في العراق، ولكن بعد قيام الثورة وحرب السنوات الثماني، أصبح من المستحيل على الإيرانيين أن يقوموا بزيارته. ولذلك وبدافع من حبهم للإمام، اختير موقع جديد للحج يقع ضمن حدود إيران. وادّعى أحد الأئمة الروحيين في قُمْ أنه شاهد إمام الزمان في الحُلم، وأنَّ الرؤيا أنبأته بأنَّ مسكنه هو في جبّ جافّ في جمكران.

---

1 – الباب؛ أو الأبواب: لقب يُطلَق على أناسٍ يدّعون قدرتهم على إيصال رسائل إلى الإمام الثاني عشر.

فهبط عليه الإلهام بفعل هذه البَرَكَة وبنى مسجداً وأحاط الجبّ بسور من الحديد، ويقوم الحجيج برمي رسائلهم وتقدماتهم إلى داخل الجبّ. وقد قيل لنا إنَّ القائمين على شؤون المسجد يجمعون الرسائل كلها داخل كيس ويرمون بها إلى مياه جارية، اعتقاداً منهم بأنَّ الإمام سيقرأها بهذه الطريقة.

وصلنا إلى المسجد في المساء. كانت تُضيء الفناء وشُرفة المسجد أضواءٌ كاشفة، وثمة مُكبرات صوت تبثّ صلوات خاصّة. وكانت فيروزه قد أخبرتنا أنه إذا ركّز زوار المكان للمرة الأولى، فسوف يرون المعلِّم، إمام الزمان، في هيئة ما. وكنتُ قد قرأتُ قصصاً لحجيج لمحوا الإمام برهة من الزمن في المسجد أو في الطريق إلى جمكران، ولذلك حرصتُ على النظر باستمرار. ومددنا أنا وفيروزه سجادة الصلاة في فناء المسجد لنصلي. وركّزتُ على محاولة تمييز إمام الزمان من بين الحشد. فلم أرَ له أثراً. كنا مُحاطات بمساحات من الملح و لم يكن هناك إلا التربة الخشنة والرياح التي تذرو الغبار في عيوننا.

كانت أمي قد بعثت لي برسالة وطلبت مني أنْ أرميها إلى الإمام. كان حشدٌ هائل من النسوة قد تجمهر حول الجبّ يبكين ويُصلين؛ جميعهن أَرَدن أنْ يلمسن الحاجز الحديدي. هذا من جانب النساء، أما على الجانب الشرقي من الفناء فكان القسم المُخصص للرجال. انفصلتُ عن المجموعة واندفعتُ أشق طريقي إلى الأمام. كان الجبّ ممتلئاً بالرسائل إلى درجة أنها كانت تتسرب من الفجوات بين الحاجز. وأقحمتُ رسالة أمي عميقاً نحو الداخل. كان الجو مُفعماً برائحة العِطر المميَّزة التي يسمّونها "عِطر مكة"، هي رائحة قوية لعطر ماء

الورد الرخيص. وعندما تمكّنت من إخراج رأسي من الحاجز، كان غطائي قد تمزّق وسقط على الأرض. ولدى عودتي إلى منطقة الزحام، أصلحته. وعندما أمسكته من تحت ذقني، شممتُ رائحة عِطر الورد الأحمر في يدي. كانت عيناي ملتهبتين.

رفعتُ يدي وقرّبتها من أنف فيروزه. قالت "باه، باه، باه، باه. إذاً انتقاكِ من دوننا جميعاً؟ لقد تسلّم الإمام الرسالة من يدك."

بعد ذلك ببضعة أشهر، كنا قد اجتمعنا في منزلنا، وحكت أمي للضيوف حكاية. قالت إنَّ المعلِّم قرأ رسالتها وأعطاها الجواب.

ذُهلت. "ماما، ماذا قال في الرسالة؟"

قالَت أمي الفخور إن من غير المسموح لها أنْ تبوح بذلك لكنها أضافت، "هناك مثل صيني يقول: "إنَّ عطر الوردة لا يزول أبداً عن يد الذي يعطيك إياها."

وحدي في الزنزانة، أنظر إلى يديّ، وأتذكّر قصيدة لفروغ فروخ زاد:

"أحبّ يديك"
سأزرع يديّ في الحديقة
سأخضرُّ، أعلم، أعلم.

الفصل التاسع

زهر الربيع في الخريف

1990

في ثانوية "الهدى" كانت الموضة أنْ تكون الفتاة عاشقة. قالت لي قريبتي إلهام إنها فاجأتْ فتاتين تتبادلان القُبل في الحمّام، وكنتُ أنا قد ضبطتُ فتاتين تُقبِّل كل منهما ثديي الأخرى خلف سور الفناء. وكان لنائبة المديرة، خانم حاج سيد جوادي، مجموعة مخلصة من المعجبات المفتونات بجنون بها. لم تكن متزوجة وانتقت لها من بين بنات المدرسة بضع صديقات، تمشي معهن خلال فترات الاستراحة. كانت إلهام إحدى اللائي فُتِنَتْ بهنّ. وكانت المُعجبات بنائبة المديرة يجتمعن خلفها ويمشين معها برصانة في أرجاء الفناء.

أنا أيضاً كانت لديّ بعض المُعجبات في صف المستجدات، يكتبنَ لي رسائل حب ويقحمنها في سطح طاولة الكتابة المتحرِّك. كن يكتبن قصائد يشرحن فيها مشاعرهن وافتخارهن بأنهن صديقاتي، ويصفنَ

شَعري وعينيّ، ويطلبن صورتي. وكانت مدرسة "الهدى" تُمثِّل مركز الصدامات الطبقيّة والثقافية في طهران تسعينيات القرن الماضي. كانت مؤسسة المدارس العامة وإلغاء المدارس الخاصة بعد الثورة قد جمعتنا معاً الطالبات الثريات من أبناء ذوي الثروات القديمة والثروات الحديثة كلهن وتلك القادمات من أفقر الأحياء. الفتيات المنحدرات من عائلات متوسطة راقية في حيّنا، شهرك غرب، اللائي في وسعهن تحمّل نفقات الذهاب للتزلج على الجليد في فصل الشتاء، كنَّ ينتعلن أحذية رياضية، ويتلقّين دروساً في العزف على آلة البيانو، أصبحن الآن يجلسن جنباً إلى جنب مع فتيات من شِدّة الفقر حتى إنهنّ كن يأتين إلى المدرسة في الشتاء بأحذية خفيفة مملوءة بالثقوب ولا يرتدين أي شيء فوق الزيّ الرسمي. تلك الفتيات أتينَ من فرح زاد، حيث يعمل آباؤهن عمالاً موسميين يلتقطون ثمار العلّيق الأبيض الذي تشتهر تلك المنطقة به أو يجمعون روث الأبقار والأغنام ويُجففونه ويستخدمونه وقوداً في فصل الشتاء. كانوا يعيشون في أكواخ يتألف كل منها من غرفة واحدة في أملاك رؤسائهم في العمل ويحرسون البساتين. كانت تلك الطالبات يسرن مسافة طويلة أو يستقللن حافلة عامة ليصلن إلى المدرسة، ومع ذلك، بدل أن يبدو عليهن الغضب أو الغيرة، كنَّ ينظرنَ إلينا، نحن فتيات حي شهرك غرب، بإعجاب ووله، وكأننا من المشاهير. وكانت قريبتي العذبة والمؤدَّبة إلهام، التي يعمل أبوها وأمها طبيبين، معبودتهن. أحياناً كانت فتيات فرح زادي يتبسمن لي من خلال نافذة غرفة الدرس أثناء فترة استراحتهن، وأحياناً كنتُ أردّ على ذلك بتلويح من يدي – لكنهن لم يجرؤن أبداً على التحدث معي. كانت نيكناز، من صفي

وتبدو غُلاميّة، صاحبة أكبر عدد من النصيرات. وكانت تتقدّمنا نوى روحاني، تلميذة في السنة الرابعة - وترتيبها الثاني.

كانت مسألة وجود فتيات عاشقات يُنظَر إليها بجدّية تامة. ومع كل تلك العواطف المُختلسة في ثانوية "الهدى"، لم يبقَ هناك أيّ مجال للادّعاء في كتابتي للشِعر، حتى ذاك الذي يحتفي بتحرُّر الجنود الإيرانيين الذين أُطلق سراحهم من السجون العراقية. وهكذا وقفتُ في مكتب المديرة متململة. "يا خانم حاج سيد جوادي، أحضري ملفّ إنتخابي فرد. كاملیا."

توقف وجيب قلبي. وبصوت ضعيف، سألتُ المديرة "اعذريني، من فضلك، خانم حسّاني، ما زلت لا أفهم ما هو الخطأ الذي ارتكبت."

"بعد أنْ تُطردي سوف تفهمين أنَّ مثل هذا السلوك القذر لا مكان له في المدرسة. وعندما يعلم أهلك بالأمر، سيعرفون كيف يتعاملون معك". ثم تجاهلتني وانهمكت بعملها اليومي. حتى احتجاجات قريبتي إلهام المجتهدة لم يكن لها أيّ تأثير. وكانت أمي قد أجبرتني على الانتقال إلى ثانوية "الهدى"، لأبتعد عن صديقاتي القديمات في مدرسة فيازبخش، أملاً في أن يحوّلني تأثير إلهام وقدوتها إلى تلميذة مُطيعة. وراحت إلهام ترمقني بقلق، وأدركتُ في قرارة قلبي أنها تلعن حظّها العاثر لأنها تتكبّد كل ذلك العناء إكراماً لقريبة لها. فأومأت لها كي تعود إلى غرفة الدرس.

كانت المديرة حسّاني عجوزاً قاسية القلب دمها يخلو من أقلّ قدر من الرحمة أو الحنان؛ داكنة البشرة والبقع تغطي وجهها، وفمها دائماً تفوح منه رائحة كريهة، ولها شارب أسود اللون، كانت مديرة محترمة،

لكنها شيطان مُكلَّف بحراسة بوابات الجحيم التي يُسمونها المدرسة الثانوية. ونحن، الملعونات، كنا نعيش في خوفٍ منها، داخل المدرسة وخارجها. وفي سكون صباح حي شهرك غرب، كانت تجوب الشوارع الجانبية المُقفِرة، بصمت وغموض، بسيارتها المرسيدس البيضاء. أو تكمن بالقرب من الحيّ، في انتظار أنْ تثب وتقبض على رسغ أيّ تلميذة من تلميذاتها تفاجئها مع فتى أو مكشوفة الشَعر أو تضحك أو حتى واقفة في كشك هاتف عمومي.

وحالما تلمح أيّ منا سيارة بيضاء تهتف من باب الإنذار "يا بنات، إنها خانم حسّاني!"، ويتراكض الجميع داخل الأزقة لكي يختبئن خلف الشجيرات أو شجرة كبيرة. كانت تجوس المكان، خلف المقود، متشحة بالسواد، كملاك الموت. فإذا رأتنا، انتهى أمرنا. كانت تشرف على الخمسين من العمر ولم تتزوج، وكنا نبتهل كي يأتي رجل كريم ويُرقِّق قلبها القاسي بحنان حبّه. ولكن لم يتقدَّم أحد لطلب يدها.

عثرت "مفتشات الجحيم"، مراقبات الرواق، مندوبات خانم حسّاني، على القصيدة بعد تفتيش حقيبتي المدرسية. فتحت إحداهنّ الورقة المطوية ثم رمتني بتحديق ثاقب. فتحت عينيّ واسعتين وبادلتها التحديق. "إنه ليس مُلصقاً لصورة مادونا! إنه شِعر". تفحّصتْ الصفحة بتعجُّب. قلت بنزَق "ألم تقرئي شِعراً من قَبل؟ إنها قصيدة حب". عند ذِكر عبارة "قصيدة حب"، تحوّل الوضع إلى نارٍ مُستعرة. كنت عاجزة، ووجدتُ نفسي في مأزق.

ظللتُ مُطرقة الرأس عندما طلبت مني خانم حسّاني أنْ أشرح لها لِمَنْ بالضبط كتبتُ قصيدة الحب هذه. رفعتُ ذقني وقلت "إلى الذين

تحرروا". في ذلك الصيف كنتُ قد كتبتُ القصيدة إلى سجناء الحرب الإيرانيين. فبعد سنتين من انتهاء الحرب مع العراق، أُطلِقَ سراح الدفعة الأولى وعادتْ عبر الحدود عند قصر شيرين. وكانت مناسبة للاحتفال الوطني.

سألتُ والدي، وأنا مترعة بالفخر، إذا كان في استطاعتنا أنْ نذهب لنرحّب بهم. فقال "إنَّ البلدة لم تُفتَح بعد للمسافرين، وأنا متأكّد من أنَّه لا يُسمح إلا للموظفين الرسميين وعائلات المساجين بالحضور". وهكذا، من جديد، مررتُ بلحظة تاريخية بالاستغراق في مشاهدة التلفاز. بكيت من شدّة الفرح مع عودة السجناء إلى وطنهم الأم إيران. شعرتُ كأني هناك معهم، مع الأمهات الخائرات القِوى وهنّ يُرحّبن بأبنائهن والسجناء يميلون من حافلاتهم ليُقبلوا الوجوه والأيدي المفتوحة التي تتمنى لهم الخير، والحشود يحملون الأزهار. أنا أيضاً، كنتُ جزءاً من انتصارهم، كنتُ إلى جانبهم مباشرة وأنا أجلس أمام شاشة التلفاز، عاجزة عن كبح مشاعري. وعندما عادت أمي إلى المنزل ورأت دموعي، حسِبَتْ أنَّ حادثة ما قد وقعتْ. فأخبرتها قائلة "لقد عاد السجناء إلى إيران".

وكانت القصيدة كما يلي:

إلى الأحرار

من بين كل الأشياء التي تدور
تدور وتدور، الشمس هي الأشدّ حرارة
أنظرُ في مرآةِ يديك

لن تعود أبداً.
وعلى الأرض، التي تُخرج نبتها،
أخبر هذا لأزهار الخشخاش الحمراء.
آه أيها الخشخاش، أنا غارقة في الحب
حتى أكاد لا أتحمل مرور لحظة من دونك.
انظر إليّ،
لكي أقرأ فيك
فكرةً لم تكتمل لطائرٍ يطير.
إنك تقترب من نهاية السماء
وأنا أُمرر يدي عبر جبيني
وأُحدّق إلى صورتك العابرة في المرآة.
المرآة التي تتحدث عنك.

إنَّ إيران هي أمّة من الشعراء – لا تجد عائلة في إيران لا تنجب شاعراً. والشعراء الإيرانيون يحبون أنْ يكتبوا عن الحب. وقصيدتي إلى الجنود كانت النمط المعاصر الرائج المُسمّى الشِعر الحر أو الشِعر الحديث. لكنَّ مصدر إلهامي أيضاً هو تاريخ الشِعر الإيراني. فحافظ، وهو أحد أشهر الشعراء الإيرانيين، يكتب أشعاراً في غاية الجمال عن الحب والجنس، وواضح بالنسبة إلى الإيرانيين أنَّ المعشوقات اللائي يكتبُ عنهن إنما يرمزن إلى الله. والناس يقرأون أشعار حافظ كأنها كنوز عُلويّة، ويستشيرونها كأنها مصدر وحي. فعبر شِعره يعثرون على الله في حياتهم اليومية. والمخيلة الرومانسية في قصيدتي شيء مُشترَك بين الشعراء الفارسيين كلهم. وأتساءل... لو كان حافظ طالباً في مدرسة "الهدى"، فهل كان سيُطرَد هو أيضاً لأنه يكتب قصائد مُثيرة للجدل؟

استُدعيَتْ أمي إلى المدرسة، وخرجت من غرفة مكتب المديرة وهي تغلي. قالت إنني طُرِدتُ لهذا اليوم. وطوال الطريق كانت تتشاجر معي. "ألا تخجلين؟ لقد أخبروني أنَّ ابنتي تعشق نوى روحاني وتكتب لها شِعراً. وددتُ لو أموت من فرط الإحساس بالخجل. لماذا لا تخجلين أنت؟"

صحيحٌ أني كنتُ أهتم بنوى، وكانت تحب كتاباتي وتمدحني باستعارة دفتري المملوء بالقصائد. كانت مختلفة عن الأخريات. كانت متميِّزة وتعزف على البيانو، وابنة عازف البيانو الإيراني الشهير أنوشروان روحاني. وبسبب والدها الشهير بمناهضته للثورة أرادتْ خانم حسّاني أنْ تعاقبنا. وكانت قصيدة "الحب" التي كتبتها ذريعة مناسبة. وصحيحٌ أني أحضرتُ معي إلى المدرسة وردة لأجلها لمناسبة عيد ميلادها، لكنّ صداقتنا كانت أبعد ما يمكن عن الصورة الشنيعة التي تحوم في رأس المديرة.

تابعت أمي وهي تتلظى من الغضب، "قالت خانم حسّاني إنها تراقبكِ أنت ونوى منذ بعض الوقت، وقد لاحظتْ أنَّ تلك الفتاة سيئة النيّة تستغلك و" - سكتتْ عند منتصف الجملة ثم انفجرت قائلة، "إذا علِمَ والدك بهذا فسوف يقتلنا جميعاً. ستنزل عليك اللعنات إذا سمحت لهم أنْ ينشروا هذه الشائعات عنك. هل سمعتِ أحداً يقول مثل هذه الأشياء ولو مرة عن إلهام؟ لِمَ لا تتعلمين حُسن السلوك من قريبتك؟"

وددتُ لو أقتل خانم حسّاني. وصرختُ بدوري في وجه أمي "وأنتِ! كيف سمحتِ لها بأنْ تقول لك مثل هذه القذارة؟ لَمَ لم

تلطميها على فمها؟ لَمَ لم تقولي إنّ هذه المدرسة هي دار للمجانين وإنها مجرد مجنونة تهذي؟"، ثم انهرتُ، وطفقتُ أبكي بحُرقة.

"ماذا كان ينبغي أنْ أقول؟ أكان يجب أنْ أقول لتلك المتوحشة إنها كاذبة ومريضة عقلياً؟ عندئذ كانت ستقول إنَّ تلك الفتاة نوى بهائيّة قذرة وإنها تتحرّش بالبنات! ينبغي ألا تتكلمي معها بعد الآن وإلا طردتك خانم حسّاني من المدرسة؟"

بعد توجيه تلك الاتّهامات إليّ، تخلّى عني وحي الشِعر مدة طويلة. وكأنَّ خانم حسّاني نَفَتْ إلهامي الشِعري إلى جزيرة مُظلمة تقع في وسط محيط شاسع. كتبت ماندانا تقول لي "أين أعمالك الجديدة؟ لا تسمحي للإعصار بأنْ يعصِف بإلهامك. إنه لازم في هذا الظرف". وكتبت لي معلّمتي من النادي تقول "تحمّلي بالصبر. دعي الشِعر يقطر من تلقاء ذاته كقطرات الماء. سوف يأتيك قريباً وحده."

توسّلت كي يُعيدوني إلى مدرستي القديمة، إلى صديقاتي فاراناك، وبيتا، ومعصومة ونيوشا. وواظبت على الفرار من الدروس لأزورهن. كتبتُ لماندانا أقول "إنَّ بيتي يغمره الظلام، واليوم لم أعُد أسمع إلا نعيق الغربان يأتيني من الشارع. إنَّ شارع منزلنا مملوء بغربان مسعورة". وأصبحتُ ممسوسة بالكوابيس، ولم تعُد لديّ طاقة على الدرس، ورسبت في الامتحانات واضطررتُ إلى إعادة سنتي الدراسية الأولى. وأخيراً، ولأنَّ إعادة السنة الدراسية في المدرسة نفسها أمرٌ مُحرِج جداً، سمحتْ لي أمي أنْ أعود إلى مدرسة فايزبخش.

عندما رسبت في الامتحانات، رفضتُ أنْ أخرج من غرفتي مدة أسبوع ونصف. كنتُ أجلس مُحدّقة إلى الجدران وأنا بائسة. وفكّرتُ،

وأنا مصدومة ومُشوّشة الذهن، في الهرب من المنزل والانتحار. فلطالما كنتُ تلميذة مجتهدة، وهذا الرسوب المُشين آلمني وآلم عائلتي. وذات يوم جاءني والدي، وجلس على السرير، وقال "كامليا، أريد أن أتحدث معك". في أول الأمر خشيتُ من عقابه، ومن أنْ يكون عقابه أقسى من ذاك الذي كان قد أنزله بي قبل ذلك ببضع سنوات عندما هبطتْ علامتي في مادة اللغة الإنكليزية. وكان قد حرمني من حضور عرس أفضل صديقاتي ليلى (تزوجت وهي في الخامسة عشرة). و لم يكتشف أبداً أني خرجت خلسة لأحضر مراسم العرس فترة وجيزة، بخطة هروب وُضِعَتْ بخوف أبقتْ ضغط دمي عالياً طوال أسابيع.

ولكن في ذلك اليوم الحزين، عاقبتُ نفسي إلى درجة أني ما كنتُ لأعترض حتى لو حبسني طوال فصل الصيف. وتمنّيتُ الموت. الأمر الذي لا يُصدَّق هو أنَّ والدي، بدل ثورة الغضب التي توقعتها منه، كان قد جاء لكي يلهمني الثقة بالنفس والأمل، والكفاح لتحقيق الأهداف، والنجاح والإيمان بأيام قادمة أفضل وأكثر سعادة.

طلب مني بهدوء أن أتبعه إلى المطبخ لكي نتحدث، ثم أغلق الباب وأشعل سيجارة. وجلسنا عند الطاولة. "أنا لا أريد لكِ أو لأختك أنْ تتزوجا صغيرتين. أريد لكما معاً أنْ تجتهدا في الدراسة. إنكما تتمتعان بمواهب نادرة، أنتما مختلفتان - وأمامكما الكثير لتنجزاه. وفي مجتمع كمجتمعنا، حيث من الإثم أنْ يكون المرء امرأة، أريد منكما أنتِ وأختك أنْ تكونا شجاعتين ومحترمتين. حتى بعد أنْ تتزوجي، حتى عندما تتشاجرين مع زوجك، إذا صرخ فيكِ أو أساء معاملتك، أريد منك أنْ تكوني قادرة على اتخاذ قراراتك. إذا كنتِ مثقفة ولك عمل،

تستطيعين أنْ تعتني بنفسك، ولن تُجبَري على البقاء مع زوج شنيع لأسباب ماليّة. تعلّمي من هذا الفاشل..."

في أثناء إصغائي إليه، كنتُ أراقب خط الدخان الأزرق الرفيع يرتفع من السيجارة المستقرّة على المنفضة، خط متواصل ارتفع عالياً حتى سقف المطبخ. رفعتها لآخذ منها نَفَساً طويلاً، فإذا بالخط يتشتت بالاتجاهات كلها. "إنَّ الوضع في بلدنا غير مُستقر ولا متوازن إلى درجة أننا قد نُجبَر في أيّ يوم على الرحيل. وإذا اضطررتِ إلى مغادرة إيران، فقد يكون تعليمك هو العملة الوحيدة التي تملكين. إنَّ التعليم عملة يمكن صرفها في أي مكان - ولا أحد يستطيع أن يسلبها منك، إنها ممتلكات لا تُحتَجَز. صدّقيني، بعد أن أرحل عنكم إلى الأبد، سيكون علمكما هو أمانكما يا بنيّتي". كنتُ أبكي بهدوء، والدموع تسيل على وجنتيّ. أردتُ أنْ أُقبّل يديه، أن أضمّه إليّ وأبكي بين ذراعيه. لكنَّ والدي لم يكن يحب أنْ تكون ابنتاه عاطفيتين. كنتُ أعلم ذلك. لقد أرادنا أن نكون قويتين. "حسن، اذهبي الآن واغسلي وجهك، ثم ركّزي على دراستك. هناك حلّ لكل شيء - ما عدا الموت. وأنت مفعمة بالحيوية، وأنا لا أزال معكم، ويمكنكِ أنْ تنهضي من جديد."

بعد أنْ غادرتُ المطبخ، شعرت أني كبرتُ سنين عديدة خلال ذلك الحديث. كانت واحدة من المرات القليلة في حياتي التي رأيتُ فيها ذلك الجانب من والدي. لقد كسرتْ هزيمتي هدوءَه الصارم المعتاد، وخاطبني من قلبه. اختفتْ بالتدريج أيام الفراغ التي أمضيتها وأنا جالسة في عزلةٍ أنعى فشلي وسط الثقة بالنفس التي أمدّني بها. وعدتُ إلى مدرستي القديمة، وبعد وقت قصير عادت أيضاً فراشات

إلهام الشِعر الصغيرة لتحطّ برفق على كتفيّ.

بدأتْ الثورة الثقافية بعد بدء الثورة بعام، وأُغلقَتْ الجامعات مدة عامين. وعندما فتحت أبوابها من جديد، كانت قد أُحدِثَتْ وزارة الدراسات العليا والتعليم للاستعلام وتقرير ما إذا كان سيُسمح لهم بدخول الجامعة. والطلاب المقبولون في الجامعة يبقى عليهم أنْ يُثبتوا أنه تتوفر لديهم المعايير الأخلاقية الإسلامية قبل أنْ يُسمَح لهم بالانتساب. وفي كل عام يأتي الجيران الذين تقدّم أبناؤهم وبناتهم لامتحانات القبول إلينا يلتمسون منا أنْ نتكلَّم في صالح أولادهم. وعندما قيَّموا مريم، ابنة جيراننا في الطابق الرابع في الحيّ القديم في شارع شهر آرا، قرع المُحقق بابنا، وكان رجلاً ذا لحية يضع نظارة سميكة وينتعل حذاءً خفيفاً. أثناء سؤاله أمي لم يكن ينظر إليها بل راح يُحدِّق إلى الجدار، ويومئ برأسه ويُسجّل معلوماته في ملفّه. كان الرجال المُغالون في سلوكهم الإسلامي يعتقدون أنه لكي يتجنبوا الإثم أثناء التحدث مع امرأة، عليهم أن يمتنعوا عن النظر إليها مباشرةً. الأمر نفسه كان مُتّبعاً في الوزارات كلها والمؤسسات الرسمية. فإذا كنت بين بضع نساء تقفون معاً، فمن الصعب أنْ تخمِّن مَن يتحدث مع مَن، وعليك أنْ تسأل "مَن تخاطب؟"، أو "إلى مَن يتحدث الأخ؟". قالت أمي إنَّ مريم هي أشدّ بنات المبنى استقامة وإنَّ والديها ورعان وإنّ "هذه الفتاة لا تتسكع مع أحد بل تلزم المنزل وتدرس."

كان المُحققون يزورون أيضاً مواقع أعمال الآباء وتجارتهم المحلية لكي يستقصوا عن سُمعة العائلة، ومدى التزام أفرادها بالحجاب، وما إذا كانوا يشاركون في أداء صلوات أيام الجمعة، وما إلى ذلك. وهكذا

تصبح مصائر طلاب الجامعة بين أيدي جيرانهم، الذين يضمر الكثير منهم بعض العداء، والاحتقار، أو الحسد. ولكن مهما كان بلاؤنا حسناً في الامتحانات وحتى في غربلة التحقيقات، بقي الأمر صعباً على عائلات من أمثالنا، بقدر ما كان سهلاً على عائلات الشهداء، والجنود على الجبهة، أو سجناء الحرب. الاختلاف الوحيد الهامّ في المسألة كان عدد المُصابين في الحرب. كانت هناك موئن خاصة تُخصّص للمحافظات الجنوبية التي مزّقتها الحرب، أما نحن أهالي طهران، الذين لم نُنجِز أي شيء من أجل الثورة، ولا نستطيع أنْ ندّعي أنَّ بيننا شهداء أو مقاتلين، فكان علينا أنْ نلجأ إلى تملُّق أصحاب النفوذ. وأذكُر كيف كانت كاتي تنهار وهي تملأ استماراتها. كنا مُصنّفين في المنطقة "واحد"، لكنَّ كاتي كانت تصرخ قائلة إنَّ "كلمة "واحد" هذه تضعنا في آخر القائمة، لا في أوّلها!". بل إنَّ بعض صديقاتها في سنتهن الدراسية النهائية قبل التخرّج نُقلنَ إلى مناطق خطرة تطالها الحرب.

لحُسن الحظ، عندما تخرّجتُ، كانت مسألة التحقيقات تلك قد انتهت. وفُتِحَت نافذة جديدة من الأمل. كانت كاتايون إحدى أوائل الطالبات المقبولات في جامعة آزاد الإسلامية المُنشأة حديثاً. وهكذا تقدّمت بدوري إلى الامتحانات للالتحاق ببرنامج في العلوم السياسية في آزاد ولا أزال في المدرسة الثانوية، في سنتي الأخيرة. لم تكن علاماتي عالية بالقدر الكافي للالتحاق بجامعة طهران، لكنني اجتزت الدورة التالية وأصبح في الإمكان تقييمي للذهاب إلى ثلاث مدن بديلة. اخترت واحدة فقط - مدينة شاه رضا. واعتبرت ذلك اختباراً، أو تجربة. أما هدفي الحقيقي فكان الالتحاق بجامعة حكومية

تضمن مستقبلاً أفضل في العام التالي. في تلك الأثناء، كانت أفضل هدية أقدّمها لوالدي هي أنْ يرى اسمي في الصحف بين المقبولين في جامعة آزاد. لقد أردتُ أنْ أمنحه هذه الراحة العذبة بعد فشلي الأكاديمي المرير قبل ذلك بعامَين. وعندما زففتُ إليه نبأ اجتيازي امتحان الدورة الأولى، على الرغم من عدم قبولي في جامعة طهران، عاد إلى المنزل من العمل في مساء ذلك اليوم حاملاً بيده علبة كبيرة من الحلوى. وقبّلني، راسماً ابتسامة على امتداد وجهه، وقال "لقد جعلتني شديد الفخر."

انتظرنا بصبر نافد صدور الصحيفة اليومية. ومرّ أسبوع منذ إعلان جامعة آزاد عن التاريخ الموعود، وفي كل يوم تنشر الصحف تأجيلاً مُبهماً. وكان والدي يسألني عن ذلك في كل ليلة. وكانت حماسته القلقة كالعدوى بيننا. ويسأل "أما من أخبار؟ متى سيُعلنون الأسماء؟ أما كان من المُفترَض أنْ تُعلَن في الأسبوع الفائت؟"، وأُجيب "نعم، هكذا قالوا. لا أدري لماذا لا يعلنونها. لكنهم سيفعلون قريباً، ربما في الغد..."

* * *

خريف عام 1991

إحدى أحبّ ذكرياتي عن والدي هي زيارة منزل الجدّة معه، بوروده الحمراء، وشجرة البرسيمون العتيقة والمهيبة، ورقعة الكوبالت فوق الباب المكتوب عليها "آل ناخئي"، وهي إحدى أشهر العائلات في طهران. وكان لقب جدّتي الكبرى الشرفي إنتخابي لاشغر وتبوّأت مكانة مرموقة في نهاية العصر القاجاري، في عهد مظفّر الدين شاه

قاجار. وقبل قرن من الزمان، وقع شاب أرمني في حب ابنة إنتخابي لاشغر الجميلة زارين تاج وطلب يدها من والدها. لكنَّ ذلك الزواج كان يخرق القوانين الدينية، والأعراف الاجتماعية، والمبادئ الأخلاقية، فرُفِضَ طلبه. استأجر الشاب الأرمني بعض المجرمين وأرسلهم تحت جُنح الظلام لمُحاصرة منزل إنتخابي لاشغر. ويُقال إنَّ زارين تاج كانت مُتيّمة بالحبّ إلى درجة أنها فتحت الباب الخارجي لقتلة والدها. وفي تلك الليلة، كان جدّي البالغ من العمر حينئذٍ خمس سنوات نائماً في سرير والده. وكان دائماً يُكرر ويُعيد حادثة قتلٍ والده على النحو التالي: "عندما فتحتُ عينيّ، شاهدتُ مجموعة من الرجال المُلثمين يحملون خناجر وسِهاماً ويقفون فوقنا. أومأوا لي كي أُخفي رأسي تحت الأغطية. وعندما أخرجتُ رأسي بعد ذلك ببضع دقائق، رأيتُ الجدران كلها ملطخة بالدماء. وجدتُ جسد والدي إلى جواري كما كان، ولكن مطعوناً مرات عِدة بالسهام."

لقد كانت طفولة جدي مبتلاة بالكوابيس عن موت والده المأساوي وبالمعاملة القاسية التي تلقاها على أيدي أعمامه وإخوته غير الأشقاء، الذين خاضَ معهم معارك قانونية على مدى سنوات طويلة حول ميراثه. وشعر بالاشمئزاز من عائلته فقرر أنْ يتبرّأ من اسم ناخئي، وأنْ يُبدّله بآخر قريب من لقب والده الشرفي، إنتخابي لاشغر. وتقول جدّتي إنهم أرسلوا زارين تاج إلى قرية نور آباد، حيث عانت من حزن عميق على موت والدها وأُصيبَتْ بانهيار عصبي وماتت هناك.

في كل فصل خريف، تستأجر العائلة شخصاً ليرتقي الشجرة ويقطف ثمار البرسيمون. ويكون نصيب كل ابن من أبناء جدّتي

حوالى مئة ثمرة، وأحياناً أكثر، من أجل عائلاتهم، تقسمها جدّتي بالتساوي على صينية كبيرة من النحاس، وتطلب من البستاني أن يترك بضع ثمرات على الشجرة من أجل الغربان والطيور الأخرى. وفي خريف طهران الجميل، كانت ثمار البرسيمون الحمراء تشعّ كالمصابيح على الشجرة الغبراء الخالية من الأوراق. ثم في أحد الأعوام، المنزل وشجرة البرسيمون وشجرة التفاح وبركة السباحة التي كنتُ أسبح فيها والقبو - كلها - بيعَتْ. وكل ما بقي الآن من القبو هو ذكرياتي عنه، القبو الذي كان يبقى، حتى في عزّ الصيف، بارداً ومُريحاً، وكان والدي يحب أنْ يقضي فترات قيلولة منتصف النهار فيه. كان يحمل في إحدى يديه تفاحتين قُطِفَتا حديثاً وزجاجة من ماء الورد، ومِبشَرة، وبعضِ السُكّر بالأخرى. كان يبشر التفاحتين وينقعهما بماء الورد والسُكّر، وبعد أنْ نشرب المزيج، يلجأ والدي إلى النوم.

أُقيمت جنازة والدي في الخريف، وحملتُ أزهار الربيع الصفراء والبيضاء بيدي. ثم هبّت الريح وعصفت بملابسي السوداء. كان الجميع قد تقدّموا نحو القبر، وتركوني خلفهم ببضع خطوات على التربة الرخوة وأنا أقبض على أزهار الربيع بيدي. كانوا قد أحضروه لأجلي لكي ألقي عليه نظرة أخيرة عن قُرب. كانت عيناه مُغمضتين، وصدره الذي كان دائماً يشع بدرجات اللون الأحمر، تحول إلى الأبيض الرخاميّ. وكان يُظلل أسفل عينه اليُسرى خط أحمر، دليل على وقوعه، وشعره الأسود الناعم، الذي حتى عمر الثامنة والأربعين لم يكن قد ظهر فيه إلا بضع شعرات بيضاء حول الصدغين، كان مخفياً عن الأنظار بمنديل أبيض. ضممته إلى صدري وصرخت "بابا، انهضْ، هيا بنا إلى البيت!"

انتزعوني عن والدي وأخذوه بعيداً، وارتميتُ على الأرض ورحتُ أناديه وأنتحب. ثم أخذتُ أركض، ولا أزال أقبض على التراب وأزهار الربيع. أنزلوه إلى الحفرة مُدثّراً بالكفن، لا يظهر إلا مقدار مثلّث من وجهه.

في صباح ذلك اليوم كنتُ قد أنزلتُ كفنه عن الرف العلويّ من خزانة ملابسي. وقبلها ببعض الوقت، كان أحد أصدقاء والدي مُسافراً إلى مكّة وعرضَ أنْ يُحضر له تذكاراً من هناك. فطلب والدي منه كفناً. وكنتُ قد وضعت ذلك التذكار المرعب بعيداً في أعلى وأبعد بقعة عن الأنظار على الرف، إلى أنْ اضطررتُ إلى إنزاله في وقت كان أقرب مما توقعت. كنا قد لففناه في ورق صحف، وكانت الكتابة ظاهرة باللون الأصفر من خلال كيس البلاستيك ونحن نحمله إلى مقبرة "جنّة الزهراء".

كان خالي علي يرتّب الحجارة على أعلى قبر والدي. وبعد أنْ وضع الحجر الأخير على وجهه، أطلقت صرخة وأشحتُ ببصري. كان وجهه مغطى بالدموع. كانت المقبرة تضج بأصوات أصدقائنا وأقاربنا ينتحبون ويئنون. نهضَ خالي واقفاً. فتحت كفيَّ. وضعت التراب على رأسي والزهر الأصفر والأبيض على وجه والدي، ما عدا واحدة احتفظتُ بها لأتذكر ذلك اليوم. واضطروا إلى جرّنا أنا وكاتي بالقوة. كان عليه أنْ يبقى، وكان علينا أنْ نرحل.

عندما عدنا إلى المنزل من أجل التعزية، اقتربت صديقتي نيغين مني. أعطتني صحيفة وشدّت على يدي. "كامليا، لقد قبلوك. في كلية العلوم السياسية في شاه رضا". لم أرغب في النظر. لقد فات الأوان. حدّقت

إلى الصحيفة بعينين خاويتين ثم سحقتها بيديّ الاثنتين. وفي صباح اليوم التالي الباكر جداً ارتدينا ملابسنا وعدنا إلى المقبرة في اليوم الثاني من أيام المراسم التي تستمر أسبوعاً. كان القبر مغطى بأكاليل الزهور. حملتُ زهرة الربيع بيد والصحيفة المجعّدة بالأخرى. صرخت "بابا، أتسمعني؟ إنني أحمل نبأً مُفرحاً إليك!". وبدأت دموعي ودموع أمي وكاتي تنهمر من جديد. همس لنا صديق والدي السيد مير إسكندري "هيا بنا. دعوه يرقد بسلام. لقد تعب من طول السنين. اتركوه يرقد بسلام". ورقد أبي في قبره الحديث، وامتزجت رائحة التربة وماء الورد مع أصوات العويل المكبوت الصادر من أرجاء "جنة الزهراء" كلها. كان عليه أن يبقى، وكان علينا أن نرحل.

* * *

ربيع عام 1992

في أحد آخر أيام فصل الربيع، ولجتُ مكاتب تحرير دار مجلة "زنِ روز". وهي مجلة أسبوعية. "زنِ روز" كانت تتضمّن قسماً من ست صفحات تحت عنوان "لِمَنْ أعمارهن بين الثالثة عشرة والثامنة عشرة". بدا أنه نقطة بداية جيدة، والأهم من ذلك، أنَّ إحدى معلماتي في النادي أخبرتني أنَّ في استطاعتي أنْ أذكر اسمها. وبما أني كنتُ لا أزال في حالة حداد على والدي، ارتديت السواد من رأسي حتى قدميّ. وقفتُ أمام المَحررة في مكتب سكرتيرة رئيسة المجلة، حاملة ملفاً ضخماً للقصاصات يضم قصائدي ومقطوعاتي الأدبية المنشورة.

"ما ذا تريدين من خانم غيراميزاديغان؟"

قلت، مختلقة أعذاراً لنفسي، إني كاتبة ولن آخذ أكثر من بضع دقائق من وقتها. ارتعشَ صوتي من فرط الحماسة وأنا أتكلم. كانت جدران غرفة المكتب كلها من الزجاج، ورأيتُ من خلالها نساءً بأغطية رؤوس سوداء منهمكات في الكتابة على طاولاتهن أو يُثرثرن معاً.

عندما سمحت لي السكرتيرة بالدخول، أدركتُ أنَّ خانم غيراميزاديغان نفسها كانت تراقبني من خلف الزجاج. كانت سمراء البشرة وتضع نظارة طبيّة سميكة وواسعة جداً حتى إنَّ أعلى نقطة منها كانت مُغطاة بطرف الخمار الأسود الذي يُخفي مُعظم جبينها. وكالأخريات، كانت تضع غطاء رأس فوق الخمار.

"سلام. لديك خمس دقائق لتخبريني عما تريدين."

استندت خانم غيراميزاديغان بظهرها إلى الكرسي، في انتظار جوابي.

"أنا شاعرة. أنا شاعرة وكاتبة، وأريد أنْ أكون مراسلة صحافية. أرجوك صدقيني، سوف أكون مراسلة جيدة..." ووضعت ملفي بحركة متوترة أمامها.

طفقت تتصفح أعمالي. قالت "نحن لا نعيِّن أحداً. إننا نلجأ إلى أشخاص مستقلين يكتبون بانتظام. ومع ذلك، ستعملين معنا لمدة أسبوع واحد على سبيل التجربة، وسوف نرى عملك"، ورفعت سماعة الهاتف "اطلبي من خانم بارسائي أنْ تأتي إليّ لحظة."

كانت خانم بارسائي بيضاء الوجه، حاملاً، ذات عينين خضراوين بدتا أصغر من خلال نظارتها. قالت لها خانم غيراميزاديغان، "هذه الفتاة تقول إنَّها تحمل جينات مُراسلة صحافية. اختبري جيناتها". لم

تُتح لي الفرصة حتى لشكرها. "حسن، حسن، اخرجي، اخرجي، لديّ الكثير من الأعمال. بارسائي ستهتم بالباقي."

رافقتُ بارسائي إلى قسم "الثالثة عشرة إلى الثامنة عشرة". لم تكن بارسائي ترتدي غطاء رأس، لكنَّ خِمارها الطويل غطّى شعرها كله وكتفيها.

"هذه ليست مدرسة ثانوية. لن نسمح بأي تذمُّر أو شكوى. نحن نعمل بجديّة، ونحتاج إلى مراسلة جادّة ومنتظمة. خُذي آلة التسجيل هذه واذهبي إلى "معرض فن الأطفال المتميزين" في مركز بهزيستي في شارع سيد الزمان وأعدي لي تقريراً. أحياناً يتوفر لدينا سائق يقلّك إلى هناك، وأحياناً أخرى، كهذا اليوم، سوف تضطرين إلى ركوب سيارة أجرة. اذهبي وعودي بحلول الظهيرة. وانتبهي إلى حجابك أيضاً. لا أريد أنْ يصلني أي استدعاء من مكتب الأمن. إنَّ الأيام التي كانت فيها مجلة "زنِ روز" تختار مسز إيران ولّتْ. أما في الغد فلتكن ملابسك أكثر حشمة. وممنوع وضع العطر."

أول مقالة لي نُشِرَتْ في العدد التالي، وبعد ذلك بأقلّ من ستة أشهر، أصبح لي طاولة خاصة ولقب. وبدأتُ أكتب مقالات أسبوعية وتقارير خاصة، وكنتُ أسهم في الاجتماعات التحريرية. ولكن في أثناء الأسابيع القليلة الأولى، كانت بارسائي تختزل تقاريري إلى النصف ثم إلى الربع أمام عينيّ وتعيدها إليّ.

"هذا هراء. اذهبي وأعيدي كتابته. إنَّ تقريرك يجب أنْ ينطوي على ذكاء مفيد، ومدعوم، وملّاح، لا على إشاعات وثرثرة."

وتستدعيني زهرة أمرائي، وهي مراسلة خاصة للمجلة، " تعالي،

اكتبي تقريراً جديداً، وسوف أراقبك عن كثب. ولا تتذمّري. لا أحد يولَد وهو مُراسل. كل مُبتدئ يتعرّض عمله للرمي في القمامة". وتحسّنت كتابتي، وحصلتُ على أنواع شتى من الرسائل من قراء مراهقين. كانوا يبعثون إليّ برسائل مُرفقة بتعليق أو يرسلون قصائد أو آراء، وكنا ننشرها لهم. وسُمِحَ لي بالاتصال بهم وبالكتابة إليهم مع ملاحظات من هيئة التحرير عند الضرورة. البعض كانت لديه أسئلة أو يطلبون العون في حالات شخصية؛ وكنا نفرز تلك الرسائل ونبعث بها إلى مختصين من أجل تقديم المشورة. وعندما غابت بارسائي في إجازة أمومة، أصبحتْ ثلاث منا، وكلنا من المراهقات، مسؤولات عن قسم "من ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر". وتعلّمتُ كل شيء بدءاً بالكتابة مروراً بالتحرير والتنسيق وانتهاءً بتصحيح البروفات الطباعية. وفي صباح كل يوم عند الساعة السادسة والنصف، كنتُ أنتظر خارج منزلي خدمة السيارة لكي تنقلني إلى شارع تبخانه وأنا في ذروة السعادة.

عندما بدأتُ العمل في "زنِ روز" (زنِ روز)، لم يكن هناك أي تنوُّع في أكشاك بيع الصحف؛ لم تكن تُعرَض إلا بضع صحف – "**كيهان**"، "**اطلاعات**"، "**أبرار**"، "**رسالت**"، "**جمهوري إسلامي**" و"**سلام**". كانت غرفة سلطة الرقابة تدير الصحافة بأسلوب رسمي، أو على الأقل شبه رسمي. على أي حال، كان الجو العام مُحافظاً إلى أقصى الدرجات. كانت شركة كيهان، أكبر شركة للنشر في إيران، تمتلك مجلة "**زنِ روز**". وبعد الثورة صادرت الدولة الشركة وعيّن الإمام مديرتها الرئيسة. وكانت صحيفتها الرئيسة، "**كيهان**"، هي الأوسع انتشاراً في إيران قبل الثورة وبرزت بعد ذلك بوصفها صحيفة الدولة ذات الميول اليمينية.

وكان الناس يشترون صحيفة "كيهان" من أجل قسمها المبوَّب وأيضاً، وخاصة، من أجل صفحات النعي التي ليس لها مُنافس. كم من مرة اكتشفنا وفاة أصدقاء لنا عبر قراءة تلك الصحيفة... وأهم شيء، أنَّ "كيهان" كانت صحيفة رخيصة الثمن، وصفحاتها كبيرة ومناسبة من أجل تنظيف النوافذ ولفّ الأعشاب عند بائعي الخضار.

كانت الرقابة على الأخبار جزءاً من سياسة شركة كيهان، وامتدّت صلاحية الرقابة حتى طالت قسمنا الصغير "من الثالثة عشرة إلى الثامنة عشرة" في مجلة "زنِ روز". فكتبتُ مقالة بعنوان "متى سيخضرّ نخيل خرمشهر؟" وذلك بعد أنْ أمضيتُ عطلة النوروز في الجنوب، في زيارة ماندانا في عبدان وصديقة أمي ماريا، في الأهواز. وقمتُ مع أمي وكاتي وكاي خُسرو بجولة في المدن الحدودية التي مزّقتها الحرب، نُحدّق إلى السفن الغارقة من ضفة نهر كارون، ونبكي عندما نشاهد الأرض اليباب في خرمشهر، التي كانت مشهورة بأشجار النخيل، وقد خلتْ من أيّ أثر للخُضرة. وقبل أنْ تذهب المجلة إلى المطبعة، سُحِبَ المقال. ووُجِّه إليّ تحذير لأني تجاوزت الحدود بكتابة مقالة سياسية. وعقاباً لي أصبحت مقالاتي تُنشَر من دون ذِكر اسمي على مدى الأسبوعين التاليين.

خلال الفترة رئاسة هاشمي رفسنجاني الثانية غطت صحيفة اسمها "همشهري" (المواطن) على الوهج الرتيب الكئيب للصحف الأخرى بشعاع من نور. كانت أول صحيفة ملوّنة بالكامل في إيران وكانت أكثر انفتاحاً وثقافة، لأنَّ مُديرها كان مُحافظ طهران ذا الشعبية الواسعة والمثقف، غلام حسين كرباستشي. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً أصبح

كل شخص في طهران يقرأ صحيفة "**همشهري**". حتى صفحات الإعلانات في صحيفة "**كيهان**" بهت بريقها بالمقارنة مع تلك التي احتوتها صحيفة "**همشهري**" ذات التصميم الذي يُجاري روح السوق. وعندما سمعتُ أنَّ "**همشهري**" ستُصدِر أول صحيفة يومية للأطفال في الشرق الأوسط تحت عنوان "أفتاب كردون" (زهرة عبّاد الشمس)، قدّمتُ طلباً على الفور. وتقدّمتُ من خانم غراميزاديغان في "زنِ روز" وقلت لها برقّة وبارتياح غامر، "ابتداءً من الغد، سأكون في صحيفة "أفتاب كردون""، ووضعتُ بطاقة هويتي الجديدة أمامها على طاولة مكتبها.

كنتُ سألتحق بصحيفة "**أفتاب كردون**" ببنائها الحديث والأنيق القائم في وسط المدينة في الصباح وأحضر المحاضرات في كليّة العلوم السياسية في جامعة آزاد الإسلامية في فترة بعد الظهيرة. كانت قاعات المحاضرات ممتلئة حتى آخرها بالطلاب الذين قُبِلوا في الجامعة من دون تقديم امتحانات قبول كجزء من الحصص التي وزّعتها محطة "صدا وسيما" التلفزيونية. البعض كانوا شخصيات تلفزيونية مشهورة، ومُقدمي نشرات أخبار، أو مُعلقي مباريات رياضية. ولفتتْ انتباهي امرأة اسمها فائزة بهرماني، وهي طالبة زائرة من مدرستنا في كرج. كانت قد جاءت بسيارة رينو بيضاء، ورفعَتْ غطاء رأسها وثنته ووضعته على خلفيّة كرسيّها أمام ذهول طلاب القاعة. أعجبني موقفها - لم تكن أي من الفتيات الأخريات لتجرؤ على خلع غطاء رأسها في قاعة المحاضرات، حتى وإنْ كان ارتداء الغطاء ليس إلزامياً.

لم يكن في الجامعة متسع من أجل وضع الرجال والنساء في

قاعات منفصلة، لذلك قُسِّمت كل قاعة إلى قسمين، تجلس السيدات على الجانب الأيمن والرجال على الأيسر. وحتى عندما يزدحم الجزء المُخصص للنساء وتكون هناك مقاعد خالية في قسم الرجال، كنا نحشر أنفسنا بصورة مزعجة على المقاعد لكي نتجنّب أي اختلاط لا ضرورة له مع الجنس الآخر. حتى الدَرَج كان مُقسّماً ويُشرف عليه جواسيس من لجنة الانضباط. فإذا احتجتِ، لسببٍ ما، لأنْ تتحدثي مع أحدهم عبر الخط الفاصل في القاعة، فعليكِ دائماً أنْ تتكلمي بصوتٍ عالٍ وواضح لكي يكون الجميع شاهدين على براءة طلبك باستعارة كتاب أو تبادل دفاتر المحاضرات. وكان يمكن أنْ نتعرّض للحرمان من الدراسة في أية لحظة إذا أبلغت لجنة الانضباط عن سوء سلوك. في ظل ذلك الجو العام، صدمتني أفعال فائزة بكونها شجاعة.

كانت فائزة دائماً تستعير دفاتر محاضراتي عندما لا تتمكن من الحضور. ومع ذلك، بقيتُ لا أعرف مَنْ تكون إلى أنْ أخبرتني فتاة أخرى في القاعة. وسرعان ما نشرتُ الإشاعة. "هل كنتنّ تعلمنَ أنها ابنة الرئيس هاشمي رفسنجاني؟" هكذا كنتُ أهمس لصديقاتي من محطة "صدا وسيما" (صوت وصورة). "هذه هي ابنة الرئيس". فنظرنَ إليها غير مُصدّقات. ووجودها معنا على مقاعد الدراسة لم يكن بالأمر الهام، أما سلوكها فكان كذلك دون أدنى شك. وكانت تربط والدها بالخميني صِلة وثيقة، ولذلك هي هنا تستطيع أنْ تنزع غطاء رأسها. كنا نتوقع من ابنة الرئيس أنْ تكون مُغطّاة بالكامل حتى عينيها كغيرها من الثوريات. وكنتُ أُذهل عندما أراها تقود السيارة متوجهة إلى المدرسة لا تضع إلا وشاحاً على رأسها، ثم تضع غطاء رأسها الكامل

عندما توقِف سيارتها لكي تمشي إلى قاعة الدرس. قالت لي إحداهن "اذهبي واطلبي منها أنْ تُريك بطاقة هويتها."

"عُذراً فائزة؟"، فرفعت رأسها عن دفتر المحاضرات.

"نعم؟"

سألتها بصوت صريح "هل لي أنْ أرى بطاقة هويتك برهة؟ إنهنّ لا يُصدّقن أنكِ فائزة". أعلم أني كنتُ فظّة، ولكن أردتُ أنْ أُثبت أني مرتاحة في صِلتي بابنة الرئيس. لقد كانت من خلال استخدامها كنية باهريماني، وهو الجزء من اسم عائلتها الكامل الذي لم يكن والدها يستخدمه، تحمي نفسها من عناصر الأمن. وها أنا أصبحتُ فضوليّة وأفضح أمر صديقتي لكي أكسب المزيد من الشعبية.

ودون أنْ تتفوّه بأية كلمة، راحت تفتش حقيبتها وناولتني بطاقة هويتها، حيث كان مكتوباً ببساطة "فائزة هاشمي باهريماني."

بعد مرور بضعة أشهر بدأتُ أشعر أنَّ صحيفة "أفتاب كردون" كانت أيضاً صغيرة عليّ. وكانت تحتنا مباشرة مكاتب صحيفة "**همشهري**"، وحلمتُ بالانتقال من الطابق الخامس إلى الرابع. واشتكى مُحرري من أنَّ مقالاتي ثقيلة على فهم القراء الصغار، كالتي كتبتها عن الدور التحتي من قاعة روداكيئي، وكيف أنَّ الغبار يتكدَّس على الزينة الرائعة الباقية من احتفالات مرور 2500 عام على الحكم الملكي، من طول النسيان، وأزياء الاستعراض الدقيقة الصنع المدفونة تحت خشبة المسرح بطبقات عديدة. لقد شعرتْ أنَّ المقالة شديدة التعقيد ولا صِلة لها بالأطفال. لكنني لم أعد أريد أنْ أكتب للأطفال؛ أردتُ أنْ أحضر المؤتمرات الصحافية التي تُعقَد في الوزارات الهامة وأنْ

أكتب في القضايا السياسية والاجتماعية. وكان من المفترَض أنَّ كتابة تقارير للمراهقين هي الخطوة الأولى، ويجب تجاوزها. ولكني في "أفتاب كردون" كان لا يزال يُطلَب مني أنْ أعرف مركزي وأبقى فيه.

لذلك استجمعتُ شجاعتي وقدَّمتُ مقالة لمُحرر القسم الاجتماعي في صحيفة "همشهري"، فريبورز بايات. كانت المقالة تدور حول زوجين يُعانيان من مشكلات في المقدرة على الإنجاب، وعرضت ما يمكن أنْ تقدّمه المستشفيات في هذا المجال وما يقوله الإسلام عن مسألة الحمل. وقُبِلتُ عضواً في هيئة التحرير - كل ما تطلّب مني هو أنْ أُغيِّر بطاقة هويتي، وإذا بي أصبح أخيراً مُراسلة بكل معنى الكلمة تعمل لأفضل صحيفة في إيران. أصبح في استطاعتي أنْ أتوجّه إلى مركز عملي مرتدية معطفي ذا اللون الزمردي وأجلس مع مثقفين ناضجين مثل آصف ناخئي ويوسف بني طوروف وإيران زاد وأنْ أتحدث في الإصلاح الديموقراطي. كم كان ذلك جميلاً!

* * *

"ماما، **يلّلا!** أطلقي الزمور! **يلّلا** - أطلقي الزمور!"

ملأ هدير الزمور المزعج شارع مير داماد. أجابت أمي مُطمئنة وهي تتلاعب بالكلمة "بيب! بيييب! بيب!"، وأبرزَ كاي خُسرو رأسه من النافذة الأمامية وأبرزْت رأسي من الخلفية، ورحنا نصرخ "خاتمي! خاتمي!". كنا قد غطينا السيارة كلها، حتى الحاجب الزجاجي الخلفي، بمُلصقات صور المُرشَّح للرئاسة.

كانت طهران قد انقلبت رأساً على عقب من فرط الحماسة. فقد

كان خاتمي هو المُرشّح المُفضّل، وكان مُرشّح الحكومة ناطق نوري مذموماً. وصرخ أحد المارة في وجوهنا "لا تتعبوا أنفسكم! سيتم الأمر، وفجأة سيُصبح ناطق نوري رئيساً". كان الفتية في سن المرحلة الثانوية يرمون المنشورات بحماسة. "من أجل الديموقراطية، من أجل الحرية، صوّتوا لخاتمي!". كنا مُحاطين بمراهقين يرتدون أزياءً حديثة – إنه الجيل الذي كان من المفترَض أنْ يحمل لواء الثورة لكنه لم يفعل. كانوا يُمثلوننا نحن. كانوا يمثلونني. نحن الذين نستمع إلى موسيقى البوب ونرقص في الحفلات. نحن الذين مثَلنا أمام لجنة التأديب بتُهم تافهة، وتعرّضنا للركل أو للسجن بعد مُداهمات جبانة لمنازلنا، وجُلِدنا بالسياط وأُجبرنا على دفع غرامات بلا أي مُبرِّر. في أعماقنا، كنا نكره الحكومة والنظام، واليوم نُعرّي الحقيقة وكلنا أمل في إجراء إصلاحات متحضّرة، ومُسالمة. بتصويتنا كنا نطالب بالحقوق الإنسانية وبالعدالة الاجتماعية.

كان خاتمي قد لجأ إلى شِعار "إيران للإيرانيين!" لحشد الناس حوله. أنا أعلم ماذا يعني هذا التصريح بالنسبة إليّ. أنا، التي اعتبرني مجتمع آية الله مواطنة من الدرجة الثانية، واحتقرني وازدراني. آه، كم كان قلبي مُفعماً بالأمل! في تلك الحملة غير المسبوقة كان الناس متّحدين وفرحين للمرة الأولى منذ قيام الثورة. والخوف كان من أنْ يفوز ناطق نوري، ويُنزل المجرمون والمتطرفون الدمار والخراب على رؤوس الناس، وتتعرَّض مكانة إيران العالمية لخطرٍ فادح. وتحدث خاتمي بفصاحة عن المعاناة وحالة الوهم التي نتكبّدها، نحن ملايين الشبّان في إيران. فإذا فاز، فسوف يكون ملاكنا المُحرِّر.

"ماما، هناك كشك لحملة خاتمي. انتظري لحظة، سوف نُحضِر المزيد من مُلصقات الصور. وإلا مُنينا بالهزيمة هذا المساء". عندما تأبّطنا الصور وهرعنا عائدين، لم نجد أمي هناك! ألم يكن ذاك موقفاً قانونياً للسيارات؟ ورحنا نفتش في طول المكان وعرضه. هل ملّتْ الانتظار فغادرت؟

سألني فتى يوزع المنشورات، "أتبحثين عن سيارة رينو زرقاء تقودها سيدة؟"، أومأتُ برأسي إيجاباً. فقال "لقد اعتقلها أعضاء مجلس التأديب وأخذوها إلى المركز."

ارتخى فكّي. لم تكن أمي تضع مساحيق تجميل، ولم تكن ملابسها غير محتشمة. ولكن كل القوات المسلّحة والمليشيا المتطوعة، أو ربما من الأفضل القول كل رجال حزب الله، حُشِدوا من أجل تحريم الدعاية السياسية. ردّة الفعل المتشددة هذه لم تساعد إلا على جعل الناس ينظرون إلى الانتخابات بوصفها استفتاءً شعبياً سوف يُعتَبَرُ انتصار خاتمي فيه رفضاً تاماً للجمهورية الإسلامية. كنتُ أنا وخُسرو نتشاور بقلق عندما شاهدنا سيارة زرقاء مألوفة تظهر عند المنعطف. كانت خالية من مُلصقات الحملة الانتخابية. وكانت أمي تقود السيارة وهي تغلي من شدّة الغضب.

"ماما، إلى أين ذهبت؟"

"فقط اخرسا! أنتما الاثنين. لعنة الله عليكما وعلى السيد خاتمي! واللعنة على دعايتكما السياسية! لقد جرّتني لجنة التأديب وقالت "ما هذا؟ أهذه سيارة أم كشك حملة انتخابية يسير على دواليب؟ وقالوا إنَّ إلصاق الصور أمر غير قانوني". وهدّدت لجنة التأديب باحتجاز أمي

وإرسالها إلى المركز الرئيسي، لكنها توسّلت إليهم ألا يفعلوا، مُعلّلة ذلك بأنَّ أولادها المهووسين بالانتخابات هم الذين زيّنوا سيارتها. ولمّا لم يجدوا أطفالاً حول السيارة يقبضون عليهم، ماذا سيفعلون بسيدة محترمة في منتصف العمر؟

بعد ذلك بيومين، توقفت أمي مع أختي عند تقاطع شارعي سهراوردي ومُطهّري. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، وقد وقفتُ أحمل لوحة لصورة خاتمي أطول مني. وكانت مجموعتي من الأولاد ترمي المناشير على السيارات لدى توقفها عند تقاطع الطرق. وكنتُ قد جمعت مجموعة تتراوح أعمارها بين العاشرة والثالثة عشرة. لم يكن قد بقي على بدء الانتخابات إلا ثمانٍ وأربعون ساعة، وكانت عائلتي تحتفل بذكرى زواج أختي، وكان منزلها يقع بصورة مثالية بالقرب من مركز قيادة حملة خاتمي. وهكذا استغللتُ الفرصة وخرجتُ مع كاي خُسرو وحفنة من الأقرباء الآخرين إلى الشوارع. كان أمامنا حتى منتصف الليل لنروِّج للحملة. ولن يقوم أيٌّ من أفراد عائلتي، بمَنْ فيهم أنا، بالتصويت بعد ذلك بيومين. فالتصويت كان يعني دعم النظام وبُنية الجمهورية الإسلامية، وأخذتُ أتعذّب وأنا أتساءل إنْ كان ينبغي أنْ أصوّت إلى أنْ فات الأوان. ولكن قمتُ مع أخي بالترويج للحملة حتى نالنا الإرهاق. وفي يوم الانتخاب توافد عشرون مليون إيراني – العديد منهم كان يُصوّت للمرة الأولى، وكثير منهم كانوا من النساء – على منافذ الاقتراع، وفاز خاتمي فوزاً ساحقاً.

كنتُ أُحكِم ارتداء غطاء رأسي، ومع ذلك كان يستوقفنا اثنان من الكشّافة عند تقاطع الطرق التالي ليحذرانا حالما شاهدا دورية من

المليشيا. وعندما كان الصبية يهتفون لنا، كنا نتدافع ونسرع إلى الاختباء في المتجر عند المنعطف ونُخفي المُلصقات والمنشورات. وعملية الركض والاختباء هذه كانت تتكرر كل عشرين دقيقة، لكنَّ الأمر كان يستحق العناء. وكان سائقو السيارات يُصعقون لدى رؤيتهم امرأة خارج منزلها في مثل ذلك الوقت المتأخر حاملة صورة عملاقة لخاتمي، ويُسلطون أضواء سياراتهم عليّ ليتيقّنوا من أنَّ ما يرونه حقاً هو فتاة.

"كامليا، كفى! اصعدي! أخبري الصِبية أنْ يذهبوا إلى منازلهم". كانت كاتي مُثقلة بمساحيق التجميل بمناسبة الاحتفال بذكرى زواجها وترتدي معطفاً أزرق اللون فوق الثوب المسائي. وكانت أمي قد دفعتها في محاولة يائسة إلى استدعائي. كانت تلك المرة الخمسين تقريباً التي تخرج فيها بالسيارة بحثاً عني، وفي كل مرة كنتُ أقول لها "فقط خمس عشرة دقيقة أخرى!". نظرتُ إلى كاتي. كنتُ قد أغضبتها حقاً.

"سوف نوصل الصِبية!"

لكنَّ زملائي من الصِبية لم يتحركوا من أماكنهم – لن يتحركوا من دوني. هتفت "هذه لحظة تاريخية. هيا. سأعود بعد ساعة."

هذه المرة انفجرت أمي بكل معنى الكلمة "إنَّ المدينة في حالة فوضى عارمة! سوف يأتون ويلقون القبض عليك بوصفك من المجاهدين، وسوف تترتب عواقب. كما حدث لغولي. سوف ينتهي بك الأمر بعد ذلك إلى أنْ ترقدي بجوارها في مقبرة "جنّة الزهراء". واللعنة على خاتمي! إلى أيّ مدى يجب أنْ أقلق عليك؟"

بقيت قصة غولي تمسّني طوال عهد طفولتي وسوف تبقى تمسّني لاحقاً وأنا أقبع في السجن. كنتُ أتذكّر ثوب الزفاف عندما علّقته أمها

على الجدار، الثوب الذي أحضرته غولي من إنكلترا ولكن لم تسنح لها الفرصة لارتدائه. وأخبرنا والدي أنَّ الحرّاس أحضروا حقيبة تحتوي ملابسها مع نسخة من القرآن وإصبع من السُكّر. قالوا "هذا مهر ابنتك". وأذكر بحث والدي المضني، والعقيم، لمعرفة إن كانت غولي قد تزوجت من أحد الحرّاس قبل أن تقف أمام فرقة الإعدام، وسعيه لمعرفة الحانوتيين الذين غسلوا الجثث، فربما يوافقون على كشف هذا السرّ. في الدين الإسلامي، يُعدّ إعدام فتاة عذراء عملاً شنيعاً.

الفصل العاشر

طائر ماهر يقع في الفخ

خريف عام 1999

عندما رأى أحدنا الآخر، تسّربت خيوط طاقتي المُركّزة بصورة سحرية من أطراف أصابعي، ورسمته موثقاً. لم يرَ شبكة العنكبوت الدقيقة، غير المرئية، منسوجة حول يديه وقدميه. لكنه رأى يديّ. وبعد شهر ونصف، استطعتُ أنْ أشعر به يتقلّب. لم يعُد مُستجوبوه يهتمون بما إذا كنتُ جاسوسة أم لا. لقد أصبحوا يهتمون برغبته في سماع صوتي ورؤية يديّ.

عندما كنتُ أسمع صوت باب الزنزانة يُفتَح، يبدأ قلبي يخفق بقوة. القصة التي كتبتها لأجلنا بدأت بوقوعي في شباك الحب، حبٍ حقيقيّ إلى درجة أن يكون كذلك بالنسبة إلى الرجل الذي يستجوبني. سوف أتحرر بقوةِ حيويةِ حبي. هذه القصة وقعت داخل جدران هذه الزنزانة، أعلمُ هذا، لكنَّ خيالي يُشلّ عندما أبدأ بذكر ما

سيحدث خارج السجن. أولاً يجب أن أتحرّر.

كانوا شديدي الاهتمام بما وقع في منزل فائزة هاشمي. لقد سمعوا شائعات عن علاقاتها مع رجل ما وأرادوا أن يعرفوا التفاصيل كلها - كم عشيقاً لها، ومدى جدّية تلك العلاقات. أرادوا أن يعرفوا هل تصلي أم لا، هل تضاجع زوجها، السيد لاهوتي، ليلاً أم لا؟ هل يُناهضان حكم الأئمة أم يعارضان آية الله خامنئي؟ رفضتُ أن أُعطي جواباً طوال أيام، ولكن بعد ذلك، بدأتُ أخبرهم بكل ما أرادوا أنْ يعرفوا، وكل شيء آخر، بدءاً بالأسرار التي ظننتُ أني لن أبوح بها لأحد وانتهاءً بأكاذيب فاضحة تتناسب مع أسئلتهم الفاضحة. واستنزفتني الاستجوابات، وأصبح ذهني مُشوّشاً و لم أعد أُميِّز الحقيقة من غيرها. أفضيتُ، ووجهي يُقابل الجدار، بأكبر قدر مما استطعتُ اختلاقه من الأسرار عن عشّاق فائزة. واعترفت أيضاً بأدقّ التفاصيل عن حياتي الخاصة، وملأني اعترافي بتلك الذكريات " المُخجلة " لمُستجوبي بإحساسٍ غريب بالطهارة الدينية. شعرتُ أنَّ اعترافاتي تُقرّبه مني. أخبرته عن مدى سوء والديّ، عن مدى بُعدهما عن الدين، وكيف أنهما لا يؤمنان بالحكومة. وكيف أني أشرب الكحول. ثم، عندما وجدتُ أنه يرغب في سماع المزيد، رحت أنسج الأكاذيب.

كان هناك شيئان عاهدتُ نفسي على ألا أبوح بهما أبداً، وتشبّثتُ بقراري. "كلا، أنا لا أقابل فرح بهلوي. هذا غير صحيح. أنا قابلتُ رضا بهلوي وأجريتُ معه حواراً، لكني لم أقابل فرح! "

صرخ "أيتها الشيطان اللعين! أنت تكذبين! لقد اعترفتْ أمك لنا بأنكِ قابلتها. قولي الحقيقة!"

قلتُ لنفسي إنَّ في إمكانهم أنْ يُذيقوني مرّ العذاب، ويوصلوني إلى أعتاب الموت، ولكن مهما يحدث، يجب أنْ أقاوم التحدث عن أمرين: جين، عميلة الاستخبارات الأميركية التي كانت صديقة مُخلصة، وطيبة، ولقائي بالملكة. ولم أتمكن من إقناع مُستجوبي بأنها كانت علاقات إنسانية، بسيطة. لو أنهم علِموا بأمر تلك اللقاءات، لعلّقتني وزارة الاستخبارات من خُطّاف تعليق اللحم لكي أروي ما يريدون سماعه. والتزاماً مني بأداء دوري التمثيلي، واظبت على أن أقول لنفسي إنَّه لا بد أنَّ أمي وعائلتي يتخيّلون أشياء كثيرة. وتماديت حتى أقنعتُ نفسي بأني لم أقابل الملكة أبداً.

لاحقاً، أخبرتني أمي وكاتي عن استجوابهما. قالت أمي "في اليوم الثاني لاعتقالك، قالت المحكمة الثورية إنَّ في وسعنا أنا وكاتايون أن نأتي لزيارتك. كنا نبكي خوفاً على سلامتك. لكنكِ لم تكوني هناك. بدل ذلك أخذوني إلى غرفة فيها رجلان ملتحيان. سألت "أين كامليا؟ إلى أين أخذتم ابنتي؟"

"اهدئي، حاجة خانم. إذا لم تهدئي، فسوف تذهب ابنتك إلى الجحيم. عظيم، والآن قولي لنا، ماذا أخبرتكِ كامليا عن لقائها بفرح ديبا؟ لقد أخبرتنا بنفسها أنكِ شعرت بسعادة غامرة!"

"ضحك ذلك القميء والنحيل ذو الفم الملتوي بخبث ووقفَ فوقي ينتظر الجواب. فقلت "لماذا تستجوبني؟ يكفي أنكم اعتقلتموها ولا نعلم ماذا تُنزلون بها. والآن تلاحقوننا وتكذبون علينا وتخبروننا أنكم تُعدّون لجمعنا بها – لكي تعذبونا؟ إنَّ ابنتي بريئة. وهي لم تقابل فرح. خذوا أسئلتكم واذهبوا واطرحوها على

فائزة هاشمي، التي تقولون إنها مسؤولة عن تقرير كامليا."

أخبرتني كاتي أنها سمعت أمي تصرخ وتحاول أنْ تقتحم الغرفة، لكنَّ ضباط الاستخبارات سدوا الباب وهددوا باعتقالها. وعندما غابت أمي عن الوعي، حملها الرجال إلى الخارج وأحضروا كوباً من الماء الممزوج بالسُكّر من مكتب القاضي لينعشوها. ثم أجبروا كاتي وهي تحمل وليدها ذا السنتين ونصف، ياسبانو، على ولوج غرفة الاستجواب. وعندما رأى الصغير ياسبانو أمي تكافح وتجادل في أثناء جرّها إلى الخارج، بدأ يبكي دون توقف.

قالوا لها "أمس اعترفت كامليا بأنها ذهبت لتقابل فرح بهلوي". فأجابت كاتي بغضب، "إنها لم تقل هذا أبداً، و لم أسمع أي شيء كهذا. لا بد أنكم ضربتم أختي المسكينة حتى دفعتموها إلى الكذب."

قالت لي أمي "في ذلك الأسبوع أمَّ خامنئي صلاة الجمعة، ثم طفقَ يتكلّم عن التجسُّس وإذاعة أوروبا الحرّة والإيرانيين الخونة. ثم ذهبنا إلى منزل فائزة، وطلبنا منها أنْ تفعل شيئاً لمساعدتك، وإلا قتلوك. حتى فائزة قالت إنَّ تلك الخطبة كانت تشير إلى نبأ اعتقالك."

كنتُ قد سمعت عن خُطب صلاة الجمعة من مُستجوبي. قال لي "لقد زففنا إلى سيادته آية الله خامنئي النبأ العظيم عن الجاسوسة التي قبضنا عليها، وقد أشار إلى ذلك أمس في خطبة الجمعة. آه، سوف تقعين في ورطة إذا لم تُبرّأ ساحتك في الوقت المناسب. الجميع يشعرون بالاشمئزاز منك. ويطلبون موتك. لقد نُشِرَتْ التُهم الموجّهة إليك في عدد اليوم من صحيفة "كيهان". لم يبقَ لديك أي صديق."

لقد أراد أنْ يسحق إيماني بأنه سيُطلَق سراحي، ولكن كان هناك

برعم أمل لا يزال حياً داخلي. وكان والدي شديد التعلُّق بأقوال حافظ ودائماً يُردّدها. كان بيت من الشِعر يزوّد المرء بالشجاعة عندما تصل الأمور إلى طريق مسدود: "عندما يعلق طائر ماهر في فخ، عليه أنْ يتزوّد بالقوة وينتظر".

كنتُ إذا أردتُ أن أفعل شيئاً، فإني أجد وسيلة لفعله. وقد أردتُ أن أخرج من السجن، فتزودتُ بالقوة، لعِلمي أني سأخرج.

حاولوا أنْ يوصلوني إلى نقطة الانكسار، نقطةٍ لا يعود عندها لأي شيء أهمية. ونقلوني من الغرفة الرطبة إلى زنزانة جافة، ولكنّ الضوء القوي نفسه كان لا يزال مُسلّطاً طوال أربع وعشرين ساعة. والسجادة الخشنة نفسها تغطي الأرض. كان لديّ كوب من البلاستيك من أجل شرب الماء وطبق من النحاس من أجل الأكل. وكان نظام الاستحمام هو مرة واحدة في الأسبوع يوم الأحد، وفي يوم آخر نقوم بواجب التنظيف. في أسبوع نقوم بتنظيف الحمامات والمراحيض وفي الأسبوع التالي نكنس ونمسح الرواق والفسحة التي أمام الزنزانات. وفي أحد أيام الجمعة عندما كان دوري في التنظيف، أصغيتُ إلى صوت مذياع الحراس وأنا أكنس الرواق. كان ضيف البرنامج شخصاً أعرفه، أفشين آلا، وهو مؤلف وشاعر كتبَ للأطفال وللبالغين. وأخذ يُلقي إحدى القصائد.

حبستُ دموعي، وأنا أفكر في أصدقائي الأحرار، في التنقُّل في الشوارع والسوق. مَنْ منهم يفكّر فيّ؟ أتراهم ينتظرونني؟

بعد إطلاق سراحي، صادفَ أني رأيتُ أفشين في مكتب فائزة، فقلت له "أفشين، عندما كنتَ تلقي الشِعر كان مذياع الحراس مفتوحاً،

وأصغيتُ إلى صوتك وبكيتُ بحُرقة من فرط إحساسي بالوحشة. ليت كل مَنْ تُسمَع أصواتهم عبر المذياع في أماكن نائية يعلمون أنَّ هناك شخصاً يحنّ إلى وطنه، سجيناً، وكسير القلب يُصغي إليه فيبعثون إليه برسالة دافئة."

أجاب أفشين "كامليا، لو كنتُ أعلم في ذلك اليوم أنكِ تصغين إليّ، لقلت ما يلي: في نهاية الليل يتحول الظلام من جديد إلى نور."

في جناح السجن، شعرتُ أنَّ العالم برمّته قد نسيني وأنَّ أصدقائي كلهم أداروا ظهورهم لي. الشخص الوحيد الذي أصغى إليّ، الذي بدا أنه يهتم بي – على الرغم من أنه لم يُظهِر لي إلا سوء المعاملة – كان مُستجوبي. أخبرته بكل ما أراد أن يعرف. زخرفتُ قصصي بتفاصيل لا تُصدَّق. بل حكيتُ له قصة تحدّيّ وتمرّدي.

أخبرته ما حدث في السوق، خلال الصيف الذي سبق انتخاب خاتمي، بينما كنتُ مع صديقتي في المدرسة غزل نتسوّق في ميدان تجريش عندما أمسكت امرأة تضع غطاء رأس كتفيّ من الخلف. "ستأتين معنا!". لم أكن متبرّجة و لم يكن شعري مكشوفاً وكان معطفي يصل حتى كاحليّ. لكنَّ المرأة أشارتْ إلى حذائي الصيفيّ وقالت إنني لا أرتدي جورباً.

قلت لها بسخرية إنها تمزح بلا شك. كان الناس الذين تمتلئ بهم الساحة قد بدأوا يتجمعون حولنا. شدّتْ المرأة معطفي وثوبي إلى ما فوق رُكبتيّ لكي تُثبت أني لا أرتدي جورباً – قالت إنه إذا هبّت ريحٌ قوية، فإنَّ ملابسي الداخلية ستنكشف. وهكذا شاهد أولئك المشاهدون كلهم جسمي مكشوفاً حتى ما فوق رُكبتيّ. وكان من

المستحيل أنْ تهبّ ريحٌ صيفية قوية وترفع ثوبي كما فعلت المرأة. فتدخّلت غزل وقالت "عُذراً، إنها لم تكن تعلم، لقد نسيتْ. سوف أذهب إلى السوق في الحال وأبتاع لها جورباً وأعود فوراً."

أوقفتني أخوات المرشدة بجوار دكان حدّاد، وقامت إحداهن بحراستي بينما انهمكت الاثنتان الأخريان في تفحُّص فتيات ونساء أخريات. واقتربت فتاة ضخمة مع أمها تسيران باتجاهنا؛ الفتاة المراهقة كانت تضع أحمر شِفاه برّاقاً، وشعرها المصبوغ يتدلّى ظاهراً من تحت خِمارها. كانت الشخص المثالي لتقبض المرشدة عليه. فتقدمت الأختان نحوهما مباشرة وأمسكتا بهما، وحاولتا أن تُجبراهما على ولوج حافلتهما الصغيرة. وانتهى الأمر بمشاجرة، فنظرتُ إلى المرأة الواقفة بجواري، وإذا بها مستغرقة في متابعة شجار زميلتيها. أخذ الدم يغلي في عروقي، فضممتُ قبضة يدي اليُمنى وسدّدت بكل عزمي ضربة قوية إلى وجهها. فقَدَتْ توازنها وارتطم وجهها بواجهة دكان الحدّاد. هل كنتُ أعي جاذبية ما فعلتُ؟ لا يهم. لقد كان الغضب المشحون في تلك القبضة يتجمَّع منذ عشرين عاماً.

استدارت نحوي بينما كنتُ أحاول أنْ أتصرف بطبيعيّة، وكأني لستُ التي ضربتها. لكنَّ زميلتها التي كانت تتصارع مع الأم والابنة تقدّمت مني وهي مشحونة كأنها نمر. وأخذتا تضربانني، فهبّت الأم وابنتها إلى نجدتي. وانضم الناس المتجمعون حولنا إلى المشهد، في محاولة لفصلنا، ثم، بصورة لا تُصدَّق، بدأ الرجال يتدفقون من الأزقة والسوق، وبدأوا يمزقون خِمار الأخت الأسود وغطاء رأسها إرباً. وهمس صاحب محل الحِدادة في أذني "أسرعي، ادخلي في السوق

واهربي من خلال الساحة الصغيرة التي في المنتصف. إذا قبض عليك، انتهى أمرك". وفي الدقيقة الأخيرة، وقفتُ أواجه المرأة التي كانت قد رفعتْ طرف ثوبي. ورفعتُ يدي وأنزلتها بكل ما أوتيتُ من قوة على وجهها. "إنَّ ما قلته لي، إنما ينطبق عليكِ أنتِ!"، ثم غصت داخل الحشد بين أعطاف وثنايا السوق. وجدتُ غزل بالقرب من مخرج شارع إمام الزمان. كانت تحمل بيدها زوجاً من جوارب النايلون الرخيصة. مشينا مُسرعتين جهة الجنوب، وفتحت باب أول سيارة أجرة قابلتها. سألت غزل خائفة "ماذا فعلتِ؟ إنَّ الحرس الثوري يُحاصر السوق كله."

استمتع مستجوبي كثيراً بهذه القصة. قال لي "**ما شاء الله!**". كانت وزارة الاستخبارات تعتبر أنَّ من واجبها أنْ تساعدني على "التخفيف" عن نفسي. وقد تخفّفتُ من العديد من الأسرار الصحيحة، وصرت أُصدق أكاذيبي واختراعاتي الأسطورية. وبأناقة مسرحية كبرى، رحتُ أضبط صوتِي، مُستعرضة أمام مستجوبي حساسيتي، وانفعالِي، وندمي لأني لم أتحكم في فسادي الأخلاقي، وكُفري، وعنادي المُشين، قبل ذلك.

كنتُ أصلي الصلوات الخمس في مواعيدها اليومية، لعِلمي أنَّ الحراس يُراقبونني. وما كنتُ أتلو بصوت خافت من تحت غطاء الرأس ما يلي: "يا رب، امنحني القوة والصبر على تحمّل هذه الأيام. يا رب، لا تدع هؤلاء الخِسّة، الجبناء يضربونني ويكسرونني."

وذات يوم، بينما كنتُ أتوضّأ، وقفت إحدى الحارسات، واسمها زهرة، بجواري وقالت، " يا إلهي، أهكذا تتوضئين دائماً؟

ليس هكذا ينبغي أنْ تُغسَل اليدان."

"في تفسير السيد الخوئي، يقول فقط "يدان". ولا يذكر أيّ شيء عن كيفية غسلهما."

وذهبت وأحضرت تفسيراً مختلفاً، تفسير الخميني، وبينما كنا نتناقش من جديد حول الطريقة الصحيحة للوضوء، سألتها بخبث أن تودِع لديّ الكتاب بضع ساعات. وفكرت في باقي الحرس الذين يراقبوننا من خلال الثقوب الخفيّة المحفورة في الأبواب وأنا أصلي. واستظهرتُ الطريقة الصحيحة في الصلاة وعدد مرات السجود الصحيح عند كل مرحلة. لم يكن في وسعي أنْ أتحمّل عواقب ارتكاب أي خطأ آخر.

متى تكون الشمس في كبد السماء؟ انتهى الصيف، وأنا لا أزال في زنزانتي الموحشة. أعطوني كتباً دينية من مكتبة السجن لكي أقرأ. أحد تلك الكتب كان عن حشو البهائيين بالشمع على يد أمير كبير. ويحكي الكتاب كيف كان يقتلهم ويحشو كل فتحة في الجسم بشموع مُضاءة ويدور بهم في أرجاء المدينة في استعراض فظيع. اضطربتْ معدتي وأغلقتُ الكتاب مع شعور بالاشمئزاز. كان شيئاً مُروّعاً.

أخبرني مُستجوبي أنه في يوم من الأيام في ظلِ حكم الشاه، كان هاشمي رفسنجاني وآية الله منتظري سجينين وعُذِّبا في مركز الحجز نفسه الذي نجلس فيه الآن. وتذكّرتُ كيف أنه، خلال الأسبوع الأول من سجني، كان هناك العديد من النساء الأخريات في الجناح، وكنا نؤخذ لنغتسل معاً. أخرجتنا الحارسات من الزنزانات دون أنْ ينطقن كلمة واحدة وأوقفننا صفاً واحداً معصوبات العيون. وكانت كل واحدة منا تتأبط صرّة تضم زيّ السجن الرسمي، وملابس

داخلية، وشامبو، وصابوناً. وأمرننا أنْ نلزم الصمت وتُمسِك كل واحدة منا بطرف غطاء رأس الأخرى. كنا حوالى خمس عشرة، وتقدّمنا كقطار. ورحنا نهبط ونهبط. ثم أرسلننا لكي نغتسل في صف واحد من مواقع الدش تفصل بينها ستائر من الفنيل الأخضر. وكان لكل واحدة دش خاص بها لكنَّ المياه القذرة المُشتركة كانت تجري على الرخام اللزج وعلى أقدامنا كلها. كان من المذهل التفكير في أنَّ مُنتظري وهاشمي قد اغتسلا أيضاً بذلك الدش تحت الأرض، والأشدّ إذهالاً أنه بعد الثورة سمحت الحكومة الإسلامية الجديدة باستخدام مركز الاحتجاز السري نفسه. وماذا عن المستقبل؟ هل سأعود ذات يوم كمواطنة حرة وأنظر إلى زنزانتي وأقرأ القصائد المكتوبة على الجدران؟

قصة حبي لمستجوبي كانت نصف جادّة في ذهني ونصف مُختلَقة تزجية للوقت. كنتُ أعلم، ولكن هو لم يكن يعلم، أنه أراد أن يقف إلى جانبي. كنتُ أعلم، وانسابَ الحب كنسيم الربيع المنعش إلى داخل سجن التوحيد. ولكي أبعثَ رسائل حبي وأغذّي هذه العلاقة، لم أكن أملك غير يديّ، وبتلك اليدين تحدثت معه.

ذات يوم جمعة، فتحت زهرة باب زنزانتي لتُخبرني أنَّ المُستجوب سيأتي إليّ. نظرتُ إليّ بإمعان وسألت "لماذا يأتي ليستجوبك في يوم جمعة؟ لا تقولي لي إنكِ جعلتِ هذا المؤمن يقع في حبائل حبك."

جلست واضعة ساقاً فوق ساق، ووجهي إلى الجدار، منتصبة القامة على الكرسي وثبّتُ الغطاء على رأسي.

"لا تظني أنه ليست لديّ زوجة وأطفال أو أني لم أطق صبراً

على الابتعاد عن تكوين جسم جلالتك القبيح. لقد أدركتُ أنكِ تشعرين بالوحدة، وأنتِ وحيدة في يوم الجمعة، لذلك أتيت لأراك. مُدّي يدك."

كنتُ خائفة. هل سيضربني على راحة كفي؟

"لا تخافي. مُدِّي يدك."

وضعَ شيئاً في يدي.

"ارفعي العُصابة قليلاً عن عينيك. مقداراً قليلاً جداً. إنها حبّة تمر. لقد جلبتُ لك حبّة تمر! قولي لي، ماذا تفعلين في غرفتك عندما لا يكون لديك عمل؟ الأخوات يقُلن إنكِ تجلسين دون حِراك على مدى ساعات كأنك تمثال أو هندية تمارس اليوغا."

"إنني أتأمّل."

"نعم. أنت ذكية جداً. لهذا لا تبكين ولا تصرخين. **ما شاء الله**. كم أنت ماهرة."

بعد مرور شهرين، كان ذلك أول طعام حلو أتذوقه، أول نوع من الطعام يأتيني من الخارج. كانت حصص الطعام دائماً صغيرة، لكني أبداً لم أطلب المزيد. لم أر الشمس أو لون السماء طوال شهرين، لكني لم أتذمّر بهذا الشأن أيضاً. ولم أضرب بعنف على الباب مستجدية دخول الحمّام كما فعلت الأخريات، بينما الحارسات يضحكن منهن. ولم أشكُ سوء حالة غرفتي. كان شعري الطويل الحبيب يتساقط، كأوراق الخريف، وصنعتُ منه كرة كبيرة جمعتها في زاوية غرفتي. كان ينبغي أنْ أحافظ على ثباتي في أداء دوري.

لطالما قيل لي إنَّ يديّ جميلتان. وجعلتْ سنواتٌ من تلقّي دروس

الرقص جسمي رشيقاً. وقبل أنْ أنهمك في العمل في صحيفة "زن"، كنتُ أعطي دروساً خاصة لتلميذات صغيرات. "نقف ببطء على رؤوس أصابعنا. ونباعد أيدينا، ثم نرفعها ونخفضها برفق ورشاقة مع إيقاع الموسيقى. ابتسِمنَ ودعْن أيديكن ترقص. المشاهدون ينظرون إلى أيدي الراقصات ووجوههن. طِرن في الهواء بأيديكن". وتلوِّح تلميذاتي الصغيرات بأيديهن إلى أعلى وأسفل اقتداءً بحركات يديّ.

إنني متيقنة الآن من أنَّ الرجل الجالس في الركن في سجن التوحيد يُراقب يديّ، لذلك تتدفّق براعتي كلها إليهما.

الفصل الحادي عشر

صحيفة "زن"

صيف عام 1998

كانت صحيفة جديدة، بعنوان "زَن"، توشك أنْ تبدأ بالصدور في طهران. وأعدّت صديقة لي لقاءً مع صاحبة الصحيفة ومُحررتها الشهيرة، فائزة هاشمي. ومرة أخرى وجدتني في انتظار أنْ أتحدث مع رئيسة تحرير جديدة، حاملة بيدي قُصاصاتي، وهذه المرة عند كشك الحارس أمام مبنى صحيفة "**زن**" الكائن في زقاق سيمين بالقرب من شارع ولي العصر. وفي الطابق الثاني، قرعت باب مكتب فائزة. جاءني صوتها الأجشّ من الداخل "**تفضّلي**."

جلسنا تقابل إحدانا الأخرى على طاولة المؤتمرات عندها. أخذتْ تتفحّص وجهي. "ألم أقابلك في مكان ما من قبل؟"

ابتسمت "كنا زميلتي دراسة في الجامعة". حالما قلت هذا، تذكّرتْني أيضاً، وسألتها عن فتاة أخرى من صفنا، صديقتها المُقرّبة

مريم. فقالت لي إنَّ مريم تعمل الآن معها في رابطة تضامن النساء، التي ترأسها فائزة. كانت فائزة تقسِّم وقتها بين صحيفة "زن" والبرلمان. كانت قد انتُخِبَتْ عضواً في البرلمان الخامس بأكثر من مليون صوت في طهران. كانت معظم النسوة اللائي كن زميلات دراسة يتبوّأن الآن مراكز مرموقة في مجالات شتى. وكان العمل في "زن" تنافسياً، وفي أثناء المقابلة امتحنتني فائزة بأسئلة مُفصّلة عن عملي وحياتي.

كان المزاج العام في البلد جديداً وتقدّمياً خلال الفترة الواعدة لحكومة خاتمي الإصلاحية. وكان العمل تحت إدارة فائزة الجريئة، والجسور، وضعاً مثالياً بالنسبة إليّ. والعدد الأول من "زن" تضمّن تقريراً حصرياً عن البوسنة والحرب في كوسوفو. ولُقِّبتُ ب"المراسلة الخاصة"، وهو وصف غير معروف إلى حد بعيد في الصحافة الإيرانية، وظهرت صورتي في الصحيفة فوق مقالتي.

وتشجّعت وسعيتُ لأصبح أول صحافية تظهر على مسرح الأحداث السياسية الكبرى. وفي شهر حزيران من عام 1998 كنتُ أشاهد الأخبار في سراييفو عندما ظهر فجأة عنوان عريض على الشاشة. لقد سقطت مزار شريف في أيدي طالبان، وتعرّضت السفارة الإيرانية لهجوم مفاجئ. وأُخِذَ طاقم إدارة السفارة وأحد الصحافيين من وكالة الأنباء الإيرانية رهائن في مكان مجهول. ولم يتطلّب الأمر أكثر اتصال هاتفي بفائزة، وكنتُ في طريقي إلى أفغانستان.

بعد ذلك بعشرة أيام غادرتُ إلى كراتشي، في باكستان، ومن هناك انتقلتُ إلى بيشاور. ولكن كنتُ في حاجة إلى تأشيرة. ووجدت نفسي، على مدى أيام، عاطلة عن العمل، أجلس على طرف الرصيف أمام

قنصلية طالبان في بيشاور. حينئذ كان الطالبان قد أصبحوا العدو رقم واحد لإيران، وبعد احتجاز أربعة عشر مواطناً إيرانياً، أصبحت إمكانية شنّ هجوم مباشر على أفغانستان شبحاً مشؤوماً يلوح في الأفق. وفي أثناء صلاة الجمعة في طهران، كان يدور همس حول التهديد الذي يُشكّله طالبان، وبدأت تُجرى مناورات عسكرية على طول الحدود. وفي أثناء انتظاري، ساعدني صحافي من وكالة طالبان للأنباء في إرسال تقاريري اليومية إلى صحيفة " زن ". وأخيراً، ظهر رجل من القنصلية وقال " مولوي أحمد سيقابلك الآن ". كان اثنان من البشتون بلحيتين طويلتين وعمامتين سوداوين كبيرتين ينتظران في الداخل، كانا ينظران إلى الأرض ما عدا مرة أو مرتين عندما رمياني بنظرة جانبية.

أعلنا "ليس معك مَحْرَم". كان مطلوباً أنْ يكون برفقتي أحد الأقرباء الذكور. "لا يمكنكِ أنْ تسافري وحدك في البلد الإسلامي أفغانستان. أصبحي محرَم مع أحد الإخوة، وسوف نزودك حتى بسيارة وسائق، وتتمكنين من الذهاب إلى كل مكان، وقتما تشائين". تلك كانت طريقتهم الخرقاء في تقديم عرض زواج إليّ. فابتسمتُ لهما، وأنا أخرج من الباب، "أقسم بالقرآن على أني سأجتاز الحدود. أنا ذاهبة إلى أفغانستان."

صمّمتُ على كشف النقاب عن حقيقة احتجاز الصحافي الإيراني والدبلوماسيين. وبعد ذلك بيومين، عثر أحد أصدقائي الإيرانيين في بيشاور على رجلين موثوقين من الأفغان ليصطحباني عبر درب ترابيّ إلى أفغانستان. وكان المُرافقَان على صِلة وثيقة بالقنصل الإيراني العام في بيشاور، وهما أيضاً كانا ذاهبين إلى هناك ليجمعا آخر المعلومات

للسفارة الإيرانية. ولكن بدل أن أنتظر ورودها إليّ في بيشاور، قررتُ أنْ أرافقهما لكي أكتب تقاريري مباشرة. اشتريت برقعاً وحذاءً رخيصاً مُستعملاً وملابس من السوق، وانطلقنا نبغي جلال آباد. جعلتُ نفسي زوجة لأحد المرافقَين، واجتزنا الحدود على متن حافلة باكستانية عليها رسوم دقيقة، مملوءة بالأفغان في طريقهم إلى وطنهم. كلهم كانوا بلحى طويلة، وبعضهم اعتمروا عمائم ضخمة.

أمضينا نصف نهار في جلال آباد، وفي المساء عُدنا مباشرة إلى بيشاور. لقد زاد وجودي المُخاطرة على الأفغانيَين اللذين كان من الممكن أنْ ينكشف أمر طبيعة مهمتهما، لذلك اضطررنا إلى العودة بسرعة إلى باكستان. وفي جلال آباد أودع بعض العملاء لدى مرافقيَّ شريط فيديو يُبيِّن جريمة قتل رهائن في مزار شريف. وفي بيشاور أُتيحت لي أول فرصة للاتصال بفائزة وإبلاغها النبأ.

سألتني فائزة "أأنتِ متأكّدة؟ سوف يظهر في الصفحة الأولى!"

كنت متيقنة. وكان لتقريري فعل القنبلة وسط الجو العام المُضطرب في إيران. وتجمّعَ عدد كبير من أقارب الأسرى في الشارع خارج الصحيفة، ينتظرون بيأس ورود المزيد من المعلومات. وفي مساء ذلك اليوم أصدرتْ وزارة الخارجية الإيرانية تصريحاً تُنكِرُ فيه تقرير صحيفة "زن"، مُعلنة أنها على اتّصال بطالبان وتضمن سلامة الأسرى.

في بيشاور، وصلتُ بأمان وسلام إلى منزل صديقتي، وأنا مُلطّخة بالوحل والتراب ومنقوعة بالعرَق. وفي اليوم التالي تحدثت مع فائزة.

"كامليا، إذا فشلت فأنت متورّطة. سوف أسلخ جلدك. إنّ الهواتف ترنّ طوال النهار وتردنا اتصالات من وزارة الاستخبارات

ووزارة الخارجية. يريدون منك أنْ تعودي إلى هنا بسرعة."

"أنا أعرف ما أقول. لقد شاهدت الشريط الذي يُصور جثثهم."

في إسلام آباد، عندما رآني السكرتير الثاني الإيراني للشؤون الخارجية، السيد أميني، الذي جاء إلى باكستان في محاولة لإيجاد حل بين طهران وإسلام آباد في مواجهة هذه الأزمة، انفجر في وجهي. "أيتها البائسة! ما الذي جعلكِ تعتقدين أنَّ في استطاعتك أنْ تعبثي بأمننا الوطني؟ ألا تدركين ما الذي سيحدث إذا أُسرتِ أو قُتلتِ في أفغانستان؟ إنَّ الناس قلقون بما فيه الكفاية بشأن احتجاز الدبلوماسيين. واغتيال فتاة إيرانية - بالنسبة إليهم هو بمثابة إعلان حرب. إنني حقاً مندهش من خانم هاشمي. هل أردتِ أنْ تكوني السبب في إشعال حرب؟" وأحضر إليّ صحافي باكستاني الرسالة نفسها من الجانب الآخر، من الجانب المُحافِظ من حكومتهم الذي يدعم طالبان: إذا أردتُ أنْ أحافظ على حياتي، يستحسن أنْ أغادر باكستان في الحال.

في طهران، دخلتُ مكاتب صحيفة "زن" دخول الأبطال مرتدية البرقع الأزرق. فبعد بضعة أسابيع من نشر مقالتي، أعلنت وزارة الخارجية رسمياً نبأ حدوث عمليات الاغتيال. وكان الشعب الإيراني مُهيّأً، نفسياً وعاطفياً، لتحمُّل النبأ بسبب تقاريري إلى صحيفة "زن".

كان للنسوة العاملات في صحيفة "زن" كامل الحرية في اختيار ما يرتدين. لقد كانت فائزة مؤمنة بأنَّ الحجاب هو مسألة اختيار شخصي. وبوصفها عضواً في البرلمان، تكلمت بحرية عن مثل هذه القضايا كالسماح للنساء بركوب الدراجة علناً. شعرت بالفخر بالعمل معها، وكنتُ أتوجه إلى المكتب في الصباح وأنا أدندن لحناً بيني وبين نفسي.

وبدأتْ صحفٌ جديدة تحذو حذونا، واحدة بعد أخرى، وزادت من مجموعة الأصوات المنادية بالإصلاح. وأخذ التوتر الناشئ بين الصحافة الحرة ووزارة الاستخبارات يزداد أكثر فأكثر. وأردتُ أنْ أواجه المشكلة مباشرة، أنْ أكتب عن التوتّر المتزايد بدل التزام الصمت بهذا الشأن. أردتُ أنْ أكتب عن القضايا المُلحّة كلها التي كانت مُحرّمة عليّ منذ يومي الأول في الاشتغال في الصحافة. ولم ترفض فائزة ذلك أبداً.

"يجب أنْ تُصبحي رئيسة جمهورية، يا فائزة. سوف يُصوّت لك عشرون مليوناً. وسأتولى أنا أمر حملتك الانتخابية."

ضحكت وقالت "أنتِ مجنونة، يُستحسن أنْ أطلب من حميد أنْ يتأكّد من سلامة عقلك". وكان حميد لاهوتي، زوج فائزة، طبيباً نفسياً ويختلف عن زوجته الصاخبة، الوقحة، كاختلاف الليل عن النهار. كان لديهما طفلان: منى، نسخة طبق الأصل عن أمها، وحسن، نسخة طبق الأصل عن والده. ونمت صداقتنا الشخصية وتعمّقت. وفي أيام الجمعة، كنتُ أذهب مع فائزة وولديها إلى كرَج أو نتجه شمالاً أكثر. كنتُ أقضي بعض الليالي عندهم، وأحياناً تزورنا فائزة وتتناول الغداء وتتجاذب أطراف الحديث مع أمي. أبقينا هذه الصداقة شخصية جداً وتختلف كل الاختلاف عن علاقتنا المهنية في "زن". وعندما يسألني الناس عن الإشاعات الجنسية الشائنة التي تطارد فائزة، أعقد بين حاجبيّ ببساطة وأُجيب "لستُ مهتمة بسماع مثل هذه الثرثرة". واضطررتُ إلى أنْ أجيب عن أسئلتهم الحمقاء مليون مرة. "أقسم بالله. أقسم بالقرآن على أنَّ فائزة تعيش مع زوجها. نعم، إنه الزوج الوحيد الذي عرفت، وكلا، لم تُطلَّق مرّتين أو ثلاث

مرات". لكنهنّ ينظرن إليّ شزراً ويقلن "حسن، معك حق في الدفاع عنها. إنها صديقتك، وتعتني بك". تزوجت فائزة وحميد عندما كانت في الثامنة عشرة، ولم يكن لها أيّ زوج سابق، ولكن لسبب من الأسباب كانت هذه الشائعة الخاصة حول الطلاق قاسية، بل نفذت من خلال جدران سجن التوحيد السميكة، حيث كانت أحد الأشياء الأولى التي سألت عنها الحارسات. فلأنها كانت امرأة ناجحة وابنة هاشمي رفسنجاني، أراد الناس أنْ يشوّهوا سُمعتها. وكان هناك في مكتبنا رجل كانت مُقرّبة منه، وحسب الطريقة الإيرانية النموذجية، لاحقت الإشاعات صداقتهما. ولم تكبّد نفسها عناء الدفاع عن نفسها ضد تلك الاتّهامات. لقد ترفّعت عن مثل ذلك النوع من الكلام، واقتديتُ بها.

عندما وصلت إلى فائزة الدعوة من صحيفة "**بوسطن غلوب**" للسفر إلى أميركا، اختارتني لأحلّ محلها. كان ذلك أول برنامج تبادُل للصحافيين بين إيران وأميركا منذ قيام الثورة الإسلامية. كان انتصار خاتمي بعشرين مليون صوت وما تلى ذلك من تخفيف القيود على حرية الصحافة قد أصاب العالم بالدهشة. في عام 1998، كانت الصحافة في إيران بحدّ ذاتها موضوعاً ساخناً في نشرات الأخبار في وسائل الإعلام العالمية. وفي كل أسبوع، كانت إذاعة البي بي سي الناطقة بالفارسية أو صوت أميركا أو راديو فرانس تُجري معي حديثاً. وإحدى محطات التلفزيون الألمانية أنجزت فيلماً قصيراً عنّي، وأجرت معي الصحيفة اليابانية أساهي حديثاً. قلت لأمي "كم أنا محظوظة. اليوم أصبح لديّ كل ما تقتُ إلى تحقيقه دائماً؟"

اختيرَت منا خمس للاشتراك في برنامج التبادل الأميركي: رئيس تحرير صحيفة "**همشهري**"، محمد عطريانفار؛ ورئيسة تحرير المجلة الشهرية "زنان" (النساء)، شهلا شركت؛ ومُحررة الطبعة الأجنبية لصحيفة "**إيران نيوز**"، موجغان جلالي؛ وعضو هيئة تحرير صحيفة "**سلام**"، كريم أرغند بور؛ وأنا. وكنتُ قد عملت مع السيد عطريانفار في صحيفة "**همشهري**" وكرهته. كان شخصاً قمعياً، دائماً يحمل بيده مسبحة. وقد أذاقني المُر إلى درجة أني قدّمتُ استقالتي من الصحيفة جزئياً لكي أتخلّص منه. ولكن في أميركا، حيث استطعتُ أخيراً أنْ أقول له رأيي فيه بصراحة، قال "سامحيني - تلك الأيام أصبحتْ من الماضي، ونحن الآن في الحاضر، وأنت أصبحت مشهورة."

أصبحنا صديقَين في أثناء الرحلة، وبدأتُ أثقُ به. كان برنامجنا في نيويورك يتألّف من إلقاء محاضرة في جامعة كولومبيا قسم الشؤون الدولية وفي الجمعية الآسيوية. في كولومبيا عندما تطوّعت بضع فتيات إيرانيات، طالبات في قسم الصحافة، لمرافقتنا في جولة في أرجاء حرم الجامعة، نظرتُ بحزن إلى الأبنية وقلت لعطريانفار، "أتعلم، إنَّ أشدّ ما أرغب فيه هو أنْ أتابع دراستي هنا. أتعتقد أني أُغالي في رغبتي؟ ولكن مع كل ما يجري في طهران، كيف يسعني أنْ أغادر الآن؟"

كان أمامنا عمل صحافي جادّ يجب إنجازه لكي نسترد حرياتنا المدنية وندفع عجلات الإصلاح إلى الأمام. لم أتمكن من مغادرة إيران في الوقت الذي بدأت فيها حرياتنا تتّسع. ومع ذلك بقيتُ أحلم وأضعُ خُططاً مُتفائلة، دون أنْ أعلم حينئذٍ أنني سأصبح منفيّة قبل أنْ أتمكّن من أنْ أصبح طالبة عِلم.

بعد أنْ حاضرنا أمام الجمعية الآسيوية، بدأ مُضيفونا الأميركيون يأخذوننا في جولة في المكان، وأخبرتنا إحدى المرافقات بحماسة، اسمها سينثيا ديكستاين، أننا مدعوّون إلى منزل جورج سوروس في مساء ذلك اليوم لنتناول الشاي. لم نُبد فرحاً غامراً للنبأ. فضاق صدرها وقالت إنه أهمّ رجل في أميركا وهو الذي دفع تكاليف رحلتنا. ومع ذلك لم نُدرِك حقيقة شخصه. ورحتُ أعصر ذهني و لم أتذكّر إلا بصورة باهتة مقالة كنتُ قد قرأتها في مكان ما. وبينما كنا نستدعي سيارة أُجرة للتوجّه إلى منزل جورج سوروس الكائن في الجادّة الخامسة، همستُ في أُذن عطريانفار، "الآن تذكرتُ مَنْ يكون! إنه يهوديّ وهو أغنى رجل في أميركا، ويمتلك إمبراطورية في آسيا الوسطى". أومأ برأسه بشرود، ولكنْ بدا أنّ وصفي الجامح للرجل لم يؤثّر فيه.

في منزل سوروس الفخم، جلب لنا خادم الشاي بفناجين رائعة من الصيني. جلستُ مع النساء الأخريات ونظرتُ إلى خانم شهلا شركت وابتسمت. نظرت موجغان إلينا، أيضاً، وضحكت ضحكاً مكبوتاً. ثم لسببٍ ما زال مجهولاً لديّ حتى هذا اليوم، بدأنا نحن الثلاثة نضحك بطريقة في غاية الحماقة والسُخف. وطوال فترة مكوثنا في شقة سوروس، لم نتمكن من الكفّ عن الضحك. فذهبت إلى الحمّام وأخذتُ نَفَساً عميقاً ثم رجعت إلى مقعدي. ولكن لا فائدة. لقد كنا نضحك بشدة حتى عجزنا عن وضع فناجين الشاي على أفواهنا، وكانت الدموع تنهمر من عيوننا. فرمانا عطريانفار بنظرة استنكار، وطلب منا بالفارسية أنْ ننتبه إلى سلوكنا. حتى سوروس قاطع خطابه ليقول "لا بد أنَّ السيدات لاحظن شيئاً مُثيراً جداً للاهتمام... يا ليتكن

تُشركننا معكن لكي نضحك نحن أيضاً". ولكنَّ الضحك ظل يغلبنا، ويمنعنا من إعطاء جواب. وعندما حان وقت الرحيل كان سوروس يوقِّع على نسخة من كتابه لكل منا، فقدّمنا اعتذارنا في اضطراب وتوتّر.

بعد ذلك ببضعة أيام، كان السيد عطريانفار قد جمع ما يكفي من المعلومات عن جورج سوروس لإخافتنا. وحذّرنا قائلاً، بلكنته الأصفهانيّة التي كان دائماً يُحاول أنْ يُخفيها، "إنَّ سوروس هو أحد أبرز الصهاينة في العالم، ولعلّ هناك ما يشبه المؤامرة خلف هذا الاجتماع". وأبدى قلقه من أنَّ ذهابنا إلى منزله من دون أن نعلم هويته يُعرّضنا للخطر عندما تسمع السلطة في طهران بالنبأ. وناشدنا أنْ نتخلّص من كتاب سوروس لكي لا يُقبَض علينا عندما تُفتَّش أمتعتنا في مطار مهر آباد. عضّت موجغان وشهلا شركت على شفتيهما بتوتّر لدى سماع توقعات عطريانفار، أما أنا فاكتفيت بلعنة ضحكنا السخيف والأحمق، وتساءلتُ لماذا لم أظهر بمظهر مُحترَم أكثر. مَنْ كان يدري أنني بعد ذلك بعامَين فقط سينتهي بي الأمر إلى أنْ أُصبح مراسلة مستقلة لموقع سوروس الإلكتروني للأخبار، يوريسيا نت.

قبل أنْ أطير عائدة إلى إيران، توقفتُ في لندن. حيث سيكون أول عمل غير مكتمل لي هو أنْ أُجري حديثاً صحافياً مع سلمان رشدي. تمددتُ على سرير صديقتي سوزان في لندن، وأنا أتساءل كيف يمكنني أنْ أعثر عليه. وفي ما أعتقد أنه ومضة من الذكاء اللامع، خطر لي أنَّه يجب أنْ أتصل بمكتب الصحافة في السفارة الإيرانية. وعندما فعلت، رفضوا أنْ يُزوّدوني بأي معلومات عبر الهاتف وقالوا إني يجب أنْ أحضر شخصياً، فشددتُ الوشاح على رأسي وذهبتُ بهدوء إلى السفارة. لكنَّ

الموظف المسؤول عن المركز الثقافي أبدى ارتيابه على الفور، وأراد أن يعرف ما شأني بسلمان رشدي. فشرحتُ له أنَّ وزيريْ خارجيتيْ إيران وإنكلترا قد تصافحا في الأمم المتحدة ورُفِعَتْ "الفتوى" ضده، لذلك بات من الطبيعي أنْ أهتم، كصحافية إيرانية، بإجراء حديث صحافيّ مع رجل ظل يعيش في الخفاء على مدى سنين، خوفاً على حياته. وأكّدتُ له أنَّ خانم هاشمي أعطتني الإذن بذلك.

عند الساعة الثانية صباحاً رنّ جرس الهاتف، فاستيقظتُ على صوت فائزة الحادّ على الجانب الآخر. "كامليا، إنَّ أيّ خطوات اتّخذتِها لمقابلة سلمان رشدي حتى الآن، احتفظي بها لنفسك. أما في الغد، فسوف تُنكرينها. لقد تلقّيتُ تواً مكالمة من أعلى جهة في وزارة الاستخبارات حول هذا الأمر. أينما كنتِ، ومهما كان العمل الذي تقومين به، اتركيه. أفهمتِ؟"

على الرغم من اتصالات منتصف الليل تلك، المتعلّقة بما نشأت عليه، كانت الصحافة الإيرانية في أحسن حالاتها، تزدهر بحرية وحيوية غير مسبوقتين. كان وقتاً بدا فيه أنَّ في استطاعتنا أن نتعرَّض للمُحرّمات القديمة كلها، وأنَّ الخط الأحمر قد رُفِع. لقد شعرتُ بأني أكشف عن كل ما خطر في بالي، بأنَّ في وسعي أن أقتحم ظلام الثورة وأضع كل المواضيع المُحرّمة التي وقع بصري عليها تحت ضوء عدسّة مُكبِّرة. وكانت فائزة تدعم مقترحاتي كلها. واستجمعتُ الكثير من الشجاعة حتى بات في استطاعتي أنْ أتصل حتى برئيس مكتب فرح بهلوي في نيويورك أطلب إجراء لقاء صحافي مع الملكة في المستقبل. ومن مكاني في لندن، ذكَّرتُ فائزة بأننا كنا قد اتّفقنا على أنْ أستقل قطاراً متوجهاً

إلى باريس لأحاول مقابلة أبو الحسن بني صدر، أول رئيس لجمهورية إيران الإسلامية، الذي هرب من طهران إلى باريس في عام 1981.

***

كانت تُثلجُ في باريس وأنا واقفة مع صديقتي الفرنسية سونيا على باب منزلٍ كبير، في انتظار أنْ ينتهي رجل الشرطة من تفحُّصِ أوراقي الثبوتيّة. أُدخِلنا إلى غرفة انتظار باردة لم يكن الموقد فيها قد أُشعِل إلا قبل دقائق قلَيلة. قدّمَ فتى صغير اعتذاره وقال إنَّ "رئيس الجمهورية" ليس لديه من الوقود ما يكفي لتدفئة المبنى بأكمله وإنه نادراً ما يستخدم هذه الغرفة. جلبَ لنا شاياً وحلوى من أصفهان (نوغه) على صينية من الفضة.

عندما ولج بني صدر الغرفة أثار داخلي على الفور حساً بالحنين إلى زمن الثورة، إلى الأيام التي كان والدي يقرأ لنا خلالها عنه مما ورد في الصحيفة ويتباهى عمي بمجيئه إليه لكي يُصلح أسنانه. والآن، لم يعُد هناك أي خط أحمر خفيّ يحجر على قسمات وجهي، وكان الموقف مُسكِراً بصورة غريبة. تلك كانت الحرية الحقيقية – أنْ أتمكن من استخدام سلطة الصحافة لحمل رسالة آمالنا بعد انتخاب خاتمي إلى العالم.

تعرَّفَ بني صدر إلى كنيتي وسأل عن عمي، مُعبّراً عن اشتياقه إلى معالجة عمي الطبية الممتازة. وكان يعرف أيضاً أبي، فأخبرته بأنه قد توفي قبل ذلك ببضع سنوات. وواصلنا حديثنا المهذب، وسألني عن صحيفة " زن ". فشرحتُ له أني جئتُ إلى هنا لكي أُجري معه لقاءً

صحافياً، وأمام دهشة طاقمه الإداري التامة، الذي كنتُ قد أعددتُ معه أمر اللقاء الصحافي، وضع حقيبتين مملوءتين بالكتب عند قدميّ وقال، "هذه الكتب والمقالات التي سبق أن نشرتها. من فضلك اقرئيها كلها أولاً وتعرَّفي إلى أفكاري وكتاباتي ثم عودي إليّ من أجل إجراء اللقاء الصحافي في وقت آخر". ودّعناه، وجررتُ الحقيبتين الثقيلتين عائدة إلى منزل سونيا في سيارة أجرة. ولدى مغادرتي باريس إلى لندن، هتفت سونيا، "لقد نسيتِ كتبك!"، فضحكت. "وهل جُننتُ حتى أحمل معي مئتي رطل من الكتب. أعطيها للمكتبة العامة!". وطلبتُ منها أيضاً أنْ تحتفظ لي بكتاب سوروس وباستمارات التقدّم للدراسة في جامعة كولومبيا ولقسم الصحافة في جامعة هارفارد، لكي لا يكتشفوا الأمر عندما أدخل طهران.

بعد ذلك ببضعة أسابيع بينما كنتُ أستمع إلى إذاعة تبثّ بالفارسية، ذُهلتُ عندما قال بني صدر في سياق مقابلة صحافية إنَّ رئيس الجمهورية السابق هاشمي رفسنجاني قد أرسل إليه امرأةً متخفّية بهيئة صحافية إلى باريس حاملةً رسالةً خاصة إليه. يعلم الله ماذا كان يعني – أيعني أني ذهبتُ إلى هناك لأدعوه للانضمام إلى الحكومة؟

في مطار مهر آباد، عندما قدّمتُ جواز سفري، رفضَ الشرطي أن يُعيده إليّ. وأحضر رجلاً بلباس مدني ليأخذني إلى غرفة مكتوب عليها، بتعبير غامض، القسم الرئاسي. كتبَ الرجل رقم هاتف على قُصاصة من الورق وقال لي إنَّ عليّ أن أتصل في صباح اليوم التالي بمكتب الجوازات الرئاسي. أظنّ أنهم لم يتمكنوا من القول إنه " مكتب وزارة الاستخبارات للجوازات السرية " وإلا تسبّبوا بموجة فزع في المطار.

وانتابني الغضب والخوف. "ولكن لماذا أخذت جواز سفري؟"

"سوف نبلغك."

في تلك الليلة خرجتُ مع أمي لنزور فائزة في منزلها، ووعدتْ بأن تقوم بمعالجة الأمر بنفسها في الغد. وفي اليوم التالي توجهتُ إلى عملي كالمعتاد، وعند الظهيرة اتصلت فائزة بي من مكتبها. "إنَّ وزارة الاستخبارات هي التي حجزت جواز سفرك. وقد تحدثت مع السيد مقدّم، وهو صديق لي وممثلهم في البرلمان وقلت له إنه يمكنهم أنْ يوجّهوا أية أسئلة بشأن تقاريرك إليّ مباشرة. قلت لهم إني مسؤولة مباشرة عن عملك. لكنه قال إنهم لن يسلموك جواز السفر إلا في السجن. ثمة رجل سيكون في انتظارك أمام المبنى الرئاسي، المبنى الحجري في شارع الأردن. احترسي - إن قبضوا عليك، فلن يستطيع أحد أنْ يُنقذك منهم."

عند الظهيرة وأمام المبنى الحجري، قابلتُ الرجل، وبدا شخصاً عادياً. ولم ليخطر في بالي أنَّ هذا الرجل كان من رجال الاستخبارات. كان له شارب ويرتدي قميصاً عادياً. تظاهر بالهدوء، وهو يسألني بخبث، "أحقاً أنتِ خائفة مما في الداخل؟"

أجبت "إنني ذكية بالقدر الكافي بحيث أعرف أني لا أرغب في رؤيته."

قال "أريد أنْ أخبرك أنه جدير بك أنْ تشكري خانم هاشمي. أنتِ محظوظة لأنها تهتم بك". تسلّمتُ جواز سفري وابتعدت.

***

خريف عام 1998

فجأةً، بدأ الخوف يُخيِّم على الكتّاب الذين يُسهمون في الصحف الإصلاحية والمثقفين المُعارضين للحكومة، كما لم يحدث لهم من قبل. كان يبدو في كل يوم أنَّ الأخبار التي تهزّ الأرض عن مقتل أو اعتقال كاتب سوف تصل إلينا أو يُكشَف النقاب عن المصير المأساوي لزميل لنا كان قد اختفى منذ سنوات. من سعيدي سرجاني، الكاتب الذي ادّعوا أنه مات من هبوط في القلب في السجن، إلى بيروز دافاني، الذي اتّصل بأمه فجأةً وقال إنه ذاهب إلى مدينة مشهد، ثم اختفى كقطرة ماء في المحيط. ولم تظهر جثّته أبداً. وداريوش وبروانه فوروهار طُعِنا حتى الموت في منزلهما. كان داريوش ينتظر دوره ليُصبح وزير العمل في حكومة الدكتور بازركان المؤقتة بعد قيام الثورة مباشرة. وكان الخميني قد كلَّفَ بازركان بتشكيل أول حكومة إسلامية في إيران، لكنَّ بازركان استقال بعد قضية رهائن السفارة الأميركية. وخلال السنوات التي تلت اكتسبَ داريوش فوروهار سمعة كمُعارض للجمهورية الإسلامية وأصبح زعيم حزب " شعب إيران ". وكشفت عملية اغتيال الثنائي فوروهار المأساوية عن المخاطر التي تكمن للناشطين السياسيين والاجتماعيين. وأُلقيَ القبض على محمد مختاري، وذُكرَ في وسائل الإعلام أنَّ جثّته رُمِيَتْ في صحراء كرَج. كان قد نُحِر، وبالتدريج صرنا نسمع إشاعات مفادها أنَّ قسماً من الحكومة له يد في اغتياله. وهناك العديد من

الكتّاب تلقّوا تهديدات عبر الهاتف. وتساءلنا مَنْ المسؤول عن هذه السلسلة من الاغتيالات.

جلسنا أنا والشاعرة المشهورة خانم سيمين بهبهاني في ضريح الطاهر في كرَج. وكنا قد أتينا، مع باقي الكتّاب والصحافيين في طهران وآلاف آخرين، لنواكب جثمان الكاتب الذي يحظى باحترام عالٍ، محمد جعفر بويانده، إلى ضريح إمام زاده.

عندما أدخلوا جثمانه، رحت أحمي جسمي وشققتُ طريقي قُدُماً بين الجماهير المحتشدة، التي كان يُحيط بها عملاء من وزارة الاستخبارات يرتدون ملابس عادية. أردتُ أنْ أرى وجهه عندما كشفوا عنه حالما أصبح في القبر. كان كفنه الأبيض قد أصبح أحمر اللون وكان الدم السائل لا يزال ينزف من نحره المقطوع. وكنا جميعاً قد سمعنا أنه ومختاري قُتِلا بالطريقة نفسها. كلاهما اختطِفا من قلب شوارع طهران المزدحمة بالناس وأُسكِتا بسلك معدني.

لم أتحمّل رؤية المزيد، فعدتُ أدراجي وجلستُ بجوار خانم بهبهاني على حافة قبر مفتوح في القسم الجديد الموسَّع من المقبرة. كنا نتحدث عن صدمتنا وخشيتنا من ضلوع وزارة الاستخبارات في الجريمة وسط هذه الموجة من عمليات الاغتيال وإذا بها بصورة غير متوقّعة تسقط نحو الخلف إلى القبر. كبحتُ رغبتي في الضحك عندما ساعدني شاب على إخراجها. كانت ترتعد ومذهولة، ولكنْ لحسن الحظ لم يُصبها أيّ أذى، بل تلوثت ملابسها بالطين. وراحت تكرر القول "هذه السقطة دلالة على أنَّ دوري هو التالي. أنا أيضاً مُعرَّضة للخطر، واليوم ظهرت لي العلامة."

وسط عمليات الاغتيال تلك، تابعت ركوب المخاطر. كنتُ متيقّنة من أني بإصراري على حرية الصحافة إنما كنتُ أيضاً أساعد على ضمان حرية الإيرانيين العاديين. إحدى المقابلات الصحافية التي اتّسمت بخطورة شديدة تضمَّنت زيارات عِدة لمنزل السكرتير العام السابق للحزب الشيوعي، نور الدين كيانوري، وزوجته، مريم فيروز، في شارع كريم خان زاند. وكان قد أُطلِق سراح كيانوري وزوجته بعد سنين طويلة من السجن في إيفين، لكنَّ كيانوري كان لا يزال خاضعاً للإقامة الجبرية في منزله. رحّبَ هذان الزوجان العجوزان بي في منزلهما، وكنتُ ألازمهما على مدى ساعات ونتبادل الأحاديث، وأُسجل قصصهما وذكرياتهما كلها. كان كيانوري في حوالى الخامسة والثمانين من العمر، وعلى الرغم من أنه كان يستخدم عكازاً يُعينه على التنقّل في أرجاء الشقة ولم يكن دائماً يسمعني بوضوح، كانت ذاكرته وذكاؤه لا يزالان حادّين. كان يستمع إلى بثّ الإذاعات الأجنبية كلها ويقرأ الصحف يومياً، ويُحلل بدقّة آخر الأخبار الاجتماعية والسياسية. وسألته "ألا تخشيان أنْ يُلاحقكما أولئك القَتلة؟"

كان جوابه واضحاً وذكياً "إنهم يُراقبوننا من البناء الكائن على الجهة المقابلة من الشارع، حتى إذا جاء أي شخص غريب إلى باب بيتنا، تكون وزارة الاستخبارات على عِلم بذلك. وهذا يعني أنهم **هم** الذين يسعون إلى قتلنا، ومَنْ يستطيع أنْ يُفلِتْ من رغباتهم؟". كان يشعر أنَّ الحكومة تتغاضى، أو ضالعة على الأرجح، في الموجة الأخيرة من عمليات اغتيال الكتّاب والمثقفين. وعندما أخبرني عن الحراس الرابضين على الجهة المقابلة من الشارع، شعرتُ من جديد بمدى الخطر الذي يُحدِقُ

بي، بما أنّ منزلهما مُزوَّد في الغالب بأجهزة تنصُّت سرّية. لكنني كنت آمل فقط أن أُنجِز تحقيقاً يستحق العناء من طرفيْ المقابلة. كنتُ أذهب إليهما ليلاً وأصطحب معي صديقي المُصوِّر، وحيد، وعندما نغادر تحت جُنح الظلام كنا نُخفي الأشرطة والفيلم المُصوَّر داخل ملابسنا. فإذا رأيتُ أي شخص قادم أو إذا أضاءت سيارة مصابيحها، أهتف "وحيد، اركضْ!". كنا مُستعدين للنجاة بحياتنا بالمعنى الحرفي للعبارة.

اجتمعت هيئات تحرير الصحف المُستقلة والإصلاحية كلها على تحرُّك واحد متناغم، ومتلاحم، قائم على أساس فضح مُرتكبي تلك الجرائم. في دار صحيفة "زن"، بدأتُ عمودي بعناوين رئيسي مثل "مَنْ يدري دورُ مَنْ غداً؟"، وأوردتُ تحته تحقيقاتي الخاصة عن سلسلة الاغتيالات. وعندما اعترفَت وزارة الاستخبارات، أخيراً، تحت ضغط لجنة التحقيق التي كلّفها السيد خاتمي، بوجود أيادٍ قذرة بين صفوفها، لم تشعر الصحافة بالارتياح أبداً. عندئذٍ أصبح هدفنا هو استقالة وزير الاستخبارات.

سرَّبَ أحد المصادر لصحيفة "زن" لائحة بأسماء أشخاص مُعرَّضين لمواجهة عقاب الموت، أسماء جُمِعَتْ من استجواب سجناء. واللائحة التي أُرسِلتْ إلى الصحيفة بالفاكس كانت موجّهة إليّ. أطلقتْ صحيفتنا النبأ، مُعلنة، "وزارة الاستخبارات تضع "لائحة سوداء" بأسماء 179 مُثقّفاً، وكاتباً، وناشطاً سياسياً لكي يُعاقبوا بالموت". بعض أصحاب الأسماء الواردة في اللائحة كان قد اختفى، والبعض الآخر قُتل. وبين الأسماء الشهيرة في اللائحة، مثل نشابه أميري، وإبراهيم نبوي، ومهرانغيز كار، ظهر اسمي، رقم 164. وارتعشت.

هزَّ المقال إيران. كان مقالاً ينطوي على شجاعة ومُهيِّجاً. وكدتُ أُجن من استمرار رنين الهاتف. آلاف الناس اتصلوا ليتأكّدوا من أنَّ أسماءهم ليست واردة في اللائحة. وأصرّ آخرون على أنَّ أسماءهم لا بد حُذفَت خطأً. وجاء إلى مكتبي رجل مُحترم جداً، وراح يتوسّل إليّ، وهو يُقسِم على أنه استُهدِفَ مرات عديدة، "أرجوك ضعي اسمي في اللائحة وإن شاء الله سأجازيك على كرمك".

فقلت بغضب "ارحل من فضلك يا سيدي. نحن مُراسلون نؤدّي واجبنا - هذه ليست مطبعة خاصة". ثم كانت ترِد تلك المكالمات المُخيفة من وزارة الاستخبارات تسألني كيف حصلت على اللائحة.

أذكر أمسية بعينها عندما غادرت متوجهة إلى المنزل، مُرهقة من فرط الحماسة. وقبل أنْ ألج سيارة الخدمة التي تُخصّصها الصحيفة، كنتُ قد اتصلتُ بأمي، "ماما، سأكون في المنزل بعد خمس عشرة دقيقة". وبينما نحن في الطريق، تخيّلتها تنتظرني في المطبخ، تطل من نافذة الطابق الثاني المُضاءة. وكل ما كان عليّ أنْ أفعل هو أنْ أمشي من مكان السيارة إلى الباب الأمامي، وأطلب من السائق أنْ ينتظر ليتيقَّن من ولوجي المنزل. لكنَّ يديّ كانتا لا تزالان ترتعشان وأنا أُخرِجُ المفاتيح من حقيبتي. تخيّلتُ ظلال الأشجار الحادة كأنها تُهددني وتوشك أنْ تثب عليّ، وأخذتُ أتلفّت حولي بحثاً عن ومض بارد لشفرة خنجر، وهي رؤيا ظللتُ أتخيّلها تبرز من قلب الظلمة. وعلى الرغم من محاولاتي لطردها، كنتُ أرتعش بعنف حتى عجزت عن العثور على ثقب المفتاح. وأخيراً أصبحت في الداخل، أشعر بالضعف والخَدَر، وارتميت على الكرسي والقلق ينتاب أمي وهي تردد معبِّرة عن اعتقادها

بأنّ رجال وزارة الاستخبارات سيظهرون بين يوم وآخر.

كانت صحف "الثاني من خرداد" (إشارة إلى موعد انتخاب خاتمي) تُغلَق واحدة إثر أخرى لأتفه الذرائع، ويُجَرُّ المُشاركون في تحريرها إلى المحكمة. وقد مُنِعَتْ صحيفة "زن" عن الصدور مدة أسبوعَين بناءً على تُهَم لفّقها رئيس شرطة الأمن، محمد ناقدي، رداً على مقالة تتّهمه بالتورّط في هجوم على شخصيتين بارزتين في الحكومة. ومُنع نشر عدد من مقالاتي الأشدّ تحريضاً منعاً باتاً بعد رفع الحظر. وبدا أنه كلما أوشكنا أنْ ننشر مقالة من تأليفي عن عمليات استعادة الفتيات لعذريتهن في طهران، نسمع أحدث التقارير عن مناصرين لحزب الله يتظاهرون ويُهاجمون مكاتب الصحيفة. وتقفُ فائزة فوق المُحرر المُشرف على كتاباتي وتقول له مُهددة، "غداً سيأتون إلى صحيفة "زن"، لذلك اسحب هذه المقالة من العدد. وأضفها إلى برنامج عدد الأسبوع المقبل."

إحدى أشدّ القصص سخونة التي كنتُ أعمل عليها في الصحيفة لم يُقدَّر لها أنْ تُنشر فيها. كان الجميع يعلمون بأمر سلسلة من الزيارات أقوم بها إلى مدينة قُم المقدّسة. وقبل أن أنتهي من كتابة المقالة، أُقفلتْ صحيفة "زن" إلى الأبد واحتُجزت، حيث راح المستجوب يُكرر سؤالي "ماذا كنتِ تفعلين في قُمْ؟"

زوّدني زميل لي في العمل بمادة هذه القصة الرائعة كنوع من ردّ الجميل على مساعدتي ابنته في الحصول على بطاقة هوية. كان متخصصاً في القضايا الدينية ويكتب مقالات دينية عنيفة يدحضُ فيها قضايا أساء القضاءُ الإسلاميُّ البتّ فيها. كان يحمل لقب "حُجّة

الإسلام" ويرتدي قميصاً رياضياً وبنطلون جينز - الشيء الوحيد الذي كان يُمَيِّزه كشخصية دينية هو لحيته الطويلة. وعندما أرانا صورته الشخصية مرتدياً الجبّة والعمامة، لم أستطع أن أمنع نفسي من فغر فاهي من فرط الدهشة. وقد أطلقَ على ابنته الوليدة اسم ساغار، ويعني حرفياً "كأس النبيذ"، وما كان يمكن لأي مكتب تسجيل أن يقبل إعطاء بطاقة هوية لصاحبة هذا الاسم. فلجأ إلى المحكمة، حاملاً معه دواوين شِعر لحافظ والخميني دليلاً لمصلحته ولكن من دون فائدة.

قلت لزميلي الشيخ، الذي جلس معانقاً رُكبتيه بذراعيه دلالة اليأس، "استعدّ، سوف نذهب معاً إلى مكتب التسجيل الكائن في شارع نياواران. سوف أحصل لك على بطاقة هوية."

"لا فائدة. لقد ذهبتُ إلى هناك، أيضاً."

"ولكن الآن ستكون في صُحبتي."

في مكتب التسجيل، طلبتُ منه أن يجلس في الركن ولا يُبدي حراكاً. ورسمت على وجهي ابتسامة كبيرة، جذّابة، وأنا أتقدّم من النافذة. وبعد مرور نصف ساعة من التودُّد، ناولت بطاقة هوية ساغار لوالدها. ورداً للجميل، قدّم لي هدية تناسب صحافياً: قصة رهيبة عن نساء يمارسن الدعارة في مدينة قُمْ المقدسة. فقد كان طالباً في قُمْ ويعرف الأماكن المناسبة للزيارة، وهكذا تطوّع لمساعدتي في رحلتي.

شباط عام 1999

قبل أنْ أقوم بزيارة مدينة قُمْ، قمت بتحقيق عن الدعارة في مدن إيران الكبرى. في طهران تعرَّفتُ إلى ممرضة تقوم بعمليات إجهاض غير

شرعية في منزلها الذي يدل على طبقتها الوسطى. كانت تعمل في أحد المستشفيات خلال النهار. وقد اشترت سيارة رينو الجديدة من النقود التي تجمعها من عملها خارج الدوام. وبعد ظهيرة أحد الأيام، سمحتْ لي بأن أكون مساعدتها وأراقب إحدى تلك العلميات الجراحية.

دخلتْ المريضة منزل الممرضة، حيث الأطباق القذرة مُكوّمة في المغسلة ورائحة زيت الطبخ القديم تملأ الجو. سألتها الممرضة "هل حلقت الشَعر؟"، فقالت المرأة الشابة كلا، كل ما فعلتْ أنها شذّبت شعر عانتها. فأرسلتها الممرضة إلى غرفة الحمّام مع موسى حلاقة قديم وصابون عادي. وخرجت من جديد وطلبت منها الممرضة أنْ تدخل غرفة النوم، وهناك تعرَّتْ المرأة وتمدّدت على طاولة الفحص، وقد شحُبَ وجهها من فرط الخوف. باعدتْ ما بين ساقيها وغرزت أظافرها في يديْ صديقتها التي أحضرتها معها لدعمها.

حقنتْ الممرضة المريضة بمُخدِّر، ووضعت دلواً من البلاستيك على الأرض تحتها، وباشرتْ عملها. أخذ وجه الفتاة وجسمها يتلويان ويرتعشان من الألم. وصرخت تنادي أمها. وفجأةً توقفت الممرضة عن العمل. وصفتْ الفتاة بالعاهرة وأمرتها بأن تخرس. قالتْ "إذا صرختِ فسأتركك كما أنتِ وأرحل". سدّتْ الصديقة فم الفتاة بقطعة من القماش. وفي الحال، تحوّل لون قطعة القماش البيضاء إلى الأحمر عندما عضَّتْ على شَفتها من فرط الألم. أخذ الدم ينزّ من بين ساقيها، ويسيل إلى دلو البلاستيك بينما الممرضة تقوم بحركات الجذب واللّيّ بمبضعها المعدني. عندما انتهى الأمر، كان على صديقة الفتاة أنْ تساعدها للوقوف على قدميها. وخرجت من الغرفة وهي تترنّح، مذهولة.

"أهلاً بكم إلى مدينة الدم والثورة". إنَّ مدينة قُمْ، التي تقع على مسافة ساعة فقط من طهران، أشبه بالفاتيكان بالنسبة إلى مئة مليون مسلم شيعي في العالم ومركز الفقه حيث يتهيّأ الملالي للقيام بمهامهم المقدسة التي اختاروا. أشار دليلي للسائق كي يتوقف عند كشك دفع الرسوم وندفع رسم الدخول. خرجتُ وعدّلت غطاء رأسي الأسود.

شاهدتُ النساء المتلفعات بأغطية رؤوسهن السوداء - "الجاذبية المُستترة في قُمْ" - يتحركن بين الحشد. لا شيء يفصلهن عن دفق الطلاب، والأساتذة، والموظفين البيروقراطيين. إنَّ غايتهن هي التي جعلتهن مختلفات - لقد جئن لكي يوافقن على "الصيغة"[1] ويستلقين بجوار رجل مسلم بضع دقائق ويتلقين أجراً زهيداً يساعدهن في حياتهن البائسة. لهذا السبب تُعرَف مدينة قُمْ بأنها مكان للحج وللمتعة.

عندما قمت بآخر زيارة لمدينة قُمْ، لم يكن قد مرّ على إغلاق صحيفة "زن" أكثر من بضعة أشهر. كنتُ أُخطط لمغادرة إيران في غضون عشرة أيام والعودة إلى أميركا وكنتُ أعلم أنَّ العودة إلى المدينة المقدّسة تُعرّضني لخطر جسيم. ولم تكن حال الصحف الإصلاحية أفضل، وفي كل يوم كان المزيد من الصحافيين يفقدون أعمالهم. لكنَّ تلك المقالة كانت قد أصبحت بالنسبة إليّ هامة إلى درجة أني لم أقوَ على الاكتفاء بوضعها جانباً. كنتُ أعلم أني إذا دوّنت قصص تلك النسوة فسوف أعثر، بمساعدة فائزة أو الصحافيين الذين تعرّفت

1 - ما يشبه عقد زواج مؤقت، أو عُرفي. المترجم

إليهم في أرجاء العالم، على صحيفة أو مجلة أنشرها فيها.

سرعان ما قادتني أبحاثي إلى مقبرة "الشيخان" الكائنة في فناء جامع قديم في مركز المدينة. لم تكن أرض المقبرة تبعد كثيراً عن مقام "المعصومة"، التي تجذب أضرحتها أعداداً هائلة من الحجيج في كل عام. جلست النساء صامتات لا يأتين بحركة على القبور الترابية، ومتشحات بالكامل بأغطية الرأس لا يبدو إلا من وجوههن وأيديهن أنَّ تلك الكتل من الأقمشة المُثيرة للشفقة هي في الواقع نساء. ومن أركان الفناء الأربعة، تجمّع طلاب فقه شبان يعتمرون العمائم التقليدية، ويلبسون الأردية والعباءات التي يرتديها الملالي، داخل الفناء، بعضهم يتسمون وكأنهم في إجازة، وآخرون ينظرون إلى النساء ليستبينوا أيّهن جديدة. البعض يستعرضون صور شهداء الحرب مع العراق المعلّقة في كل مكان، لكنَّ غالبيتهم كانوا يستعرضون البضائع الإنسانية. وكان هناك فتى صغير ونحيل، يحمل بيده وعاء لرش الماء، يغسل أرضيّة الفناء، ويبحث عن زبون في حاجة إلى تعريف.

لم أكن في حاجة إلى مساعدة. وتقدّمت منهن بنفسي. رفعت إحدى النساء اسمها مهري غطاء رأسها لأجلي، فتبيّنت أنها امرأة شابة في منتصف ثلاثينيات عمرها، تتخلل شعرها خصلات مصبوغة باللون الأشقر الرخيص، وترتدي بلوزة برّاقة اللون مشدودة بإحكام على جسمها لتُبرِز تضاعيفه. كان وجهها كتلة من مساحيق التجميل الفاقعة التي تكشف عن أصلها الريفي الفقير. وامرأة أخرى تحدثت معها لم تتجاوز العشرين من العمر. وعندما كانت النسوة يكشفن عن وجوههن، يزداد همس الشبان من حولنا. وتلهج شفاههم بعبارات

المباركة، لكنَّ عيونهم كانت تتركّز على وجوه وأعناق النساء العارية. وفي إسلام الشيعة، الرجل الذي ينوي الزواج - ولو ليوم واحد - يُسمَح له بإلقاء نظرة سريعة واحدة على وجه المرأة لكي يختار. ولحظة رفع الحجاب القصيرة هي فرصتهم الوحيدة المُتاحة.

تسبّب وجودي بين النساء بإزعاج تعرّف الشبان العفوي إليهن. طلبتُ من مهري أنْ تنتقل معي إلى خارج المقبرة لكي نتحدث، لكني عبّرتُ لها عن قلقي من ارتياب الشبان في الأمر. فرمتْ طلاب الفقه المتجمعين حولها بنظرة غضب واحتقار وقالت، وكادت تبصق، "لا يهمّني، أنا أكره هؤلاء الأولاد". وعندما أصبحنا في أمان خارج الفناء، أخبرتني كيف انتهى بها الأمر على بيع نفسها. فقد كانت متزوجة بسائق شاحنة مات في حادث قبل بضع سنوات، وتركها مع سبعة أطفال صغار وابنة مراهقة كان لديها بدورها ابنة صغيرة. وكانت تعمل أيضاً في نسج السجاد، لكنَّ المال لا يكفي، ولهذا تستقل الحافلة ثلاث مرات في الأسبوع لزيارة مدينة قُمْ. وبينما نحن نتحدث، أخذتْ تعاين سائقي ومرشدي وكأنهما في السوق.

كانت الحاجةُ، والحزن والندم تملأ عينيها. كانت تفوح منها رائحة عرق نفّاذة؛ عرق تشبّعت به ملابسها بعد ساعات طوال من الانتظار تحت أشعة الشمس الحارقة. وقالت لي إنه في أثناء أشهر رواج السياحة في الصيف قد تتخذ لها زوجاً مؤقتاً ثلاث مرات في اليوم. "السكان المحليون لا يدفعون كثيراً"، كما قالت، "الغرباء زبائن أفضل". وسألتها أين تتم تلك "الزيجات". فقالت "إذا كان لديهم منزل، يأخذونني إليه؛ وإذا لم يكن لديهم، نذهب إلى المقبرة الجديدة."

هبّت غمامة من التراب والريح على "المقبرة الجديدة " المنسية، القديمة، التي تقع خارج حدود المدينة. لم يعُد أحد يذهب إلى هناك لزيارة الموتى، وحدهم النساء والأزواج المؤقتون يؤمّونها. وعلى مدى بضع دقائق، ريثما ينتهي الرجل ويحصلن على نقودهن، يستلقين بجوار زبائنهن على سرير من الخشب مزوّد بفراش رقيق. وداخل القبور المغبرَّة، التي تعج بخيوط العناكب، يتاقّين ما بين 20 ألف ريال إلى 40 ألفاً (2 إلى 4 دولارات أميركية). ولم يعُد طرفا العقد يتّبعان قواعد " الصيغة " التي تستدعي وجود مُلاّ لكي يباركهما. أصبح الرجل ببساطة يتصل هاتفياً، فتأتي المرأة إليه. ويُفترَض بالعروس المؤقتة أنْ تبقى عزباء طوال ثلاثة أشهر ونصف بعد كل طلاق لتتيقَّن من أنها ليست حاملاً، لكنّ كثيرات يتجاهلن هذا العُرف. فليس لديهن خيار؛ إنهن في حاجة إلى المال ليعشن.

لقد كنّ يمارسن الجنس من أجل العيش، ليُغطين حاجاتهن الخاصة وحاجات أولادهن وأحباء آخرين، بعيداً عن عيون الجيران المتطفلة. ولم تكن أيّ منهن تؤمن ببيع جسدها، وخِلافاً للعاهرات في أجزاء أخرى من العالم اللائي يحاولن أنْ يجذبن الزبائن بتعرية المزيد من أجزاء أجسادهن، هؤلاء النسوة كن يتشبّثن بأغطية رؤوسهن بإحكام أكثر فأكثر من شدّة الإحساس بالعار والمهانة. على الأقلّ في المقبرة يشعرن بالأمان. وتقول مهري "إنَّ منزل الموتى ملجأ آمن."

آذار عام 1999

انضممتُ إلى ما يُقارب ثلاثين مراسلاً شاباً آخرين من أرجاء العالم

كافة، كجزء من برنامج تدريب بتمويلٍ من الاتّحاد الأوروبي، في القاعة الرئيسة من مركز إذاعة أوروبا الحرة في براغ للمشاركة في دورة تدريب مُكثّفة مدتها شهر في الصحافة الإذاعية. وكان القسم الذي يبثّ بالفارسية، إذاعة الحرية، قد افتُتِحَ حديثاً وأصبح معروفاً في طهران باسم "راديو إطاحة الثورة". وبعد مراسم الترحيب، قدَّمني شخص اسمه السيد كالون، وهو مدير إذاعة الحرية، إلى الأعضاء الإيرانيين الآخرين في الإدارة. وكانوا جميعاً قد غادروا البلد منذ سنين، وبدوا مذهولين لرؤيتهم امرأة من الجمهورية الإسلامية بذلك المظهر الأوروبي الحديث. أذكرُ خاصةً مراسلاً من مجلة "زن"، كان على صِلة وثيقة بفائزة هاشمي.

كنتُ قد وعدتُ نفسي بألا أسأل أحداً عن اسمه أو عن مكان إقامته، وبأنْ أُركِّز على عملي. كان المراسلون الإيرانيون يستخدمون أسماءً مستعارة على الهواء، وكان جلياً أنَّ العديد منهم يرتعبون من تعريض عائلاتهم في إيران للخطر. وكنتُ أستقلّ القطار من الفندق مباشرة إلى محطة الإذاعة من أجل حضور ورش العمل اليومية. والمبلغ الوحيد الذي كنتُ أكسبه كان حوالى عشرين دولاراً في اليوم من أجل تكاليف الطعام والانتقال. ولكن شيئاً فشيئاً اطمأنّ طاقم الإدارة إليّ وأصبحوا يطلبون مني مرافقتهم لتناول طعام الغداء في أثناء فترة الاستراحة، ولو حتى من أجل دفتري الصغير الممتلئ بأرقام الهواتف، وكنتُ أستنشق نفحة من الحياة الجديدة في إعدادهم للبرامج. في أول الأمر كانوا فقط يُرافقونني في جولة في المدينة. ثم أبدوا رغبة في الاستفادة من صِلاتي وأتاحوا لي أنْ أقدِّم برنامجاً بالنيابة عنهم.

"يمكنكِ أنْ تستخدمي اسماً مستعاراً كما يفعل الجميع."

كنتُ أعلم أنَّ ذلك سيُبقيني في الجانب الآمن، لكني لم أرغب في استخدام اسم مستعار. لماذا أبقى متخفّية؟ كنتُ معروفة أصلاً في طهران، وأردتُ أن أستخدم اسمي الحقيقي. وتغلَّبتْ إغراءات كوني مُعلِّقة، والمايكروفون، ووجود جمهور في مكان ناءٍ يستمع إلى صوتي، عليّ. وقبلت. "سلام، أعزائي المستمعين، معكم كامليا ناخائي وأنتم تستمعون إلى إذاعة أوروبا الحرّة، إذاعة الحرية من براغ."

وتحولتُ إلى عضو حيويّ غير رسمي في محطة الإذاعة. كنتُ أجلس مع غولناز على مقاهي الرصيف نشرب القهوة ونأكل كعك الجزر، ونتحدث عن إيران وعن شؤون نسائية كالموضة والمكياج. ومع أردالان كنتُ أعيش حياة الليل، نشرب التكيلا في حانات وسط البلد ونرقص. أذكرُ كم كنتُ سعيدة، شاعرة بأني جزء من المجموعة، ومعتبرةً أنَّ كل فرد هو صديق ومنفتح. وبعشرين دولاراً في اليوم كان في استطاعتي أنْ أشتري في صباح كل يوم باقة صغيرة ونضرة من أزهار البنفسج البري من سيدة تجلس خارج محطة القطار، أُثبّتها إلى رسغي أو إلى ياقة سترتي، أو أحياناً أضعها في شعري. كنتُ عمياء أمام مدى تعاسة غالبية مُقدمي البرامج الإيرانيين. لم أكن قد توصلتُ بعد إلى إدراك مدى فظاعة هروبهم من إيران تحت التهديد بالموت أو كم كان صعباً عليهم أنْ يروني أُدلي بآرائي بلا اهتمام وبحرية وأنا أُثبِّتُ أزهاراً حول رسغي. وغالباً ما كنتُ أتحدث عبر الهاتف مع فائزة وأدافعُ عنها ضد انتقاداتهم لوالدها. وقبل نهاية برنامج التدريب بأسبوع، قال كالون إنه إذا كنتُ مهتمة يمكنه أنْ يستخدمني ويمكنني أن أمكث في براغ.

كان عرضاً مُغرياً - في طهران كان أعلى أجر يمكن لمراسل صحافي أن يتلقّاه هو مئة ألف تومان في الشهر (ما يُعادل 120 دولاراً أميركياً في ذلك الوقت). وتراءى أمامي مُستقبل آمن مع راتب ثلاثة آلاف دولار في الشهر والعيش في براغ - بينما كانت صحيفة "زن" وكفاحي من أجل نيل الحقوق المدنية تومئ إليّ من إيران.

شرحت الأمر للسيد كالون قائلة إنَّ عليّ أنْ أسافر أولاً إلى أميركا لكي أُغطي رحلة أُعدّتْ لفائزة لكي تخطب أمام الجمعية الآسيوية في نيويورك وعليّ بعد ذلك أن أنتقل إلى العراق لأجري مقابلة صحافية مع صدّام حسين. وكنتُ قد جاهدتُ على مدى شهور من أجل الحصول على تأشيرة إلى العراق وجاءتني أخيراً عبر السفارة العراقية في طهران. وعرَضَ مراسلٌ تلفزيوني ألماني، اسمه فارامارز قازي، عليّ أن يُرسِل معي طاقماً إلى العراق وأن يشتري حقّ بثّ المقابلة. وشعرتُ بأنّي يجب أن أجري تلك المقابلة التاريخية حتى لو عرضَتْ عليّ إذاعة أوروبا الحرّة أفضل عمل في العالم. لكنني قرّرتُ أن أعود إلى براغ من العراق، وشعرت بالتيه بعد أن غادرت مكتب كالون. وسألتني فتاة تعمل في القسم الفارسي متى سأعود إلى الوطن. فابتسمت وقلت "لقد تعاقدت على العمل. سأبقى هنا."

ثم قبل يومين من الموعد الذي حدّدته للتوجه إلى أميركا، طلب كالون التحدّث معي على انفراد. كان يعبث بشيء على طاولة مكتبه لكي يتجنّب النظر في عينيّ. "يؤسفني كثيراً أنْ أبلغك بأنَّ هناك معارضة شديدة لعملك هنا. إنَّ النساء العاملات هنا يقلن إذا استخدمناك، فسوف يستقلن. إنَّ صِلاتك بإيران قوية إلى درجة أنهن يخشين من

أنْ تكشفي عن هوياتهن الحقيقية. ولسوء الحظ، يجب أنْ أُبلغك بأني لا أستطيع أنْ أعرض عليك الوظيفة". دائماً من الصعب أنْ تسمع مثل هذه العبارة تُقال لك – أنّك فقدتَ عملاً، أو رسبت في الامتحان – ولكن كان والدي قد قال لي ذات مرة، إنَّ مثل تلك الخسائر لا تشكل حياتك. هززتُ كتفيّ استخفافاً، والغريب أني في أول الأمر شعرت بالارتياح لا بالغضب، والأغرب أني شعرت بالسعادة لأني تحررتُ من اتّخاذ قرار. وعندئذٍ أدركتُ أني أردتُ أكثر من أي شيء في العالم أن أكون في إيران أعملَ في صحيفتي. لكنني شعرتُ أيضاً بالخوف لإدراكي أنَّ سبب عدم رفضي للعرض أصلاً كان خشيتي من العودة إلى طهران. لقد كان صوتي يبثّ من محطة إذاعة أجنبية. لا شك في أنَّ فائزة ستساعدني، هكذا طمأنتُ نفسي؛ عندما نتقابل في أميركا في وسعي أنْ أشرح الوضع كله لها. لكنني تخيّلت وجوه النسوة اللائي عملتُ معهنّ في المحطة. هل كذبنَ بشأن خوفهنّ بدافع الغيرة؟ أم هل كنتُ حقاً الوحيدة المُهيّأة لمثل تلك المجازفة؟ فجأة تولاني الغضب.

"سوف يضطهدونني في طهران. لماذا تركتني أُقدم برنامجاً إذاعياً نيابة عنك؟ لماذا تركت صوتي يُبثّ عبر الأثير؟ إنَّ أولئك الذين يرتدون معاطف سوداء ويعتمرون قبعات لكي يأتوا إلى مركز العمل دون أنْ يتعرَّف إليهم أحد، هؤلاء الذين يخافون حتى من الجلوس بجوار النافذة خشية أن يكونوا مُستهدفين من انتقام عملاء الحكومة... كيف لم يفكروا في أنَّ من الممكن أنْ أقع في مشكلة خطيرة في طهران كالتي يمكن أنْ يقعوا هم فيها؟"، ونظرتُ إلى كالون بجرأة. كان يعبث بأصابعه بانزعاج.

"لقد قدّمتِ البرنامج باسم ناخائي. لن يتعرّفوا عليك."

"كم كامليا في طهران في اعتقادك؟ ثم إنَّ ناخائي هو اسم عائلتي".
كانت قصة اسم عائلتنا تُحكى في كل يوم في منزلنا عندما أصبحت أكبر سناً، قصة الضغينة التي اكتنفت جدّي، وكيف كنا ممزَّقين بين الاسمين، فنُعرِّف عن أنفسنا باسم "إنتخابي فرد"، ثم نشرح بعد ذلك على الفور، "نحن من آل ناخائي، لكنَّ جدّنا غيَّره بعد نشوب نزاع عائليّ". كان ناخائي اسماً معروفاً جيداً ومُحترَماً، وكثيرٌ منا غضبوا لأننا فقدناه. ولطالما تمنيتُ لو أحمل اسم ناخائي من جديد، وكان البثّ هو إحدى الطُرُق لكي أُصبح، في تلك اللحظة، الشخص الذي طالما رغبتُ في أنْ أكون. لم أصدِّق أنَّ كالون كان جاهلاً بمغزى كنيتي ولا بد أنه كان على عِلم بالتهديدات التي سأواجهها لدى عودتي إلى إيران. وعدتُ إلى غرفتي، ومن بين كل الأصدقاء الذين ظننتُ أني صنعتهم في محطة الإذاعة، لم تتصل بي إلا أردالان لتُخفف عني.

نيسان عام 1999

كنتُ قد قابلت الدكتور هوشنغ أمير أحمدي في أثناء رحلتي الأولى إلى أميركا، حيث أجريتُ معه مقابلة لصحيفة "زن". كان داعماً مُقرَّباً لهاشمي رفسنجاني واتّخذَ موقفاً ضد خاتمي، مُدعياً أنه رئيس صوري بلا سلطة وأنَّ المال الحقيقي هو الذي يدعم رفسنجاني. ووفقاً للدكتور أحمدي، رفسنجاني هو الذي يمتلك السلطة لبثّ الحرارة في العلاقة بين الولايات المتحدة وإيران. فقد وضع برنامجاً دقيقاً من أجل جلب فائزة إلى نيويورك، لكي تخطب في الجمعية الآسيوية وتقابل عدداً من

ممثلي الكونغرس في واشنطن وأيضاً السيدة الأولى، هيلاري كلينتون. وكنتُ قد طرتُ مباشرة من براغ، وبينما كنتُ أدخل مطار كينيدي الدولي، رأيتُ عناصر الاستخبارات الأميركية ينتظرون فائزة، التي كانوا يتوقعون مجيئها معي.

لكنَّ وصول فائزة لم يكن متوقَّعاً قبل مساء اليوم التالي. وفي صباح ذلك اليوم استيقظتُ في الفندق على مكالمة ذات نبرة مذعورة من الدكتور أحمدي. سألني بنبرة هاذية " كامليا؟ ". وكنتُ قد أُصبت بالبرد في أثناء الليل وبحمّى شديدة. وبصوت واهن، ومكتوم، أجبت "سلام سيدي الدكتور. أنا مريضة جداً". لم يكن يُصغي إليّ.

"لقد انتهى أمري! فائزة لن تأتي. لقد أقفلوا صحيفة " **زن**". غداً مساءً سيأتي ألف ضيف. لقد انتهيت! ستضيع سمعتي..." بدا كأنه يصرخ من تحت الماء.

"أغلق الخط وسأتصل أنا بطهران"، واتصلتُ برقم هاتف فائزة المحمول.

"كلا أنا لستُ قادمة. إنَّ والدي يُعارض ذلك. لقد أقفلوا الصحيفة، ولديّ ألف شخص مُحتجزون في المحاكم الثورية. أصبحنا كلنا عاطلين من العمل."

قلت "سوف يصبّ أمير أحمدي جمّ غضبه عليّ."

قالت فائزة بحِدّة "اللعنة على أمير أحمدي وعلى ضيوفه! اقلقي على نفسك. ابقَي حيث أنتِ بضعة أيام ريثما تنزاح هذه الغُمّة. إنهم يقولون إنكِ حصلتِ على تهنئة بعيد النوروز من فرح ديبا وإنكِ أرسلت التهنئة بالفاكس إلى الصحيفة وإنَّ الأمر كله كان فكرتك. يجب أنْ

أحمل الفاكس إلى هناك وأعرضه على المحكمة الثورية وأقول إنكِ لستِ المسؤولة... اعتني بنفسك وابقي على اتصال معي". كنتُ قد تحطمت. لقد كانت صحيفة "زن" هي أملي الأخير، وكنتُ في انتظار وصول فائزة لكي أحكي لها عن كل خيبة أمل أُصبت بها في براغ. وددتُ لو أبكي كطفلة مُحبَطة وأختبئ تحت غطاء رأسها لكي تعيدني إلى بيتي في طهران. ها إنَّ كل شيء جرى على غير ما أهوى، ولعنتُ كالون، والنساء العاملات في محطة الإذاعة، وأمير أحمدي، والمحكمة الثورية، وحظي العاثر كلها دفعة واحدة.

طلبتُ من أمير أحمدي أنْ يُلغي الاجتماع، لكنه أقنعني بأن أحل محل فائزة في الكلام. "لا أستطيع أنْ أُخبر أولئك الضيوف كلهم أنَّ الأمسية قد أُلغيَت. لقد أُعدَّت ترتيبات العشاء كلها". وحضر حشد غفير، ووقفتُ على المنصة واعتذرت للجميع عن غياب فائزة وأجبت عن الأسئلة الخاصة بالصحيفة والإصلاحيين. كنتُ مريضة ومُحبَطة، وفكّرتُ في أمر إغلاق صحيفة "زن"، وتساءلت إنْ كنتُ سأتمكن يوماً من العودة إلى الوطن. وخارتْ قِواي، فاضطروا إلى جعلي أجلس على كرسي حتى أُنهي خطابي.

* * *

ربيع – صيف عام 1999

في أثناء الأيام المضطربة التي تلت، رحتُ أتساءل إنْ كنتُ سأعود إلى الوطن أم لا، ودرست اللغة الإنكليزية في جامعة كولومبيا ووطدتُ صداقاتي مع أفراد الجالية الإيرانية في نيويورك. قابلتُ غولريز للمرة

الأولى في السجن، على الرغم من أننا كنا قد تبادلنا المراسلات قبل ذلك. كانت تعمل لمنظمة حقوق الإنسان، وعندما كنتُ أعمل على السلسلة في صحيفة "زن" عن عمليات اغتيال المثقفين، كتبتُ مقالة عن خُطط مجموعتها للتحقيق في تلك الاغتيالات. وأحدثت المقالة ضجة كبيرة. وبحُسن الضيافة النموذجية التي يُبديها الإيرانيون بعضهم لبعض خارج بلدهم، كنا غالباً نتقابل معاً على مائدة الغداء.

كنتُ لا أزال مهتمة بتقصّي حقيقة تلك الاغتيالات. وقادني بحثي إلى عميلة الاستخبارات الأميركية، جين، وأصبحت صديقتي الأوفى خلال تلك الفترة الصعبة. كنتُ أبحث في قضية سعيد إمامي، المندوب المستشار السابق لوزير الاستخبارات والمُشتبه فيه الأول المُتَّهم بارتكاب الاغتيالات. وبعد إلقاء القبض عليه في طهران، كان إمامي قد انتحر - أو هكذا قيل - بشرب سائل تنظيف، وبهذا تجنّب مواجهة العدالة. وفي نيويورك عثرتُ على مقالة على شبكة الإنترنت تصِفُ كيف كان طالباً في أميركا في زمن الشاه، في مدرسة في واشنطن، دي سي، حيث كان عضواً في اتحاد الطلاب المسلمين. وقد مات سر الاغتيالات معه، لكني قررتُ أن أقوم ببحث في المدة التي قضاها طالباً لعلّي أخرج ببعض القصص تساعد على إبقاء القضية حيّة. وكانت إحدى الصحف الإصلاحية التي نجت من الإقفال قد عبّرتْ عن اهتمامها بالمقالة. وساعدني حسام زرافشار، وهو قريب لصديق والذي كنتُ قد قابلته في نيويورك، في اقتفاء أدلة متنوعة. بل لقد اتصلتُ بالسفير الإيراني السابق في الولايات المتحدة، أردشير زاهدي، في سويسرا. كان أمراً هاماً بالنسبة إليّ أنْ

أواظب على العمل، على الرغم من أنَّ صحيفة "زن" قد تضيع.

في نهاية المطاف، قادني أحد المصادر إلى جين وتوم، عميليْ الاستخبارات الأميركية اللذين طلبا مقابلتي في بهو فندق في واشنطن من أجل مناقشة ما جاء في مقالتي. لكنهما لم يعثرا على أية معلومات عن إمامي، ومع حلول لقائنا الثالث كفّ توم عن الحضور. وأخيراً تخلّيتُ عن المقالة حول إمامي بعد سلسلة من الطرق المسدودة قابلتني، لكنَّ جين وأنا بدأنا نتقابل كصديقتين كلما حضرتُ إلى واشنطن. لم تكن لغتي الإنكليزية جيدة جداً، فاقترحت أنْ أقرأ كتباً مُخصصة لتعلُّم اللغة. أخبرتني عن عائلتها، وكلابها، وأطفالها الجميلين ودروس الغناء التي يتلقون، مازحة بقولها إنهم يُسقسقون أكثر منهم يُغنون. وكان كلانا يعلم أنَّ علينا أنْ نُبقي صداقتنا سرية، لأنها قد تكون خطرة بصورة لا تُصدَّق عليّ إذا عدتُ إلى طهران.

حثّتني جين على المكوث في أميركا. وعندما كنتُ أتصل بفائزة أسبوعياً، كانت تحذّرني من أنَّ الحرس الثوري يعتبرني مُتّهمة كبرى بالتُهم الموجهة إلى الصحيفة. كنتُ مُتّهمة بصورة غير رسمية بإجراء لقاء مع فرح ديبا وبإرسال بطاقة تهنئتها بعيد النوروز إلى الصحيفة وبتشجيع فائزة على نشرها. وقد كنتُ بريئة تماماً – فلم أكنْ قد قابلت الملكة بعد، على الرغم من أنني قابلتها، ويا للمفارقة، بعد أنْ وُجِّهَتْ التُهمة إليّ. ولكن طوال تلك المحنة كلها كنتُ أتحرّق شوقاً للعودة، بينما كان الطلاب يضجون بالاحتجاج على تعديات الحكومة الجديدة على حرية التعبير. وأخبرتني أمي أنَّ الأحكام العُرفيّة قد فُرِضَتْ على الأحياء المجاورة لجامعة طهران. فقد اجتمع طلاب أمام مهاجع النوم

لكي يتظاهروا ضد إغلاق صحيفة "سلام"، فأهينوا وضُرِبوا على أيدي الباسيج. واستمرت الإضرابات على أمل حدوث ثورة ثانية. كان الناس ينتظرون من خاتمي أنْ ينهض ويُقاتل - لكنه ظل يلزم الصمت، وفقد العديد من مُناصريه. وتقتُ إلى أنْ أكون في المدينة لكي أرسل تقارير شخصية في مثل تلك اللحظة التاريخية. لم أعتبر نفسي منفيّة؛ بل شعرت بأني أقف جانباً، في انتظار اللحظة المناسبة - أية لحظة - للعودة.

* * *

كان يوماً ممطراً من شهر أيار عام 1999 عندما تلقّيت مكالمة من قمبيز أتاباي، رئيس مكتب فرح بهلوي في نيويورك. وكنتُ قد قابلته مرات عدّة خلال الأشهر القليلة الماضية في أثناء إعداد العدّة لإجراء مقابلتي مع رضا بهلوي. فبالنسبة إلى العائلة المالكة خارج إيران، بدا أمراً لا يُصدَّق أن توافق ابنة رفسنجاني على أن أُجري لقاءً مع "الشاه الشاب"، لكنني أتممتُ الأمر كله بدعم فائزة الكامل على أمل أن تتوفر بين أيدينا، عند إعادة فتح أبواب الصحيفة، مقالة نادرة. كنتُ قد أخفيتُ تسجيلاتي مع رضا ومع أصدقائه في أميركا، وتركتها هناك عندما عدتُ إلى إيران، لكنَّ صحيفة "زن" لم تتمكن من نشر المقالة، فقد بقيت الصحيفة مُقفلة إلى الأبد.

أخبرت أتابيه عن طموحي في أن أقابل أيضاً فرح، التي كانت تقيم في باريس. ولكن ظلّ الأمر مفاجأة لا تُصدَّق عندما اتصل بعائلة صديقتي التي أُقيم عندها في نيوجرسي وأبلغني بأنَّ الملكة ستقابلني في شقته في نيويورك في صباح اليوم التالي. رحتُ أفتش في خزانة ملابسي

عن شيء مناسب لارتدائه في مقابلة مع الملكة واستقرّ رأيي على معطف رمادي وتنورة واستيقظت باكراً لكي أصفف شعري وأتبرّج.

كان الجو فظيعاً. وما بين ترجّلي من الحافلة عند بورت أوثورايتي واستقلالي سيارة أجرة، نُقِعَ حذائي بالماء وتشعّث شعري. واشتريتُ باقة من الورود الحمراء عند آخر خط الحافلة. وحالما فتحت الباب لأترجّل من سيارة الأجرة عند المبنى المُحدَّد، دفعني قمبيز أتابيه نحو الداخل وركب معي السيارة. أخبر السائق أن يُتابع سيره؛ لقد أُبقيَ الموقع الصحيح للقاء سراً عليّ. عندما وصلنا كنتُ منقوعة بالماء. وضعتُ الورود على طاولة في غرفة الاستقبال وولجتُ غرفة الحمّام لكي أُجفف على عجَل حبّات المطر عن حذائي الجلدي بمنديل ورقي.

كانت تماثيل الشاه النصفية ولوحات رائعة وصور فوتوغرافية موجودة في كل زاوية من غرفة الجلوس. دخلتْ مينا، زوجة أتابيه، حاملة صينية الشاي. انبعث بخارٌ عطِر من فناجين الشاي الفضيّة المزخرفة بنقوش تخت جمشيت[1]. ووضعتْ صينية أخرى من الفطائر المحلّاة على حافة الطاولة. حملتُ فنجان شاي وقطعة حلوى إصبعية مقرمشة مكسوّة بالسُكّر ومشيتُ حتى النافذة. قضمتُ قضمة كبيرة من الفطيرة وهممتُ بأخذ رشفة من الشاي عندما هتف لي أتابيه من الخلف "كامليا".

كانت فرح تنتظر عند إطار الباب؛ أنيقة أناقة مُذهلة. تركتُ فنجان الشاي بحركة متوترة. كان فمي ممتلئاً حتى عجزت عن قول "سلام". فابتلعت كل شيء دفعة واحدة وارتفعتُ على أطراف أصابع قدميّ

1 – تخت جمشيت : أو برسيبوليس، العاصمة القديمة للسلالة الفارسية الثانية.

لأقبّلها. كانت ممشوقة القامة وجميلة، أجمل ألف مرة عن قُرب من أية صورة أُخذتْ لها. قلت في نفسي، ليس هناك أية صورة جيدة لها. لم أدرِ بمَ أخاطبها. خانم؟ شاهبانو؟ جلالتك؟

"إنكِ نحيلة جداً وجميلة"، هي ما نطقت به أخيراً. "كيف حالك؟"

طلبتْ مني أنْ أنقل تحياتي إلى فائزة، التي كانت قد سمعت أنها عصرية وتقدّميّة. بدت شديدة الاهتمام بآرائي كصحافية حول مدى تقدُّم طهران في ظل برامج خاتمي الإصلاحيّة. كانت تبقى على اتّصال، عبر الرسائل الإلكترونية، كما أخبرتني، بالعديد من الشباب في إيران وأنها أحياناً تشعر بالحنين إلى الوطن فتطلب رقماً لا على التعيين فقط لتسمع صوتاً يتكلّم بلغتها من داخل البلد.

قلت "الورود لأجلك"، وناولتها إياها.

"شكراً لك". مرّرت أصابعها على البتلات وربتت على كتفي، "إنها فائقة الجمال، مثلك. أنا سعيدة لأنَّ في إيران فتيات شجاعات مثلك. أتمنى لك النجاح". ثم استأذنت بالانصراف واختفت خلف الجدار، وواكبها أتابيه إلى الخارج. تساءلتُ، هل لديّ من الشجاعة ما يكفي لأعود إلى إيران؟ لاحقاً، في السجن، فكّرتُ كم كنتُ، عبر تلك العبارات القليلة التي تبادلتها، أخاطر بحياتي.

تموز عام 1999

كانت أمي قد نذرت إذا ظهرتُ في مطار مهر آباد سليمة مُعافاة، أنْ نزور جميعاً ضريح الإمام الرضا. كانت قد ناشدتني ألا أعود. "إنكِ

ترتكبين خطأ. لن أفتح بابي لك. أنتِ لا تُدركين كم الوضع جنونيّ في طهران. ألا يكفي الهراء الذي تنشره صحيفة "**كيهان**" عنكِ؟ ألم تقرئي ما ذُكِر عن أنكِ فوضوية وجاسوسة أميركية؟"

توقعتُ أنْ أعود إلى نيويورك في غضون عشرة أيام. وعلى الرغم من تحذيرات أمي، وجين وأصدقاء آخرين المُلحّة، اقتنعتُ بالعودة إلى إيران استناداً إلى ضمانات غولريز. كانت قد طلبتْ مني أنْ أرافقها وأساعدها في عملها في منظمة حقوق الإنسان خلال تلك الرحلة القصيرة. ووثقتُ بها. ثم تخلَّتْ عني بعد وصولنا إلى إيران بثلاثة أيام، عندما ظهر عملاء وزارة الاستخبارات على باب بيت أمي لكي يأخذوني إلى السجن. ولاحقاً بعد فترة طويلة، أخبرني الناس أنه بينما أنا قابعة في زنزانتي، لم تُحرِّك غولريز ساكناً لمساعدتي وادَّعتْ أني لم أذهب إلى أميركا كمراسلة صحافية، بل كجاسوسة لمصلحة الوزارة. وهذا الكلام ليس مُضحكاً كثيراً، بل هو مفارقة تدعو إلى السخرية: ففي الوقت نفسه الذي اتّهمتني فيه الوزارة بالتجسّس للأميركيين، اتّهموني في أميركا بالتجسس لإيران. و لم أغفر لغولريز أو أفهم دوافعها. لكنني أعلم أنه بينما جعلتني أصدّق أني سأكون في مأمن معها، كانت فكرة العودة من اختياري. لقد أردتُ أنْ أكون حرّة في زيارة بلدي في أي وقت أشاء. وآمنتُ أكثر من أي شيء آخر بأنَّ في استطاعتي أنْ أعود إلى وطني الذي عرفته طوال عمري. آمنتُ بأنَّ في وسعي أنْ أشعر بالأمان بين أصدقائي.

من بين المقالات التي كنتُ أعمل عليها، قررت بوجه خاص أنْ أنهي مقالتي حول مدينة قُمْ، أنْ أروي القصة التي باشرتُ بها قبل أنْ

أغادر براغ. كان في إمكاني أنْ أجد صحيفة في نيويورك أنشر فيها مقالاتي. وقد تيقّنت حينئذ من أنه ما كان في وسعي أنْ أستمر في الأمل في أنْ تُنشَر في صحيفةٍ "زن". لقد كان جو الانفتاح الذي ساد الصحافة الإيرانية قد اختفى. وفي كل يوم تُغلق السلطات القضائية صحيفة أخرى، وأخذ يرتفع عدد الصحافيين المطرودين أو الذين يتلقّون تهديدات. و لم تعد الصحف تتحلى بشجاعة تلك المتهورة التي ظهرت خلال الأشهر الأولى التي تلت انتخاب خاتمي.

أمضيتُ نصف اليوم الثاني لوصولي في مدينة قُم. ثم انتقلتُ مع أمي، وأختي وقريبتي إلى مدينة مشهد لنقدِّم العطايا التي نذرتها أمي. واشترت أمي حبّ الدخن ونثرته على الأرض لإطعام الحمام. ثم ارتدينا أغطية الرأس وذهبنا لنصلي كي يبقى الأصحاء والأقوياء متماسكين. كم اشتقت إلى عائلتي! اشتقتُ إلى تبادل الأحاديث الحميمة والمريحة مع أمي وأختي، ولكن في الوقت الذي وصلتُ إلى المنزل في اليوم التالي لم أكن قد عثرت بعد على فرصة مناسبة. عُدنا إلى طهران عند الفجر، وتوجهت كاتي إلى بيتها وزوجها بعدما أوصلتْني وأمي إلى المنزل، ونحن مُرهقتان بعد رحلتنا القصيرة.

عندما سمعنا قرعاً على باب شقتنا كانت الساعة السادسة صباحاً. ولما دخلت أمي عليّ بهدوء بعد ذلك بثوان ووقفت فوقي، عرفتُ ماذا ستقول.

"هناك رجلان يقفان بالباب. يقولان إنَّهما يحملان رسالة إليك."

"أعلم. لقد جاءا ليأخذاني. الزمي الهدوء"، تبعت أمي، وانتزعتُ معطفاً عن حمالة ولبسته فوق قميص نومي. فتحتُ الباب الأمامي

بهدوء، قال الرجلان إنَّ معهما تصريحاً بتفتيش المنزل والقبض عليّ من المحكمة الثورية. عرضا عليّ التصريح، وقرأته. تنحّيتُ جانباً وطلبتُ من أمي من جديد أنْ تلزم الهدوء. أيقظا كاي خُسرو ودفعاه إلى مغادرة السرير وساقانا إلى الرواق، وهما يأمراننا بأنْ نبقى هادئين ولا نأتي بحركة. نزعا الهاتف من مكانه ثم انتقلا إلى غرفة النوم. وسمعتهما يتواصلان مع إدارتهما عبر الراديو وهما يجمعان أغراضي كلها، بما فيها الكتب وألبومات الصور العائلية، في أكياس كبيرة. جمعا أشياء من أنحاء المنزل كله – من المطبخ، وغرفة الطعام، من داخل خزائن الفضيات. وأخذوا جواز سفري.

أمراني "البسي بنطلوناً". بحثتُ في أرجاء غرفتي. ونظرت إلى حقيبة سفري المفتوحة في الركن – لم أكنْ حتى قد أنهيت إفراغها. ونظرتُ إلى الدمية التي كانت جدّتي قد اشترتها لي. وفي الرواق، كانت أمي تجهش بالبكاء وتقول "إلى أين ستأخذانها؟ خُذاني أنا، أيضاً!"

"حاجة خانم، ابقي أنتِ في المنزل. سوف نتصل بك."

قرّبتُ وجهي من وجه أمي "إلى اللقاء، لا تقلقي... إلى اللقاء."

نظرتُ إلى صورة والدي المعلّقة على الحائط أثناء خروجي من الباب. كان هناك عدد آخر من الحراس واقفين على طول الممشى. جلستُ في خلفية السيارة بينما كانا يُفرِغان أكياس الأدلة داخل الصندوق وشاهدتُ المزيد من الرجال واقفين تحت ظلال الأشجار التي تحف بالطريق. وعندما أُعطوا إشارة، استقلوا هم أيضاً سياراتهم. تلفّتُ حولي ونظرت خلفي، إلى أوعية أزهار أمي، وإلى الستائر المُخرّمة المرفوعة والمربوطة في النوافذ. كنتُ أعلم أنها وأخي كانا يُراقباننا.

تساءلت "هل سأرى شارعي، ومنزلي، أو أمي من جديد؟"

أحد الرجال الجالسين في المقدمة التفت ورفع عُصابة من الكنفا الرمادية.

"من فضلك ضعي هذه على عينيك واستلقي في الخلف".

استلقيت، ورموا غطاءً عليّ . قلت بصوت خافت "بحق الله، خذوني إلى حيث تشاؤون. ولكن لا تقتلوني."

الفصل الثاني عشر

خلّصي نفسك بقول الحقيقة

ذات يوم، فور عودتي إلى زنزانتي من غرفة الاستجواب، أُرسِلَ الحراس من جديد لجلبي. "لقد حضر مُستجوبك. استعدي بسرعة". وضعت الغطاء على رأسي وارتديت جوربي من جديد وتبعته إلى أعلى الدَرَج. ماذا يريد مني الآن؟ هل جدّ جديد؟

عندما عُدنا إلى الغرفة، سأل "عظيم، إذاً تقولين إنكِ مستعدة لتنفيذ أي شيء تحتاج إليه المنظّمة. هل تريدين أنْ تُصبحي أحد الجنود المجهولين؟"، أومأتُ برأسي إيجاباً.

"خذي هذه الاعترافات التي أدلى بها منوشهر محمدي وصديقه غلام رضا مهاجرين زهاد واقرئيها. إنها تدور حول لقائهما برضا بهلوي. محمدي لم يعترف بتلقّي أموال من بهلوي من أجل إشعال فتيل الشغب بين الطلاب، وعليكِ أنْ تساعدينا. لقد قيلَ له إننا خطفنا إحدى موظفات بهلوي في تركيا وأحضرناها إلى طهران. أنتِ شيفا

بالتمانكليش. وعندما تواجهين محمدي، أخبريه أنكِ موظفة رضا المسؤولة وأنكِ حرّرت شيكاً من أجله بمبلغ خمسة وعشرين ألف دولار."

أجبرني على النهوض، وأنا معصوبة العينين، والمشي أمامه وولوج غرفة أخرى أثناء كلامه معي. ثم سمعت رجلاً آخر يتحدث معه، وقال شخص يقفُ خلفي، "ارفعي عصابتك وانظري إلى الشخص الماثل أمامكِ، ولكن لا تنظري خلفك."

رفعتُ العصابة. كان أمامي شاب معصوب العينين. وكان، مثلي، يرتدي ملابس السجن. كان مُضطرباً ويعصر أصابعه. أدركت أنه منوشهر محمدي.

قال صوت، "أعيدي العصابة إلى عينيك". أطعت، وقال ذلك الصوت نفسه، وكان قادماً هذه المرة من جهة أخرى، "والآن دورك يا فتى في رفع عصابتك". من الواضح انَّ منوشهر كان ينظر إليّ هذه المرة. "أعِدْ العصابة إلى مكانها."

"حسن جداً، يا خانم، هل تعرّفتِ إلى هذا السيد؟"

وطفقتُ أؤدي دوري كما درّبني عليه مُستجوبي. قلتُ إنه منوشهر محمدي وإني قابلته في واشنطن وإني حررتُ له شيكاً من رضا بهلوي. وسألوا محمدي إنْ كان قد تعرَّفَ إليّ. فراح يبكي وينوح مُقسِماً بالله بأنَّ هذا كذب - بأنَّ هذه المرأة كاذبة وأنَّه لم يرني من قبل، ولم يتعرَّف إليّ. وبكى بحُرقة.

صرخ المُستجوب فيه وبدأ يلكمه، ومحمدي يصرخ ويسبّني. "لماذا تكذبين؟". لم أدرِ بما أُجيب. جرّوني إلى خارج الغرفة. ومُستجوبي

يُزمجر في وجهي، غاضباً لأني لم أُحسِن أداء دوري. قال إنَّ محمدي لم يعترف لأنه أدرك ما أفعل وفهم أنَّ ذلك كله خداع.

ولم أستطع أنْ أكبح نفسي عن السؤال "لماذا ضربتموه؟"

دُهِشَ، وأجاب "ضربنا؟ ضربنا مَنْ؟ إنه مجنون. إنه دائماً يضرب نفسه. إنّكِ عاقلة بما يكفي لتعلمي أنَّ عليك أنْ تهتمّي بشأنك."

كنتُ عاقلة بكل معنى الكلمة، وأهتم بشأني الخاص. وكنتُ أتلقّى المزيد من الإشارات الإيجابية من مُستجوبي وهو يُصغي إلى اعترافاتي. حينئذٍ بتُّ أحفظ عن ظهر قلب كيف أُصنِّف جرائمي، واعترفت للجميع. ومن بين جرائمي الكبرى تواصُلي مع رضا بهلوي ونشري بطاقة تهنئة فرح ديبا بمناسبة عيد النوروز في صحيفة " زن "؛ وإقامة علاقات مع إسرائيل؛ والعمل لمصلحة وكالة الاستخبارات الأميركية عبر إذاعة الحرية في براغ؛ والتجسّس لمصلحة ناشطة في مجال حقوق الإنسان في طهران (أي غولريز)؛ والسعي للعمل ضد الأمن القومي من خلال محاولات إجراء مقابلة صحافية مع سلمان رشدي؛ والسعي إلى إيذاء حكومة الجمهورية الإسلامية ببثّ الخوف وروح الانشقاق بين الناس بفضح أمر اللائحة السوداء. ومن بين جرائمي الثانوية ممارسة الدعارة، والسلوك الأرعن، وإدمان شرب الكحول؛ والكُفر ونشر الإلحاد بين الطاهرين؛ والاستهزاء بالإسلام؛ ومعارضة حكم الملالي.

"إنَّ أياً من هذه الجرائم قد تودي بك إلى الموت. يجب أنْ تتلقّي أربعين جلدة على جريمة معاقرة الخمر وحدها. والآن، ماذا في اعتقادك يجب أنْ نفعل بك؟"

أجبت بشجاعة "أنا سأعود إلى بيتي - أنا أعلم أنَّ هذه الأيام ستنتهي قريباً، وسأصبح حرة."

ضحك. "ما شاء الله، أنا مُعجب بك، أنت وقحة جداً. ولكن يؤسفني أنْ أقول إنني أعتقد أنَّ السبيل الوحيد لخروجك من هنا هو بالموت. لَمَ أنت متيقّنة إلى هذه الدرجة من أنكِ ستتحررين؟"

"لقد حلمتُ برسالة موجّهة إلى أمي تقول "هذه رسالة من إمام الزمان" ورأيتُ أمي تبكي من شدّة الفرح."

"هاه! ألم تسمعي القول الشائع "أحلام المرأة تخدعها"؟"، ثم ضربني بقوة بحقيبته على رأسي وقال بغضب، "عندما يأتيك إمام الزمان في الأحلام، أيتها الملعونة، فقد جاء ليأمرك بتصحيح مسارك!". وفي الحال استعاد هدوءه وقال، "لعلّ الرسالة التي تلقّتها أمك كانت تحمل نبأ موتك. لا تتفاءلي كثيراً."

كان الحب، كهبّة من الهواء المنعش القادمة من الجنّة، قد تغلغل عميقاً في قلب ذلك الرجل القاسي. كنتُ أعلم، حتى عندما يضربني، أنه يشعر بأنه يلمسُ زهرة رقيقة. إنَّ لكماته خشنة لأنَّ حبّه يُبلبله. كان قد كرّسَ حياته كلها للإمام وللحرب وللثورة الإسلامية. لقد استنزفتْ نيرانُ الحب "رجلَ الدين" هذا. واستنزفتني أنا أيضاً. لقد أحببتُه حقاً. وبكل كياني شعرتُ بحريتي من خلال أروقة السجن، الأروقة التي بدا أنها لا تؤدي إلى أي مكان. والحلم الذي تأمّلت فيه طويلاً برز بطاقة لا حدود لها.

"إنَّ الإخوة الذين يرونك على الممشى يقولون إنهم يعملون في هذا السجن منذ عشرين عاماً، و لم يعرفوا سجيناً مثلك. يقولون إنكِ

ترتقين الدَرَج خلفي ورأسك مرفوع عالياً."

كان ذلك صحيحاً. أنا لم أنكسر. لقد اعتبرت السجن، وأيام الاستجواب الصعبة، والاحتقار والجوع، والعزلة والمعاناة نوعاً من الأداء التمثيلي. أداء ممتاز – أداء لا يتكرَّر. ولكن بعد مرور ثلاثة أشهر، نال مني التعب. لقد غنّيت كل الأغاني التي أعرف.

كان في وسع مُستجوبي أنْ يتحصّل على أمر بإطلاق سراح مشروط لأجلي عبر مفاوضات معقّدة مع زملاء له من ذوي المراكز العالية. كان ينبغي أولاً تجريبي في الإجراءات الرسمية. أمرتْ وزارة الاستخبارات القاضي المُعيَّن للنظر في قضيتي أنْ يتّخذ إجراءات رسمية معيَّنة لإطلاق سراحي بكفالة. قيلَ له إنني راغبة في العمل لمصلحة وزارة الاستخبارات وقادرة عليه، وإنهم يُريدون أنْ أبدأ على سبيل الاختبار. كان عملي أنْ أراقب الصحافيين الآخرين داخل مكاتب صحف متنوّعة وتقديم تقارير بذلك إليهم. ووقّعت على اعترافاتي كلها وعلى إقرار مني بالتوبة، وكان مطبوعاً على كل صفحة عبارة "خلِّص نفسك بقول الحقيقة."

قيل لي إنني إذا انقلبتُ على الوزارة وكشفتُ أمر اتفاقاتنا السرّية، فسوف أخضع لأبشع أنواع العقاب وأُقتَل.

الخطوة التالية في إطلاق سراحي المشروط كانت أنْ أظهر في شريط فيديو أثناء مرافعات المحكمة. أرادوا أنْ أصور فيلمَين مختلفَين. وقمنا ببروفات عديدة وأنا أقرأ التصريحات المكتوبة.

"لستِ طبيعية. يجب أنْ تتكلمي بصورة طبيعية."

شرحوا قائلين إنَّ في استطاعتي أنْ أدّعي التقوى في يوم التصوير.

لم أفهم وسألتهم ماذا يعنون بكلمة تقوى.

"يعني أنَّ عليكِ أنْ تكذبي لصالح دينك. في قلبك تنوين أنْ تكذبي، عن عمد، لكي لا يعتبر الله كذبكِ إثماً، لأنكِ تمارسينه من أجل دينك."

في اليوم الذي اعتبروا أنَّ بروفاتي أضحت مُرضية، أعادوا إليّ ملابسي القديمة لكي أرتدي، وفوق غطاء الرأس وضعت الوشاح وارتديت المعطف. أخذني مُستجوبي إلى غرفة وأمرني بنزع العصابة. كانت الغرفة مُقسَّمة إلى نصفَين بستارة سميكة. كانت هناك عدسات آلات تصوير تبرز من تضاعيف الستارة، وثمة طاولة وكرسي موضوعان أمام عدسة التصوير.

"اجلسي على الكرسي وباشري الحوار الصحافي."

كان على الجانب المقابل من الستارة، يُصورني. على جانبي، رحت أمثّل دور الفتاة الضالة، مضطربة وتائبة. الشريط الأول كان يحكي عني – عن دوري في هجاء الحكومة؛ عن فسادي وعجزي عن كبح جماح نفسي؛ ووصف لعلاقاتي الجنسية مع جاسوس إسرائيلي وكيف استغللت صوتي كمراسلة صحافية في خلق مُعارَضة للدولة ونسف الثورة وحكم الملالي؛ واعتراف بأني أعرف أنَّ الجرائم التي ارتكبت تستحق الحكم عليّ بالإعدام. وأرادوا أنْ يحكي الشريط الثاني عن فائزة وباقي زملائي. في هذا الجزء، اعترفت بأنَّ فائزة ليستْ متديّنة وليست ملتزمة بالثورة الإسلامية وأنَّ لديها العديد من العشّاق، وذكرت أحدهم بالاسم وقلت إني رأيتهما معاً وحدهما في غرفة مكتب فائزة. وقلتُ كل ما طلبوا مني أن أقول.

"ماذا ستفعلون بشريطيْ الفيديو هذين؟"

"سأضعهما داخل درج خاص في غرفة مكتبي، بحيث لا تطالهما يد أحد."

"وما الغرض منهما؟"

"لنستخدمهما ذات يوم، تحسُّباً. إنَّ هذا إجراء تقليدي بالنسبة إلى وزارة الاستخبارات. يجب أنْ نحتفظ بتسجيلات للمتّهمين كلهم."

تشرين الأول عام 1999

في قاعة المحكمة أخبرت القاضي، كما هو مُخطط، أني لستُ في حاجة إلى محامٍ وأني سأتولى الدفاع عن نفسي. نهضَ هو وكاتبه وقرأ التُهم الموجّهة إليّ، ورددتُ على كلٍ منها. وبعد جلسة الاستماع سمحوا لأمي وأختي بالحضور. لم أكن قد شاهدتهما منذ سبعين يوماً. بدت أمي أشبه بأفسار خانم، والدة غولي. كان شعرها قد ابيضّ في بعض البقع، وكانت إحدى عينيها مرتخية. اكتشفتُ لاحقاً أنها عانت من نوبة قلبية معتدلة في أثناء نومها وأنَّ أعصاب عينها اليُسرى شُلَّتْ. ضمّتني أختي، التي أضحت أشد نحولاً وشحوباً من أيّ وقت مضى، إلى صدرها بقوة وكأني صوص صغير وأجهشت بالبكاء. لم يكن مسموحاً لنا بالتحدث؛ تمكّنتُ فقط من همس "سأعود إلى المنزل قريباً."

عندما غادرتا، كانت أمي تعرج، وهتفتْ ابنة أختي، ياسبانو، بصوت عالٍ قائلة إنَّ العمّة أصرّت على الحضور معهم أيضاً. شعرت بقلبي يكاد ينفجر بين أضلعي. لماذا يُعذّبون عائلتي هكذا؟ ما سبب وجودي هنا؟

ولكن عندما ضمّتني أمي أولاً لاحظَتْ، وسط نوبة بكائنا، وجود أحد الحرّاس فغيَّرتْ بسرعة نبرة صوتها وهي تقول له "مرحباً، ألستَ السيد أمير؟ كان منزلكم في منظرية، بجوار منزل العمة نرجس"، فحدَّق الجميع إليها.

"نعم، نعم، زهرة خانم. السلام عليك. كم كانت امرأة طيبة، رحمها الله. أنا أتذكّرك. وأخوكِ، السيد علي. رحمه الله، هو أيضاً."

بدأتُ أضحك. لم تكن أمي، حتى في أشدّ الأماكن خطورة، وسط المحكمة الثورية، قادرة على الكفّ عن التصرُّف بفضول.

"انتبه. ابنتي أمانة بين يديك. إكراماً لله، اطلب منهم ألا يؤذوها."

وَخَزتُ أمي في جنبها.

بعد ظهيرة ذلك اليوم، في السجن، ضحك مُستجوبي، وقال "اليوم قابلت أمك أحد عشّاقها في جمران."

* * *

وذات يوم جاءني الحراس، ليس لأخذي من أجل المزيد من الاستجواب، بل ليرسلوني إلى بيتي. أعادوا إليّ ملابسي القديمة وحقيبة يدي، ثم غطوا وجهي من أجل نقلي من السجن. قال أحدهم "لا تلمسي عصابتك الآن، سوف تنزعينها فقط عندما أخبرك أنْ ترحلي. وبعد ذلك يجب أنْ تخرجي من السيارة. وقبل ذلك كله، لا تنظري خلفك". أطلقوا سراحي في وسط الشارع في موقع ما في قلب طهران. كان يوماً ماطراً في الخريف، ولم أكن أغطي رأسي إلا بغطاء رقيق، وتشبثتُ بكيس من البلاستيك يحتوي متعلقاتي القليلة. والغريب في الأمر، أن لا أحد بدا

أنه لاحظ وجودي. وهتفت لسيارة أجرة لتقلّني إلى المنزل.

كانت أمي نادراً ما تقفل الباب الأمامي لشقّتنا - فأدرت ببساطة أُكرة الباب ودخلت. رفعتْ ياسبانو رأسها من مكان لعبها على الأرض، وتجمّد وجهها من الذهول. كانت المحكمة تعِدُ أمي في كل يوم بأنّي سأعود، وأخيراً عدتُ إلى بيتي بالفعل. جاءت من المطبخ، وطفقتْ تبكي وتشدّني إليها. صُعِقتُ عندما نظرتُ في المرآة؛ تلك الأسابيع الطويلة التي تعرَّضتُ خلالها للضوء الاصطناعي حوّلتْ بشرتي إلى اللون الشاحب. كانت عيناي نصف مُغمضتين. وخلال الأيام القليلة الأولى لم أكنْ أنام إلا لماماً. وفي كل يوم، كنتُ أقف عند النافذة أترقب أنْ يعود الضابط، أنتظر منه اتصالاً هاتفياً...

* * *

في لقائنا الرابع أو الخامس بعد لقائنا الأول الكارثيّ في مكاتب صحيفة "زن"، عندما طردني لأني أضعُ عِطراً، طلب مني "آمري" أنْ أوقِّع على قُصاصة من الورق. بعد ذلك أصبح يحملها، داخل دفتر مواعيده، كلما تقابلنا، تحسّباً إذا ما أُلقيَ القبض عليه واتّهموه بأنَّه يُقيم علاقة شائنة معي. كانت وثيقة زواج موقت، "صيغة"، على الرغم من أنه كان قد كتبها تواً بنفسه. و لم نقابل أيّ رجل دين.

"سوف نقضي ساعات طويلة معاً وحدنا، وهذا ليس صواباً. أنا رجل ملتزم. ويجب ألا أعصي الله". هذه اللحظة غيَّرت معنى علاقتنا إلى الأبد.

"حسن. ماذا يُفترَض بي أنْ أفعل الآن؟ هل سنتوقف عن اللقاء؟".

تظاهرتُ بأني لم أفهم ما أراد. وفكّرت في تلك النسوة في قُمْ. انتظرت، أردتُ منه هو أنْ يطلب.

"أعني، سيكون أمراً جيداً لنا نحن الاثنين. سأشعر بارتياح أكبر، ونستطيع أنْ نتحدث بحرية في أثناء عملنا معاً"، ودفعَ بالورقة نحوي لكي أوقّع عليها.

لم أفهم بالضبط ما عنى. كنتُ لا أزال أجهل اسمه، ولطالما طلب مني أنْ أناديه بفارمانده كلما سألته. تذكّرتُ كيف كان الناس في إيران يمزحون حول زوجات الزواج المؤقت؛ كيف يُبيِّنَّ للزبائن أنهنَّ ينتظرنهم بوضع غطاء الرأس بالمقلوب. هل ينبغي أنْ أشعر بالخجل في هذه النقطة من حياتي، بعد ما مررت به كله؟ ها قد جررتُ هذا الرجل إلى هذا المكان، والآن، ماذا ينبغي أنْ أفعل؟ على الرغم من أنه ربما صدَّقَ أنَّ ذلك يحميه من الله، إلا أنَّ قصاصة الورق الصغيرة لم تعنِ أيّ شيء بالنسبة إليّ. اعتقدتُ أنها ربما تُمتِّن علاقتنا، وتساعد على ضمان سلامتي، وتُبقيه ملتزماً بحمايتي. ولكن ماذا سيكون رأي عائلتي؟ هدَّأتُ نفسي بالاعتقاد أنَّ "الصيغة" كانت مُخزية بالنسبة إليه، أيضاً، وإلى زوجته وعائلته وأننا لن ندع أحداً يعرف بأمرها أبداً إلا إذا أُلقيَ القبض عليه.

لاحقاً، أعتقد أنَّ "الصيغة" ساعدتني أيضاً على الإفلات منه عندما غادرتُ إلى أميركا. لقد جعلته يثق بي عندما وعدت بأنْ أعود إليه. وقد قرّبني ذلك أكثر من آمري ومنحني بعض السلطة عليه. لقد تغيَّر بعد التوقيع على تلك الورقة. أصبح أكثر رقّة معي وتركني أغازله بصورة مباشرة أكثر. لكنَّ التوقيع على تلك الورقة أيضاً بيَّنَ لي بوضوح أنه على

الرغم من أني خرجت من السجن، فاللعبة لم تنته بعد. تلك كانت بداية جديدة. وتساءلتُ إلى متى أستطيع أنْ أستمرّ في عيش حياتَين.

بالمقارنة مع لقائنا الأول عندما أجبرني على مسح مساحيق التجميل عن وجهي، بدأ الآن يطلب مني أنْ أضع مساحيق تجميل من أجله وأنْ أرتدي ملابس جذّابة عندما نلتقي. "على المرأة المسلمة أنْ توفّر جمالها كله وموهبتها لزوجها". تلك كانت كلماته وكلمات نبيّنا محمد.

اقتضت مهمتي أن أعود إلى العمل في صحيفة إصلاحيّة وأنْ أجمع سراً معلومات من أجل وزارة الاستخبارات عن العلاقات التي تربط بين السيد محمد أبطحي وعلي رضا نوري زاده في لندن.

"هل سيستخدمونني؟"

قطّبَ ما بين حاجبيّه. "ماذا تعنين؟"

"أعني أنهم يخافونني. يقولون إنَّ الاستخبارات تسعى ورائي، وعملي في أية صحيفة يُعادل إغلاق أبوابها". كنتُ أكذب. لم أرغب في العودة إلى أيّ عمل من أعمالي السابقة. لم أرغب في التجسّس على أصدقائي. كنتُ أعلم أنَّ عليّ أنْ أبقى في الظل بعض الوقت، ولهذا قمت أثناء النهار بالإعداد مع فائزة لمساعدتها على إدارة رسالة إخبارية نسائية صغيرة غير حكومية، "**صبا**". كنتُ فيها الكاتبة الوحيدة، وكانت فائزة هي رئيس التحرير. كانت تتألّف فقط من أربع صفحات وأدنى من عملي السابق بقليل، لكنها أبعدتني عن مركز الأضواء وعن الناس الذين تهتم بهم وزارة الاستخبارات أكثر من غيرهم، ما عدا فائزة.

قلت لها، وأنا أضحك بعصبيّة، "فائزة، لقد عيّنوني لأتجسّس

عليك"، فأجابت بكل رقّة "أخبريهم عني أسوأ ما يمكن لمخيّلتك أنْ تبتكره من أشياء. أعلم أنَّ مشاكلهم هي معي، لا معك. لقد أقحموك في هذه المهمة لأنكِ صديقتي."

سرعان ما تحوّل البرنامج الموضوع بعناية للعمل لصالح الوزارة في معظمه إلى الخروج في نزهات رومانسية طويلة بالسيارة مع مُستجوبي. أحياناً كنا نبتعد كثيراً خارج طهران إلى أماكن نستطيع أنْ نجلس فيها معاً علناً. كنا نسافر إلى الشمال أو الشمال الشرقي لنزور دكاكين صغيرة لا يتوقف عندها إلا السيّاح وهم في طريقهم إلى بحر قزوين ولا مجال تقريباً لأنْ يتعرّف أحد إلينا. في أول الأمر، كان يكفينا أنْ نقضي ذلك الوقت نتحدث معاً، ونشرب اللبن الرائب في جادة أبي علي أو نرتاد مكاناً يقدم الشاي في لاويزان.

ثم بدأت مقابلاتنا تزداد أيضاً في "مكاتب أمن" مُستترة مختلفة حول مدينة طهران. لم أكن أغادر إلاّ مع هبوط الليل. فعندما تبدأ المحال التجارية تغلق أبوابها، أضع الغطاء على رأسي لأعود إلى المنزل. وكان غطاء رأسي أشدّ حلكة من الظلال المرتسمة على الجدران، وأنطلق متنقّلة من زاوية مظلمة إلى أخرى خلال شوارع هفت تير لأتيقّن من أنْ لا أحد يتبعني. فيقول لي "من الممكن أنْ تتبعك عملاء الاستخبارات!". كانت عيناه تمتلئان بالشوق والرغبة وهو يدلّني كيف أصل إلى موعدنا وكيف أغادر، ويطلب مني أنْ أبدِّل السيارات مرات عِدّة في أثناء ذلك، وأنْ أطرق دروباً مختلفة، وأنْ أخلع غطاء رأسي خَفية لئلا يتعرَّف إليّ أحد. كنتُ أشعر كأني قطة ضالة تجوس خلسة وأنا أتسلل في الليل.

زرنا استوديو لتصوير الأفلام في شارع كريم خان، ومكتب طبيب نسائي في شارع هفت تير، حيث يعمل صديق له طبيباً تحت التمرين. كان علينا أنْ نتوخى جانب الحذر لكي لا يرتاب أحد في أننا نفعل أي شيء آخر غير التحدث. كنا نجلس، نتحادث برفق، نُصغي لئلا يلج أحد الرواق. وفي إحدى المناسبات وجدتني مُصادفة وجهاً لوجه مع ابنه عندما جاء يسأل عن والده. حدث ذلك في مكتب طبي كنا نلجأ إليه. وفتح ابنه خطأً الباب، وتقابلت عيوننا.

عندما أصبحنا أكثر تقارباً، كنا أحياناً نفعل أكثر من مجرد الحديث. كان يضغطني عليه ثم يبتعد فجأةً إذا سمع أحداً قادماً. كنا نسترق بعض اللحظات الحميمة في تلك المكاتب العامة، مرعوبَين من أنْ نُفاجأ إذا أطلنا الصمت. لكنَّ تلك اللحظات القصيرة السرية لم تكن كافية أبداً. وكما كان قلبي يقفز في سجن التوحيد عندما أسمع وقع خُطاه قادمة على طول الرواق، ها أنا الآن أنتظر بقلق أنْ تصلني مكالماته الهاتفية من أجل تحديد موعد آخر. لكنه كان دائماً يطلب المزيد، و لم أكن أبداً متأكّدة إلى أي مدى أرغب في مُجاراته. وراح يزيد من طلباته، ويُبدي رغبته في ارتياد أماكن أكثر خصوصية...

***

تشرين الثاني عام 1999

"مَنْ هذان الطفلان؟ لا بد أنهما ابنك وابنتك". وقفتُ أمام صورة ذات إطار على الحائط تبيِّن فتى وفتاة. كنتُ كثيرة الضجيج، وأنا أجول في أرجاء منزل والديه. الفتاة الصغيرة كانت ترتدي ثوباً منتفخاً

ورديّ اللون جالسة على كرسي. والصبي الصغير كان واقفاً، يرتدي معطفاً وبنطلوناً وشعره قصير جداً. كان "آمري" قد أبدى رغبته في أخذي إلى منزل والدته ألف مرة، لأنَّه يحمل مفتاحه. ثم في يوم الجمعة ذاك، كان والداه قد ذهبا إلى مقبرة "جنة الزهراء" لزيارة أخيه، الذي كما أخبرني استُشهِد على الجبهة. ولم تكن قد سنحت له الفرصة قط لتحقيق رغبته في الجلوس والتملّي من النظر إليّ دون أنْ يزعجه أحد، ما دام يرغب في ذلك، وكأننا في منزله الخاص. أرادني كما لو أني زوجته.

قال لي ونحن نقترب من المبنى "أبقي رأسك منكّساً لكي لا تعرفي أين أنت". لكنني كنتُ أعلم بالضبط أين أنا. كنتُ قد تردّدتُ مرات عِدّة على ذلك الحي مع والدي. كنا قد أوقفنا سيارتنا هنا لنزور عمي في مركز عيادته كطبيب أسنان. كنتُ أضع يدي الصغيرة في يد والدي في أثناء اجتياز الشارع. كانت خطوات والدي واسعة وكانت خطواتي قصيرة، متلكئة خلفه ونحن نجتاز شارع سيباه العريض.

الآن والدي ليس برفقتي، وعليّ أنْ أجتاز الشارع وحدي. وعندما وقفنا أمام المنزل، قال "أبقي وجهك مغطّى. الجيران يسكنون هنا منذ زمن طويل، والجميع يعرفوننا. سأترك الباب مفتوحاً. ادخلي بعد دقيقة من الآن."

كان منزلاً كبيراً، قديماً. وكان هناك العديد من الأحذية في المدخل. ذكّرني قائلاً "يجب أنْ تنزعي حذاءك في منزلٍ يواظب أصحابه على أداء الصلوات". خلعتُ حذائي على ممسحة الباب وحملته معي. في المدخل عُلِّقتْ صورة لشاب يرتدي زي الحرس الثوري. "هذا أخوك

الشهيد". لم يُجِب. في غرفة الطعام، كما في غالبية منازل الإيرانيين، كانت الزخارف تغطي كل الأسطح - طاسات حُفِرت عليه صور عصافير، ورموز دينية معلّقة على الجدران، وقطعة قماش سوداء داخل إطار محفور بدقة. أشار إلى هذه الأخيرة وقال "هذه قطعة من كسوة الكعبة."

كنا نرتقي إلى الطابق العلوي عندما توقفت في الطريق إلى أعلى ونظرت إلى صورة طفليه. وتجرأت على سؤاله من جديد، "ما اسمك؟"

"كما هو دائماً. لا شيء... فارمانده!". لمعت عيناه من خلف حاجبين كثّين.

"حقاً، لا أعرف بما أناديك."

"انزعي غطاءك ودعيني أرى جمالك. اسمي أمير. ولن أقول أكثر من هذا"، ثم اقترب مني، أقرب مما ينبغي. أغمضتُ عينيّ. وحتى الآن، أستطيع أنْ أُغمض عينيّ وأرى أدقّ تفاصيل وجهه. كرهتُ نفسي لأني ضعيفة. وتساءلت لماذا لم أقتل نفسي. لماذا أرغب في العيش هكذا - كجرذ؟ حتى الآن لا أستطيع أنْ أُجيب عن هذا السؤال. أغمضتُ عينيّ وكررت اللازمة التي كنتُ أستخدمها عندما أمارس التأمّل في صباح كل يوم: "كامليا، أنتِ تحلمين... إنَّ ما يحدث لك ليس إلا حُلماً..."

بعد ذلك، لاحظتُ أنه يُصلي بصوت خافت وهو يرتدي قميصه. كان ينظر إليّ وأنا جالسة على السجادة السميكة. لم أتمكن من سماع صلاته، لكني رأيت شفتيه تتحركان، وأدركتُ أنها صلاة. ثم سألني، "أتريدين بعض الماء؟"، أومأت برأسي إيجاباً، وعاد يهبط الدَرَج

ليذهب إلى المطبخ. بدأتُ أتلفّت حولي في الطابق العلوي من المنزل فوجدت أنها غرفة أخرى رائعة، تُستخدم كما بدا جلياً لإقامة الحفلات وللمناسبات الخاصة. كل ركن كان مزيَّناً بأوعية وأطباق. ارتعشت. ماذا يُريد أيضاً أنْ يفعل بي في هذا المنزل الخالي؟ كم ساعة سيُبقيني هنا؟ حاولت أنْ أُخمّن كم من الوقت يستغرق من عائلته عادة أداء شعيرتها - ربما نصف يوم؟ تمنيت أنْ يسمح لي بالمغادرة قبل عودتها. ولكن لم أستطع أنْ أطلب منه، "أعدني إلى بيتي من فضلك". لم أستطع أنْ أدعه يلاحظ إحساسي بالامتعاض. مكثتُ عميقاً في جُحري بوصفي العشيقة المثالية، متظاهرة بأني أنا أيضاً لا أشبع منه. وانتظرت، وأنا أتلو صلاتي بصمت، طالبة من الله أنْ يعود مع الماء ويقول "حسن، ارتدي ملابسك وارحلي."

سمعت حركة مضطربة في الأسفل، وعاد يرتقي الدَرَج مسرعاً. "أين حذاؤك؟". كنت أحمله بيدي. قال وهو يئنّ "لقد عاد والداي. في الطريق شعرت أمي بأنها غير متيقّنة مما إذا كانت قد أطفأت الغاز أم لا. وبعدما قطعا منتصف المسافة قفلا عائدَين إلى المنزل". كان يرتجف. "يا إلهي، لقد ضاعت سمعتي. ارحمني، يا رب، أستغفر الله. اختبئي تحت الأريكة. ولا تُصدري أيّ صوت. إياك أنْ تتنفسي حتى أناديك."

كان قلبي يضرب بقوة حتى خُيِّل إليّ أنّ هديره يملأ الغرفة. هل سأُضطر إلى البقاء تحت الأريكة طوال النهار؟ أو يومين؟ وبينما أنا أستلقي هناك رحتُ أفكر في دروس الفرنسية التي كنتُ أتلقاها وفي جهود أمي وأبي كلها التي بذلاها لكي يُربّيا ابنةً لائقة، كفئاً وراقية. والآن إلى أين انتهى بي الأمر؟ تحت أريكة بنيّة اللون وضخمة في منزلٍ

يقعُ في آخر أحد أزقة طهران التاريخية الخلفية.

بعد مرور ما خُيِّل لي أنه أبدية، بل كان مجرد خمس دقائق، سمعتُ صوته. "اخرجي. أسرعي. ضعي غطاء رأسك. إنهما جالسان في الفناء. انزلي إلى أسفل ومنه إلى الخارج، وأطلقي ساقيك كالريح! اهبطي التلّ. سآتي إليك في غضون خمس عشرة دقيقة. ابتعدي قدر استطاعتك."

وقف على الدَرَج يُراقب. كنتُ أتصبّب عرقاً وأنا أركض، لكني شكرتُ الله لأني خرجتُ من هناك. وبعد مرور خمس عشرة دقيقة، اقتربت سيارته حتى أصبحت أمامي.

"كدنا نتعرض لفضيحة... بعد حياة مُحترمة، ورعة، اقتربت كثيراً من الدمار الكامل. شكراً لله". أخذَ نَفَساً عميقاً ونظر إليّ. "لماذا أحببتكِ؟". كنتُ أعرفُ الجواب، لكني اكتفيتُ برسم ابتسامة فاتنة.

* * *

بعد الكثير من التملّق، وافق أمير على أن أحصل على صلاحية أوسع للتجسّس لمصلحة الوزارة خارج حدود البلد. وافق على السماح لي بالسفر إلى لندن ومن هناك إلى أميركا. ويف المقابل، وعدته بأنْ أحصّل أشرطة حواري مع رضا بهلوي، وأنْ أجمع معلومات عن منوشهر محمدي، وأعرف الصِلات التي تربط بين نوري زاده وأبطحي.

"كيف ستحصلين على تأشيرة للذهاب إلى أميركا؟"

"أصدقائي في الجامعة في أميركا سيتدبّرون الأمر، لا تقلق". وطمأنته. في الحقيقة، كنتُ قد نويت أنْ أتصل بجين من لندن، وهي ستساعدني على تأمين أمر التأشيرة.

قبل أنْ يسمح لي بالسفر إلى أميركا، أمر أمير أمي وأنا بالعودة إلى المبنى الرئاسي في شارع الأردن لكي تُسلِّم جواز سفرها وسند ملكية سيارتها. وعندئذٍ فقط استعدتُ جواز سفري الذي كان قد صودر عند إلقاء القبض عليّ. وكنت قد خرجت من السجن بسند مقداره 13 مليون تومان (حوالى 13000$). وكان صك ملكية شقة أمي قد وُضِع تحت وصاية المحكمة الثورية بدل كفالة (كان يساوي حوالى عشر ملايين وكانت قد دفعت نقداً لكي تُكمل الباقي). وبالمقارنة مع السجناء الآخرين الذين أُطلقَ سراحهم، لم تكن التكاليف كثيرة - وكان أمير قد اهتمّ بكل شيء لكي يُخرِجني بسهولة وسرعة نسبيين.

في أثناء انتظاره معي في مطار مهر آباد، وجَّه إليّ تحذيراً أخيراً: "تذكّري أنَّ عائلتك موجودة هنا. تذكّري أنكِ إذا خنتِ ثقتي بك، فسوف أفعل شيئاً لن تنسيه ما دمتِ حيّة. ستغيبين فقط عشرة أيام."

* * *

كانون الأول عام 1999

في نيويورك، كان الناس يمرّون بي بحرية، فلماذا لم أشعر بأني حرّة؟ ثم سافرت إلى واشنطن دي سي لكي أُخبر رضا بهلوي بالحقيقة، أخبره بأني رأيت منوشهر محمدي في سجن التوحيد وأنني الآن مُضطرة إلى التجسّس عليه. تكلّمتُ بصراحة شديدة إلى درجة أني لا أعلم إنْ كان قد صدقَّ ما قلت. ورفض العديد من أصدقائي الإيرانيين الذين تعرّفت إليهم خلال رحلتي الأولى إلى نيويورك أنْ يتحدثوا معي بسبب شائعات روّجتها غولريز في أثناء وجودي في السجن. تناهى

إلى سمعي أنها ادّعتْ أنني لم أذهب قطّ إلى سجن التوحيد - أنَّ كل شيء كان خُدعة، وأنها لم تتخلَّ عني بل هربت بدورها من فخ نُصِبَ لها. لقد ظنّتْ أني ذهبتُ لأسترخي على شاطئ بحر قزوين علىً مدى ثلاثة أشهر. وجعلتني خيانتها لي أغلي من فرط الغضب. ولكن يبدو أنَّ ثرثرتها قد تنبّأتْ بمصيري. ففي هذه الرحلة، وافقتُ على المجيء إلى نيويورك لكي أتجسّس لمصلحة وزارة الاستخبارات. ولكن لم أكنْ أنوي أنْ أنقل لأمير أية معلومات مفيدة - لم أكنْ أرى نفسي جاسوسة أبداً. لقد وافقتُ فقط من أجل الخروج من السجن ومن إيران. والآن لم أكن أعلم كيف أبدأ بالدفاع عن نفسي وأُصحّح سجلّي. لم أكنْ أتحلّى بالشجاعة للانفتاح والاعتراف بعلاقتي العاطفية. شعرتُ بأني وحيدة مع حقيقة لن يتقبّلها أحد، وغصت في حالة من الكآبة الشديدة. كيف يمكنني أنْ أخبر أيّ شخص عن الإذلال، والمهانة، والمعاناة التي عانيت لأستعيد حريتي؟

كانت جين، واحدة من الأصدقاء القلائل الباقين، مصدر عزاء كبير لي. "لا تعودي - يجب أنْ تبقى هنا في أميركا. سوف يقتلونك في طهران" قالت هذا وهي تُحيطني بذراعها، "لقد قلقتُ كثيراً عليك."

قلت لها "لستُ مستعدة للمكوث هنا. ينبغي أنْ أتيقّن من أنَّ عائلتي في أمان". وتذكرتُ تحذير أمير لي وانتابني الخوف على أمي وأختي. وبدأتُ أفكر في أنني إذا رجعت إلى الوطن، فقد تحدث معجزة ويتّضح أنَّ الوضع مع أمير ليس خطراً كما أتخيَّل. كنتُ حانقة من العالم أجمع. واصطخبت مئة فكرة في رأسي - ولم يكن أمامي إلا عشرة أيام لأقرر.

عشية الألفيّة الجديدة، وقفتُ في ساحة تايمز أهلّل مع ملايين الناس

المحيطين بي، وأنا أشهد نهاية ألف عام. قلت لصديقي الواقف على جواري "لطالما وددتُ لو أكون هنا في نيويورك لأحتفل بالألفية... لطالما. وها أنا ذي". ولكن وسط هذا الحلم الذي تحقّق، عدتُ أدراجي إلى الحب المُضني الذي تملكني، الدور التمثيلي الذي أقنعتُ نفسي بلعبه، والأحلام كلها التي خلّفتها ورائي.

ورجعتُ إلى إيران. رجعتُ إلى مُنقذي. لا أعلم كيف كانت حالتي الذهنية – كنتُ معاً عاشقة ولستُ عاشقة. هذه ازدواجية كانت تستهلكني من الداخل. كنتُ أقول لعائلتي وصديقاتي إني على ما يُرام، وإني في حالة طبيعية، لكني لم أكن على ما يرام ولا في حالة طبيعية. كان الخوف يستنفدني. أستيقظ في الليل وأعاني من التشنج، وعضلات ساقيّ مشدودة، وأكاد أُجن من فرط الألم. وفي اليوم التالي أمشي وأنا أعرج، وعندما يسألني أحدهم عن حالي، أكتفي بالقول إني على ما يرام.

كانون الثاني عام 2000

في طهران تقابلنا من جديد للمرة الأولى في مكتب نادي الأدب الإبداعي، في أثناء إعداد تقريري. ابتهج لعودتي. "يبدو أنكِ تُبت حقاً". وتحدثنا على مدى ما بدا أنها ساعات طوال. ولكن لم يكن لديّ الكثير لأُفضي به. أخبرته أنَّ غولريز قد دمّرت سمعتي تماماً. وأخبرته أني ذهبتُ إلى واشنطن، دي سي، لأتحدث مع رضا بهلوي وأنه حتماً لم يُعطِ منوشهر محمدي أيّ مبلغ من المال. ثم وضعت أشرطة حديثي مع رضا على طاولة المكتب.

هنا بدأ يُصبح فظاً "لا شيء؟ أنتِ بهذا لم تمدّيني بأية معلومة؟ أهذا ما عنيتِ عندما وعدتني بأنك يمكن أنْ تكوني جاسوسة عظيمة في أميركا؟ كان يمكن أنْ تنجزي هذا في إيران."

في الحقيقة، لم يعد في مقدوري أنْ أقوم بهذا العمل بعد ذلك. كنتُ أعلم أني لا أرغب في العمل لأجله - لماذا رجعتُ أصلاً؟ لقد أردتُ أنْ أعيش، وأردتُ أنْ أعود إلى عملي الحقيقي، إلى حياتي كصحافية.

في أثناء غيابي، كان دائماً يُسافر. ذهب مع عائلته إلى كربلاء في العراق لكي يزور الأضرحة، ضمن واحدة من المجموعات من الحجيج الشيعة التي تشكّلت بعد الحرب. وأحضر لي تذكارات، خاتماً فضياً وقطعة قماش خضراء اللون، قال إنها مُقتطعة من الكفن المقدّس. قطعة القماش لم تكن أكبر من حجم راحة اليد. "هذا الخاتم نسخة طبق الأصل عن ذاك الذي جلبته لزوجتي. أعتقد أني يجب أنْ أذهب قريباً وأدق باب منزل أمك لأطلب يدك منها. هناك حالات كثيرة تزوّجت فيها مُجاهدات تائبات من إخوة عزاب كانوا يستجوبوهن. ولكن ماذا سنفعل هذه المرة إذا كان الأخ الذي أحبّ وديعته متزوجاً ولديه أطفال؟"

أما أنا فلم أعد أحبه. كائناً ما كان ما فعلت - سواء أكان خداعاً للنفس أم دفاعاً عن النفس، أم تأملاً أم أداء دور تمثيليّ - كائناً ما كان ما قلت لنفسي **لأشعر** حقاً بأني عاشقة، فقد انتهى. انتهى حالما أعلن ربّان الطائرة أننا وصلنا إلى التراب الإيراني. في تلك اللحظة تحطمْتُ. غيّرت رأيي، وذُهلتُ من مدى سذاجتي بعودتي وركوب هذه المجازفة. لماذا رجعت؟ لأكون خليلة رجل نكرة، غامض، لا يمكن التعرّف إليه؟

لأختبئ تحت غطاء رأس أسود، وأتسلل خفية خلال أزقة طهران الخلفية. لقد تفتّحت عيناي أخيراً، ولكن بعد فوات الأوان. فحينئذ كانت الطائرة تحوم فوق مطار مهر آباد. في لحظة الصفاء تلك، وعدتُ نفسي بأنْ أضع خطة مُحكمة لأغادر. لقد اختفى الحب الذي شعرت به كجلاء الضباب عن وجه الشمس. إلى أين كنتُ ذاهبة مع هذا الرجل؟

أما هو فكان لا يزال عاشقاً، وعلى الرغم من أني لم أعُد كذلك، كنتُ لا أزال عشيقته. أطلق عليّ صفة وردته الفارسية المُنمنمة... وظل يسألني، "هل سئمتِ هذا العمل؟"، ويعدني بأنني إذا سئمت العمل أو سئمته هو، يمكنني ببساطة أنْ أخبره وسوف يُطلق سراحي، ولن يؤذيني أحد. لم أكن غبية. لم أكنْ أنوي أنْ أقول "نعم، لقد سئمت هذا. من فضلك دعني أعد إلى حياتي، **حفظك الله!**". لكني كنتُ شديدة الاكتئاب، ولم يكن في وسعه أنْ يُدرك ذلك. كرهتُ أنْ أكون بعيدة عن عملي صحافية وبدل ذلك ها أنا أُحرِّر تقارير يومية لأجله لا تحتوي أيّ شيء، بتفاصيل مملّة هي أقلّ من أكاذيب: " ذهبت إلى مقهى على بحر قزوين مع فائزة وابنتها وابنها، وتحدثنا عن الرياضة وعن إسهاماتي في نشرة "صبا". فيهزّ رأسه استنكاراً ويقول، "أيّ نوع من الجواسيس أنت؟"

نيسان عام 2000

عثر على شقة خالية في سعادت آباد وأقنع السمسار بإعطائه المفتاح. وأخبرني بأنه يُخطط لعرض الشقة على زوجته. ربما كان سيفعل ذلك، لكنه اصطحبني إلى هناك بضع مرات. وكان قد فرش قطعة من الورق

المقوّى على الأرض العارية. أذكر أننا أمضينا صباح عاشوراء في تلك الشقة، اليوم المقدّس الذي يحزن فيه الشيعة على استشهاد الإمام الثالث، الحسين، بطل كربلاء. وكانت أمي قد طلبت مني أنْ أرافقها إلى جمران من أجل الاحتفال بعاشوراء، لكنني قلت لها، "لديّ عمل هام يجب أنْ أؤديه، وسأنضمّ إليك لاحقاً. سأكون هناك بحلول الظهيرة."

أقلّني أمير في وقت مبكّر، غير بعيد عن منزلنا. كان الصمت يرين على شوارع طهران. الجميع في المساجد أو الحسينيات، يلطمون صدورهم حزناً على الحسين. وقد جرتْ العادة التقليدية أنْ يُعدّ الأتقياء وجبات من الطعام يتقاسمونها مع الجماهير نذوراً للإمام. يقف الناس خارج أبواب منازلهم ويدعون المارة إلى الدخول، ويقف الحزانى صفاً واحداً حاملين قدوراً مملوءة بالطعام إلى عائلاتهم. وأثناء مرورنا بالسيارة، وجدتُ أنه يضع في المقعد الخلفي وعاءين للطبخ. يبدو أنه أخبر زوجته أنه خارج ليجلب الطعام للعائلة، لكنه بدل ذلك كان متوجهاً إلى سعادت آباد لقضاء العيد الوطني معي. وأخذ يضحك ضحكاً مكبوتاً كطفل يفلت من عقاب ما ثم قال بصوت جدّي، "ماذا سأفعل بك؟ هذه هي المرة الأولى في حياتي التي لا أذهب فيها إلى مسجد السوق للاحتفال بعاشوراء. فليسامحني الله. أنت شيطان."

ابتسمتُ بعذوبة، ولكن في داخلي كنت أشعر بالذنب. لقد أفلتت اللعبة من بين يديّ. كيف أخبره بأنني بعد أنْ أمضي تلك الأوقات معه أقف تحت الدش، أبكي وأغتسل مئة مرة، أسأل الله لماذا جعل هذا مصيري؟ وأثناء توجّهنا إلى المطعم شعرتُ برغبة في التقيّؤ. لم أجرؤ على التفوّه بكلمة. وبهدوء، تبعته وارتقينا الدَرَج إلى الطابق الثالث...

عندما أنزلني في ميدان تجريش كان الوقت قد اقترب من الظهيرة، ومن هناك استقللت سيارة أجرة إلى جمران. كانت جدّتي قد توفيت في ربيع عام 1997، لكنَّ عائلة أمي ظلّتْ تجتمع في منزلها القديم والجميل الكائن أمام حُسينيّة جمران في أثناء الاحتفال بعاشوراء وتاسوعاء، يراقبون الضاربين على صدورهم من الفناء. وكانت تلك المرة الأولى التي أرى فيها المزيد من أقربائنا البعيدين منذ أنْ غادرت السجن. وعلى الرغم من أنه كانت قد مرّت ستة أشهر على ذلك، أخذوا يتفحّصونني وكأني خرجت فقط بالأمس القريب. كان تحديقهم وأسئلتهم تبدو أشدّ وطأة على التحمّل بما أني كنتُ قد عدتُ تواً من لقائي بأمير. "يا إلهي، كم تغيّرت! وجهك يبدو منتفخاً قليلاً – هل ضربوك؟" هكذا يسألون. وتنظر إحداهن إلى تعبير وجهي وتهمس في أُذني، "هل فعلوا معك شيئاً.. مُشيناً؟". وأخبرت أرملة خالي علي، إيران–دُخت، الجميع أنْ يدعوني وشأني. ومشت معي حتى المسجد وقالت "اطلبي من الإمام أنْ يمنحك الطمأنينة. صلّي لكي تكوني سعيدة وحرّة."

لم أعُد أرغب في أنْ أتصرّف كمسلمة صالحة بالنسبة إلى أمير. بل لقد طلب مني أنْ أرفض دعوةً لي لحضور عرس نسيبتي إلهام لأنه مُختَلَط، يحضره رجالٌ ونساء. لم أتصور أنْ أفوّتْ حضور عرس نسيبتي – ماذا ستقول والدتي! فكذبت عليه، وأخبرته أنَّ عمتي أويد، أمّ العروس، قرّرت أنْ تفصل الرجال عن النساء في حفل العرس. ورقصت على موسيقى الفرقة التي ظلت تعزف طوال الليل، رقصتُ بحماسة شديدة إلى درجة أنه بحلول الساعة الثانية صباحاً، وفي طريق عودتنا، أنا وأمي وكاي خُسرو، اضطررتُ إلى خلع حذائي ذي الكعب العالي لأمشي

حافية القدمين من مكان توقف السيارة إلى الباب الأمامي. وفي اليوم التالي قابلتُ أمير، واضطربت معدتي عندما سألني عن الحفل. لكنني أجبت بهدوء "كانت عادية جداً - مجرد عرس تقليدي، هادئ". شعرت بالغثيان - يجب أنْ أكفّ عن الكذب، حتى وإنْ كان ذلك يعني نهاية حياتي. فأنا لم أعُد صحافية. أنا نكرة.

لم أُخبر عائلتي أبداً عن علاقتي العاطفية. حتى الآن، لم أُخبر أمي وأختي التفاصيل كلها. ولكن على الرغم من المجازفة، قررتُ أنْ أبحث عن نصيحة شخص موثوق من خارج نطاق العائلة. وكان قوروش أحد أصحاب النفوذ الذين عرفتهم على مدى سنوات. زرته في مكتبه، فقال لي "ارحلي، يا كامليا، لا تمكثي هنا دقيقة واحدة أخرى. أنتِ تعبثين بالنار. فبعد أنْ يشبع منك، بعد أنْ يستفيق من تأثيرك عليه - أو إذا رفضته بصورة ما - فسوف تختفين بكل بساطة. سوف يقتلونك ليحموا هذا السرّ. لن يُكلّفهم الأمر أكثر من حادث سيارة، أو قد يجعلونه يبدو عملية انتحار. فكري في الأمر. تقولين إنه قال إنه وقَّع بنفسه على تصاريح بالموت لفتيات شابات في السجن قبل إلقاء القبض عليك بوقت قصير. لعله كان "متقاعداً" طوال عشرة أعوام، لكنّ أمثاله من الناس لا يتغيّرون كثيراً خلال عقد من الزمن. وفي هذه الأيام، هو ليس في حاجة إلى أنْ يُرسلك إلى فرقة الإعدام. من السهل قتل أيّ إنسان. جدي طريقة للرحيل في أقرب وقت ممكن - ليس من مصلحتك أنْ تستمري في ممارسة هذه اللعبة حتى النهاية."

* * *

ذات مرة قلت له "أنت تُدرِّس في الجامعة. أعلم هذا". فنظر أمير إليّ بفضول.

"كيف عرفتِ؟ لعلك كنتِ تتبعينني بدل أنْ أتبعك! كيف خمَّنتِ؟"

"كنتُ أعلم. كنتُ أعلم منذ وقت طويل. من الملابس التي كنتَ ترتديها في السجن ومن المناقشات الفلسفية البارعة التي خضنا فيها. بل يمكنني أنْ أخمّن اختصاصك!"

"يكفي هذا! يكفي هذا. الفضول ينتهي عند هذا الحد. صدقيني، أنتِ أغرب قضية عملتُ عليها."

لقد اتّضحت لي أشياء كثيرة، اتَّضح لي أنه يتمتع بمكانة عالية في الوزارة، مُستشار خاص، وأنه كان رئيس المُحققين في قضيتي. اتَّضح لي أنَّ زوجته وحدها كانت تعلم أنه يعمل لمصلحة الوزارة. أما بالنسبة إلى باقي أفراد عائلته فكان فقط أكاديمياً. واكتشفتُ أيضاً أنَّ الوزارة أرادتْ أنْ تتخلّص نهائياً من الصحافة والمثقفين الإصلاحيين - وأن لا مستقبل لي في إيران. وبمساعدة قوروش، أدركتُ أنَّ عليَّ أنْ أُنهي علاقتي بأمير قبل أنْ ينتهي بي الأمر بالموت، ملفوفة داخل حقيبة من البلاستيك على جانب الطريق أو مشنوقة وفي يدي رسالة مُلفَّقة.

عثرت والدتي على مُهرّبين مستعدين لمساعدتي على عبور الحدود مقابل أربعة ملايين تومان (حوالى 4000$). لكنَّ اجتياز الحدود كان عملاً خطراً - كنتُ أعلم ماذا سيحدث إذا قبضوا عليّ حيّة. طلبتُ

من أمي أنْ تصبر قليلاً. قلت لأمير، "لقد دُعيتُ إلى مؤتمر في نيويورك. يريدون مني أنْ أشترك في برنامج في أميركا". وكان ذلك صحيحاً. كنتُ قد أرسلتُ طلبي عندما كنتُ لا أزال أعمل في صحيفة "زن" لأحضر جلسة خاصة للجمعية العمومية في الأمم المتحدة في نيويورك، "بكين5+"، وكانت الدعوة قد وصلتني استجابة لذلك الطلب، على الرغم من أنَّه لم يعُد لصحيفة "زن" وجود. اتصل مكتب فائزة بالمؤتمر وطلب منهم أنْ يُغيِّروا جهة إرسال الدعوة إلى "صبا"، النشرة الإخبارية التي أصدرتها، لكي يبقى في إمكاني أنْ أنضم إلى المجموعة الممثلة لإيران.

"ها!". نظر إليّ غير مُصدِّق. "إنَّ المرة الوحيدة التي سمحتُ لك فيها بأن تسافري كانت خطأً. لن يكون هناك أيّ سفر بعد الآن. أنتِ في حاجة إلى أنْ تعملي هنا". لكني قمتُ عبر أصدقاء لقوروش بشراء بطاقات سفر بالطائرة وقررتُ من جديد أنْ أتصل بجين خلال فترة التوقف في لندن لكي تدبّر لي تأشيرة. وعندما غادرتُ نيويورك آخر مرة، كانت قد وعدتْ أنْ تساعدني كلما احتجتُ إليها. وأخذت أزنّ على أُذن أمير. "إنه برنامج في غاية الأهمية ويمكن أنْ يكون مفيداً جداً لنا. أتعلم أنَّ حفيدة آية الله الخميني زهرة إشراقي خاتمي ذاهبة أيضاً؟". هذه المعلومة حرّكته. كانت وحدها مُثيرة للريبة لأنها حفيدة آية الله الخميني، بالإضافة إلى أنها كانت حينئذٍ زوجة شقيق الرئيس خاتمي. ومما لا شك فيه أنه كان يهمّ وزارة الاستخبارات أنْ تقتفي أثرها.

كان صعباً عليَّ أنْ أنقل إلى عائلتي نبأ رحيلي. كنتُ قد نجوت في إيران منذ اليوم الذي رحل فيه الشاه وسط جحيم محاكمات الثورة

وتبعاتها كلها. وها أنا الآن، أفرّ هاربة تحت التهديد بالموت. كان كل ما في وسعهم أنْ يفعلوه هو أنْ يجلسوا ويصلّوا. ولو لم يستسلم أمير، لما سنحت لي فرصة أخرى لمغادرة البلد بطريقة شرعية. وطبعاً علمت أمي أنَّ ثمة خطباً. وكيف لا تفعل؟ لقد كنتُ أغادر المنزل في كل يوم وفي حقيبة يدي غطاء رأسي الأسود، وأقول لها "ما زال أمامي المزيد من الحوارات مع الوزارة والمحاكم."

فتقول "بطني يضطرب من شدة التوتر. اتصلي بي إذا اضطررتِ إلى البقاء حتى وقت متأخّر. أرجوك اتصلي بي، أينما كنت."

ويتفحّصني أمير بريبة عندما أغادر الغرفة لكي أتصل بوالدتي عند الساعة الحادية عشرة، ويسأل "ماذا قلتِ لها؟ أين قلتِ إنكِ موجودة؟"

"مع فائزة". كانت أمي تعلم أنَّ خط الهاتف قد يكون مُراقَباً. فتقول، بصوت مشدود، "شكراً لاتصالك، سلّمي على صديقتك". أنا متأكّدة من أنها كانت تعلم أنني لست مع فائزة. ومهما تأخّرت في العودة إلى المنزل، أجدها واقفة في المطبخ المظلم، تراقب من النافذة لحمايتي. وتقول لي، "كائناً ما كان ما تفعلين، فكّري في أبوك. افعلي ما كان جديراً به أنْ يوافق عليه، لو أنه ما زال حياً."

أيار عام 2000

ثم حدث الأمر. قال لي أمير، "لقد تمّت الموافقة على سفرك". وأقنعته بأنَّ عليّ أنْ أسافر في الحال. كنتُ أعلم أني لن أعود. وفي غرفتي في المنزل، ألقيت نظرةً أخيرة حولي إلى الأشياء التي أحببتها كلها. نظرتُ إلى سريري، أفكّر كيف أني لن أنام هناك بعد الآن؛ وأطللتُ من النافذة

على فناء الجيران وحديقة الورد الجميلة، كم من فصول صيف أمضيتها جالسة هنا في غرفتي أتفرّج عليها؛ وإلى ملابس والدي التي ما زالت مُعلَّقة في خزانتي. كنتُ أحتفظ بأحد معاطفه وأحد قمصانه إحياءً لذكراه. نظرت إلى الصور الفوتوغرافية داخل أُطُرها على جداري وإلى لوحاتي المائية التي لم أُكملها. وحزمتُ حقيبة صغيرة جداً، لأنَّ الحقيبة الكبيرة يمكن أنْ تُثير ارتياب أمير.

كان في انتظاري في المطار. تناولت كيس البلاستيك الذي أحضره لأجلي مع بعض الهدايا، وعندما نظرت داخله وجدتُ أنه أهداني فستقاً ملفوفاً في علبة صغيرة من قصب البامبو على شكل قلب. وتيقّنت من أنه لا يزال عاشقاً. وكان هناك أيضاً مغلف في داخله مئتا دولار – ما يُعادل قيمة راتب شهر في إيران. قال "إنه مبلغ صغير جداً، ولكن اشتري به شيئاً لنفسك". أعطى جواز سفري لمكتب الهجرة للتصديق عليه، وعندما عاد، سألني " ماذا تقولين إذا أخبرتك أنه لا يمكنك أنْ تذهبي؟ "

"لا شيء. سوف أخرج معك من هذا المكان". كان جسمي منقوعاً بالعَرق.

"اذهبي. اذهبي. يا حمامتي الزاجلة. أينما ذهبتِ، فستعودين إليّ."

كان هناك اثنان من الحرس الثوري واقفين بجوار الطائرة. كادت ساقاي لا تقويان على حملي. مَنْ هما؟ هل يعلمان ما أنوي فعله؟ هل سيقبضان عليّ؟ كانت أمي هناك لتودّعني – كانت شاحبة كغطاء أبيض. كانت تحمل مسبحة بيدها وتقلّب حباتها بإبهامها وتصلي بينها

وبين نفسها. همست في أُذني، "اذهبي، ولا تنظري خلفك. اذهبي، واخرجي من هذا الجحيم. اذهبي، وكوني حرّة. انطلقي، يا ابنتي. طيري."

على متن الخطوط الجوية البريطانية، غطّيتُ عينيّ إلى أنْ أعلن الربّان أننا اجتزنا الحدود. عندئذٍ نزعتُ غطاء رأسي.

الخاتمة

"جلبتُ نجمة لأجلك"

لم أرجع إلى إيران. انتهى فصل الربيع، وحلّ فصل الصيف. وبطريقة ما حصل أمير على رقم هاتفي وأخذ يترك لي رسائل جعلتْ شعر رأسي يقف. بالفارسية والإنكليزية، تارة يُهدّد، ومرات بنبرة ناعمة، رقيقة. والجواب الوحيد الذي حصل عليه كان الصمت. ثم بدأتْ الرسائل الإلكترونية تتوافد.

كتب يقول إنَّ حياتي وحياة أفراد عائلتي في خطر. ووعد بأنْ يُلاحقني، حتى وأنا في أميركا. ثم قال إنني حرّة في البقاء في الولايات المتحدة فقط إذا بقيتُ على اتصال به بانتظام. وذات مرة سألني إنْ كنتُ في صحة جيدة، إذا كنتُ في حاجة إلى أيّ شيء يستطيع أنْ يوفّره لي. وفي مرة تالية أراد أنْ يعرف إنْ كنتُ أرغب في العودة إلى طهران لزيارة عائلتي في عيد النوروز، وأنَّ في استطاعته أنْ يُعِدّ لتلك الزيارة دون أنْ تقع أية مشاكل – يكفيني أنْ أتصل به. وبدأوا يستدعون أمي

إلى المحكمة ويُهدّدونها. ألا ينبغي أنْ أعود إلى طهران؟ متى ينتهي التمثيل؟ أين ستنتهي قصتي؟

في شهر أيلول من عام 2000، وفي أثناء جلسة الجمعية العمومية في الأمم المتحدة، انتظرتُ في بهو الفندق حيث ينزل الوفد الإيراني. كان هناك شخص واحد لا بد لي من أنْ أحكي حكايتي له. كان يجب أنْ أتحدث مع السيد خاتمي. تلفّتُ حولي، محاولة أنْ أعثر على الشخص القادر أكثر من غيره على مساعدتي في الإعداد لإجراء لقاء رئاسيّ. وظهر رجلٌ مهيب، مرح في البهو، تعرّفتُ إليه من صورته التي ظهرت في الصحف. إنه السيّد محمد أبطحي، رئيس الوفد (أصبح لاحقاً نائب رئيس جمهورية إيران). كانت ابتسامة عريضة ترتسم على وجهه، وعيناه تلمعان كرخام مصقول. جلسنا جنباً إلى جنب على أريكة في البهو. كنتُ أثقُ به، وبكيتُ وأنا أخبره قصتي الكاملة، مع تفاصيل الأيام والشهور الطويلة لأزمتي وقلقي.

"سأساعدك لتقابلي الرئيس خاتمي. إنني في غاية الأسف على كل ما حدث لك."

وذات يوم كان على خاتمي أنْ يطير عائداً إلى إيران، مباشرة قبل أنْ يرافقوه ليشاهد تمثال الحرية، وكان مُقرراً أنْ يستقبلني في جناحه الخاص. بقيَ خاتمي مُطرقاً في أثناء كلامي، ولم يرفع بصره وتتقابل عيوننا إلا لماماً. لم يكن سهلاً عليه أنْ يُصغي إلى ما كان عليّ أنْ أخبره به. وطفقتُ أبكي بحرقة حتى عجزتُ عن متابعة الكلام.

"لا تبكي، يا بنيتي. إنَّ الله نصير المظلومين. سوف أضع قضيتك بين يديْ السيد أبطحي. ابقي على اتصال بنا."

أراحني كثيراً الإفضاء بمكنونات قلبي في ذلك الاجتماع الخاص. ووجدتُ في عملي الصحافي قوة متجدّدة وشجّعني ذلك على تغطية رحلات خاتمي والعلاقات الإيرانية مع الخارج، غالباً لمصلحة وكالة الأسوشيتد برس وصحيفة "**فيليج فويس**" في نيويورك. والمرة التالية التي قابلتُ فيها أبطحي شخصياً كانت في قمة أوبيك في كاراكاس، حيث أخبرني أنه عقد لقاءات عِدّة مع وزير الاستخبارات، السيد علي يونسي، وأنَّ خاتمي طلب استرجاع ملفاتي كلها من القضاء.

خلال عملي في أسوشيتد برس، قمت برحلات إلى أرجاء الشرق الأوسط كله. واستمر خاتمي في معاملتي بلطفٍ خاص، وفزت بامتياز عقد لقاء صحافي معه في قمة زعماء العالم الإسلامي في قطر. وكم أثلج صدري عندما خاطبني السيد خاتمي شخصياً باسمي وسألني عن سير عملي أمام مئات الشخصيات. وسافرت بحرية من قطر إلى السعودية ومن السعودية إلى مصر ومن مصر إلى الإمارات العربية المتحدة. لكني أبداً لم أرجع إلى إيران. كنتُ أُرسل ترجمات لمقالاتي عبر موقع إيراني على الإنترنت لأتقاسم حريتي مع أولئك الذين لا يزالون يعملون تحت وطأة الرقابة والخوف.

أخيراً أبلغني السيد أبطحي قائلاً "لقد أضاعت السلطات القضائية ملفاتك". يبدو أنَّ وزارة الاستخبارات انزعجت لأنَّ خاتمي كان يُحقق في قضيتي. وكان قد قدَّمَ إليّ أقصى ما يستطيع من مساعدة، ولكني صُعِقت من إدراكي من جديد مدى اتساع سلطة خاتمي.

في قطر، اقتربتُ من السيد خاتمي أثناء مغادرته الفندق الذي ينزل

فيه، وقلت "حفظك الله، سيد خاتمي"، فابتسم وقال "تعالي، هيا بنا نذهب معاً إلى طهران."

"إذا أعطيتني رسالة تضمن حمايتي..."

أجاب، "لا أدري إنْ كان في استطاعة أحد أنْ يحمي أياً منا عندما نعود إلى طهران."

وقفتُ عند مدخل الفندق وراقبت خاتمي يمشي مبتعداً، بينما أعضاء الوفد الذي جاء معه يحفّون بي مارين. وتوقف رجل دين آخر، يُدعى السيد دعائي، وقال لي "ادعي لنا وأيضاً للسيد خاتمي."

* * *

وهكذا قادتني الهجرة والمنفى الاختياري بصورة غير متوقّعة إلى الحياة التي طالما أردت، ملؤها الحرية، والأمان والفُرص الصحافية. في السجن، كنتُ قد بدأتُ عملية تحوُّل، وها هي شرنقتي قد بدأتْ تنفتح. لم يكن أمراً سهلاً، لكنني فرشتُ جناحيّ ببطء. وساعدتني جين في استخراج التأشيرة وشجّعتني على تقديم طلب حق اللجوء السياسي. وساعدني أصدقاء آخرون جُدُد على إيجاد مكان للسكنى وأعمال كتابية حرة.

ظل ينتابني على مدى عام كابوس واحد، أرى نفسي فيه من جديد على متن الطائرة على مدرج مطار مهر آباد، عائدة إلى طهران. وأُدرك فجأة أني لست عائدة إلى منزلي وعائلتي بل إلى أمير. وتخيّلته يُعذّبني حتى الموت، فأتوسّل إلى طاقم الخطوط الجوية البريطانية أنْ يدعني أبقى داخل الطائرة. ثم يتلاشى الكابوس عندما

أركّز انتباهي بالكامل على متابعة دراساتي.

لم يتمكن أيٌّ من أفراد عائلتي من حضور مراسم تخرّجي، ما عدا بضعة أصدقاء. لكني كنتُ أعلم أنَّ في استطاعة والدي أن يراني وأنا أتقدَّم لأتسلّم شهادتي، تماماً كما رآني وأنا أختبئ تحت الأريكة في منزل رجل غريب وكل ما بقي من تلك اللعبة الخطرة، وأنه بات في وسعه الآن أخيراً أنْ يجد السكينة في قبره.

آخر رسالة إلكترونية من أمير وصلتني في ربيع عام 2004. لا أدري إنْ كان لا يزال يحتفظ بعمله ورتبته أو ما إذا كان قد طُرِد. لعلّ قلبه ما زال مُفعماً بالحقد. لعلّ صمتي على مدى ست سنوات قاده إلى الإيمان بأني لن أروي هذه القصة أبداً. لكني أعلم أنه سيبقى يتذكّر، حتى آخر لحظة في حياته، يديَّ. اليدان اللتان حدّثتاه عن الحب. اليد التي حملها بين يديه في أحد تلك الأيام ونحن ننطلق بالسيارة بلا هدى في أرجاء طهران. اليد التي وضعها على ذراع تبديل السرعة وغطاها بقبضته الحارة وقال، "أنت لا تعلمين أية يدين استثنائيتين لديك. إنني عاشقٌ ليديك."

* * *

ربيع عام 2001

كانت ابنة أختي، ياسبانو، التي بلغت الآن أربع سنوات، تقبض بيديها بإحكام على هدية لي. كنا في دبيّ، وكانت تلك المرة الأولى التي أُقابل فيها عائلتي بعد مرور عامٍ كامل، الأولى وأنا في منفاي. كانت قد كبرت كثيراً.

سألتُ ياسبانو، "ما هذه، أيتها الصغيرة؟ افتحي يديك لكي أراها."

قالت أختي "إنها نجمة. لقد جلبت لكِ نجمة زرقاء."

كانت قطعة من الورق الأزرق شُكِّلَت بطريقة مضحكة. قالت كاتايون، "إنها تشبه النجمة. لقد لوّنتها وقصّتها بنفسها لأجلك."

كانت ياسبانو تنتظر بلهفة ردّة فعلي، ووجهها المرفوع نحوي يتوق إلى الاستحسان. فقبّلتُها. "أنتِ نجمة. يا نجمتي الصغيرة."

كانت كامليا في السادسة من عمرها عندما أسقط مناصرو الخميني شاهَ إيران عام 1979. اختارت عائلتها أن تبقى في طهران، على الرغم من أنَّ بعض أفرادها اختفوا على أيدي قوات الخميني.

وبينما كانت تكتب للجريدة الإصلاحية «زن»، سُجِنَت كامليا بتهمة تهديد الأمن القومي وتحدّي نظام الحكم الإسلامي. وبعد شهور من السجن الانفرادي والاستجوابات اليومية، اعترفت بجرائم لم ترتكبها، حتى إنها اعترفت بأنها أصبحت تعشق مُستجوبها الهمجي، وذلك لتنجو بنفسها.

بعد خروجها من السجن كان على كامليا أن تكافح مجدّداً لنيل حريتها، ولتجد مخرجاً من قبضة هذا الرجل الذي تتشارك معه في أسرار قد تؤذيها.

كامليا انتخابي فرد صحافية وشاعرة ورسامة إيرانية.

«هذه المذكّرات تُبرز شجاعة الكاتبة وذكاءها الفريد، وتحكي عن الثمن الغالي الذي دفعته وعائلتها».

بوكليست

«يُذكّرنا الكتاب بأنَّ الأدب يبقى إحدى أشدّ وسائل التعبير فعاليّة وتأثيراً...».

كيركوس ريفيوز

ISBN 978-1-85516-826-8

9 781855 168268 >

DAR AL SAQI
دار الساقي